MODERN AMERICAN LITERATURE

نيكولاس ماير

ترجمة: لطفي فطيم

أدب أمريكي حديث

THE SEVEN PER OLUTION

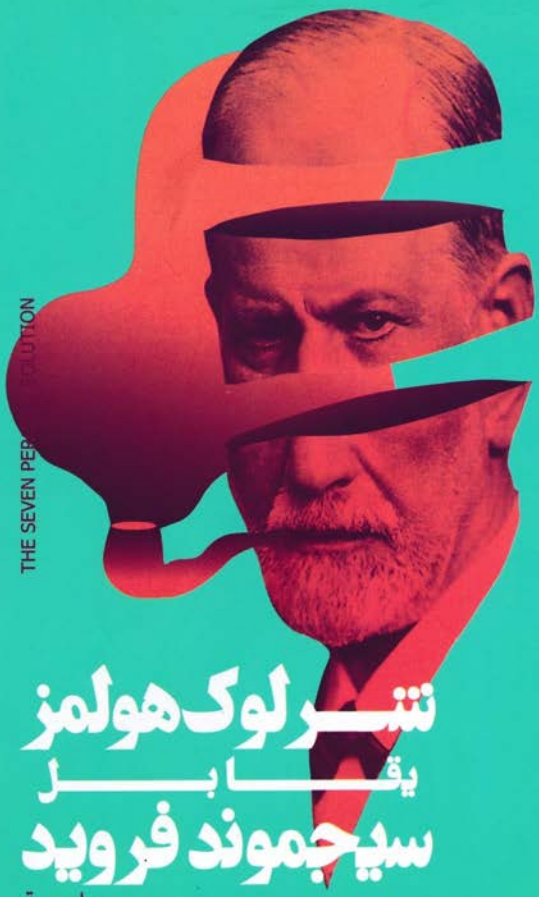

NICHOLAS MEYER

شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد

رواية

مكتبة
١٢٠٩

المحروسة

TRANSLATED BY: LOTFY FATIEM

شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد

إهداء لـ..

الأرنب الصغير الباسم

عنوان الكتاب: شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد
The Seven-Per-Cent Solution
المؤلف: نيكولاس ماير Nicholas Meyer
ترجمة: د. لطفي فطيم

مكتبة
t.me/soramnqraa

مركز المحروسة
للنشر و الخدمات الصحفية و المعلومات

قطعة رقم 7399 ش 28 من ش 9 - المقطم - القاهرة
ت، ف:- 002 02 28432157

18 6 23

facebook/almahrosacenter
twiter: @almahrosacenter
www.mahrousaeg.com
e.mail: info@mahrousaeg.com
e.mail: mahrosacenter@gmail.com

رئيس مجلس الإدارة: فريد زهران
مدير النشر: عبدالله صقر

رقم الإيداع: ٢٠١٩/٥٠١٩
الترقيم الدولي: 978-977-313-764-9

جميع حقوق الطبع والنشر باللغة العربية
محفوظة لمركز المحروسة
2019

Copyright © 1974 by Nicholas Meyer, First published 1974
All rights reserved

مكتبة 1209

شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد

نيكولاس ماير
ترجمة: د. لطفي فطيم

مكتبة
t.me/soramnqraa

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

مايو، نيكولاس، ١٩٤٥-

شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد:

رواية/ تأليف نيكولاس ماير؛ ترجمة لطفي فطيم.-

القاهرة: مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات، 2019

269ص؛ 14.5×21.5سم

تدمك 978-977-313-764-9

1 - القصص الإنجليزية

أ - فطيم، لطفي (مترجم)

ب - العنوان

823

رقم الإيداع 5019/ 2019

مقدّمة المترجم

هل كان شرلوك هولمز شخصيَّة حقيقيَّة؟

كان الحافز الأكبر لإعجابي بهذه الرِّواية وإقدامي على ترجمتها هو فكرتها اللمَّاحة في الجمع بين شخصيَّة روائيَّة هي "شرلوك هولمز"، وشخصيَّة حقيقيَّة هي العالم النَّفسيّ النِّمساويّ الأشهر "سيجموند فرويد". والحافز الثَّاني هو اعتقادي أنَّها كانت ستلقى استحسانًا من أستاذنا الرَّاحل الدُّكتور مصطفى زيور (1907- 1990) رائد التَّحليل النَّفسيِّ في العالم العربيِّ، والَّذي تلقَّينا ذلك العلم على يديه إبَّان الصِّبا.

وأغلب ظنِّي أنَّ شخصيَّة "شرلوك هولمز" الَّتي ابتدعتها قريحة الكاتب الانجليزيِّ الكبير "السِّير آرثر كونان دويل" (وكان بالمناسبة طبيب عيون) ستظلُّ إلى نهاية الدَّهر المرجِع الأوَّل في كلّ ما يتعلَّق بفنِّ الرِّواية البوليسيَّة. فهذه الشَّخصيَّة الأسطوريَّة، شخصيَّة المخبِر السِّرِّيِّ العبقريِّ، الَّذي يستخدم العقل والمنطق ببراعة يحسده عليها

أعظم العلماء والفلاسفة؛ ليكشف غوامض جرائم يعجز عن الإتيان بها أعظم عباقرة الإجرام. لا شكَّ أنَّ هذا كلّه سيظلُّ دومًا المرجِع الذي يغذِّي كلَّ مَن له اهتمام بهذا النّوع من الفنون الإنسانيَّة.

وفي تقديري أنَّ كافَّة نماذج شخصيَّة البوليس السِّرِّيِّ التي تزدحم بها الرِّوايات المعاصرة أمثال "بوارو" "شارلي شان" و"ماجنوم" و"الفهد القرمزيّ" وما إلى ذلك، إنَّما تقتبس كلّها من ذلك العبقريّ "شرلوك هولمز".

وقد بلغ صيت هذا المخبر السِّرِّيِّ مبلغًا جعل السِّينما تنتج عددًا كبيرًا من رواياته، بل إنَّ هذه الرِّواية التي نقدِّمها اليوم أخرجتها السِّينما في فيلم معروف في السَّبعينيَّات. ولسوء الحظِّ لم تُوَفِّ السِّينما هذه الرِّوايات حقَّها، وهي معذورة في ذلك، فبراعة شرلوك هولمز تتجلَّى في استخدام العقل والمنطق أقلّ ممَّا تتجلَّى في الأحداث المثيرة والعنف. وهذا أمر من الصَّعب على السِّينما أنْ تُوَفِّيه حقَّه؛ ولذلك فقد تبدو هذه الأفلام الَّتي يقومُ ببطولتها شرلوك هولمز إمَّا مملَّة وبطيئة الإيقاع، وإمَّا سريعة الحركة لا يكاد المشاهد أنْ يلتقط بدقَّة خيوط فكرتها. وقد يرجع ذلك أيضًا إلى براعة الممثِّل الَّذي يقوم بدور هولمز.

ومن حيث علاقة شرلوك هولمز بعالم الأدب والكتابة، فقد نشأت في العالم في ثلاثينيَّات القرن العشرين جماعات أدبيَّة متعدِّدة تنتسب إلى شرلوك هولمز، تتدارس فيما بينها تلك الرِّوايات، وتتعمَّق في فهم خفايا النَّفس البشريَّة على الطَّريقة "الشَّرلوكيَّة". وفي عالم الكتابة ظهر ما لا يقلُّ عن ثلاثين رواية تتناول كلُّها شخصيَّة هولمز أو شخصيَّة "موريارتي" عدوّه اللدود أو تقدّم مغامرات جديدة منسوبة إلى البطل المعروف.

وفي عام 1994 نال الدّكتور كيث أوتلي، أستاذ علم النَّفس التَّطبيقيِّ في جامعة أونتاريو بكندا جائزة الكومنولث البريطانيّ (مقدارها 3000 جنيه استرلينيٍّ) عن أوّل رواية كتبها بعنوان "قضيَّة إميلي". ومن المدهش أنَّ أحداث تلك الرِّواية تدورُ حول لقاء آخر بين شرلوك هولمز وسيجموند فرويد. إذْ يكتشف الاثنان أنَّهما يبحثان قضيَّة واحدة، وذلك عندما لجأت السَّيّدة إميلي فنسنت إلى فرويد في فيينا؛ لعرض حالتها النَّفسيَّة عليه، وأخفت عنه أنَّها قتلت زوج أمِّها وهو يحاول الاعتداء عليها، وهي الجريمة الَّتي كان شرلوك هولمز يعمل على حلِّ ألغازها[1]. من الواضح إذن أنَّ تلك العلاقة لا تزال مصدرًا لوحي وإلهام كثير من المفكِّرين. والرِّواية الحاليَّة من تأليف روائيٍّ ليست له شهرة كبيرة، اسمه "نيكولاس ماير" ونُشِرَتْ لأوَّل مرَّة في انجلترا عام 1975.

والاسم الأصليُّ للرِّواية هو:

The seven- per- cent Solution: Being a reprint from the reminiscences of John H. Watson M. Das edited by Nicholas Meyer.

وترجمتها الحرفيَّة: " المحلول الذي تبلغ درجة تركيزه 7 % من ذكريات د. جون واطسون كما حرَّرها نيكولاس ماير". وكما ترون، فإنَّه اسم طويل ليس له جرس موسيقيٌّ؛ لذلك فضَّلت اختيار اسم مستمدٍّ مباشرة من موضوع القصَّة. ويورد المؤلِّف في "اعترافه بالفضل لذويه" أنَّ الأفكار الَّتي بنى عليها روايته قد استقاها من مئات الكتب الَّتي تناولت شرلوك هولمز، وأنَّ في عنقه دينًا لعدد كبير من الكُتَّاب، لعلَّ أهمَّهم ويليام بارينج- جولد مؤلِّف "شرلوك هولمز ساكن شارع بيكر"، الذي استعار منه فكرة أنَّ البروفسور موريارتي

(1) The Psychologist, Vol. 8, 1995.

كان مدرِّس الرِّياضيَّات لشرلوك هولمز في صغره. كما استعار من كتاب تريفور هوارد "شرلوك هولمز: عشر دراسات أدبيَّة" فكرة العلاقة الآثمة التي نشأت بين والدة هولمز ومدرِّس الرِّياضيَّات، ثمَّ قتلها على يد أبيه، وكذلك تاريخ أسرة هولمز الذي يفسِّر الكثير من جوانب شخصيَّة المخبر السِّرّيِّ الشَّهير.

ومن مقال الطَّبيب النَّفسيّ المعروف دافيد موستو الَّذي نشره في "مجلَّة اتِّحاد الأطبَّاء الأمريكيين" استقى فكرة الرَّبط بين هولمز وفرويد من خلال الكوكايين، كما استقاها أيضًا من كُتَيِّب إيرفينج جافي "مسألة بديهيَّة يا عزيزي واطسون".

وهو مدين أيضًا لكتابي مايكل هاريسون: "في خطى شرلوك هولمز" و"لندن في زمن شرلوك هولمز" بالمعلومات الوفيرة عن عصر الملكة فيكتوريا، وأحوال العالم أيَّام شرلوك هولمز. أمَّا الفضل الأوَّل والأخير، فيرجع طبعًا إلى العبقريِّ مبتكر شخصيَّة هولمز آرثر كونان دويل. وعلى أيِّ حال، لقد تمكَّن الكاتب من أن يصوِّر لنا ببراعة جانبًا من حياة فرويد وطريقته العلاجيَّة من خلال مغامرة شيِّقة من مغامرات شرلوك هولمز.

ويبلغ هوس الانجليز ببطلهم هذا حدًّا كبيرًا، بل لقد توحَّدوا معه إلى درجة أن حوَّلوه من شخصيَّة روائيَّة، إلى شخصيَّة حقيقيَّة عاشت في شارع بيكر في لندن. فيتناول الكثيرون ممَّن بحثوا ودرسوا شخصيَّة شرلوك هولمز الأمرَ على أساس أنَّه شخص حقيقيٌّ، فكان موضوعًا لأفلام سينمائيَّة بلغت الثَّلاثمائة، بالإضافة إلى أفلام الأطفال (الكارتون)، كما كانت سيرته موضوعًا لباليه؟ فضلًا عن عدد كبير من الكتب بما في ذلك ثماني سير طويلة، ولا يزال مكتب بريد لندن يتلقَّى سنويًّا مئات الرَّسائل الموجَّهة إلى هولمز.

أمَّا فرويد- وهذا هو الأمر الغريب- فما يزال المؤلِّفون يكتبون سيرة حياته، وآخرها كتاب بيترجاي: "فرويد: حياة من عصرنا" الذي صدر عام 1988. ومنذ وفاته عام 1939 حتَّى الآن صدر ما لا يقلّ عن ثلاثين سيرة لحياته بمعدَّل سيرة جديدة كلّ سنة تقريبًا.

ونشرت مجلَّة علم النَّفس البريطانيَّة عام 1988 بحثًا حاول فيه مؤلِّفه إثبات أنَّ أشهر مَن بحث السّلوك في القرن التَّاسع عشر لم يكن عالمًا سيكولوجيًّا، وإنَّما كان مخبرًا خاصًّا، هو شرلوك هولمز. واستند في ذلك إلى استعراض لحياته وأعماله الَّتي تتطابق- كما يقول- مع علوم النَّفس البازغة في ذلك الحين خاصَّة التَّحليل النَّفسيّ.

وقد عُقِدَتْ مقارنات كثيرة بين هولمز وفرويد، فقد وُلِدَ فرويد عام 1856، بينما وُلِدَ هولمز- كما تُجْمِعُ المصادر عام 1854. وابتكر كلاهما مهنة جديدة: المحلِّل النَّفسيّ والمخبر الخاصّ. وحصل كلاهما على الشُّهرة بعد أن نبذته مؤسَّسته المهنيَّة في بادئ الأمر. وكان الاثنان من كبار المدخِّنين، السِّيجار لفرويد والغليون لهولمز. وقد ظهرت مباحث شرلوك هولمز لأوَّل مرَّة في الصُّحف البريطانيَّة في نوفمبر 1887. بينما افتتح سيجموند فرويد عيادته في فيينا يوم الأحد 25 أبريل 1886.

ولا شكَّ أنَّ فرويد كان يعلم بوجود هولمز، فقد أشار إليه في خطاب إلى يونج، كما أنَّ مريضه المشهور المسمَّى "بالرَّجل الذِّئب" أشار إلى محادثة دارت بينه وبين فرويد بشأن هولمز. ولنا أن نتساءل ما إذا كان هذان الرَّجلان العظيمان قد تقابلا يومًا من الأيَّام؟ إنَّ هذا التَّساؤل هو موضوع القصَّة التي نقدِّمها اليوم، ولو أنَّ هناك مَن يستبعد حدوثها.

وكان بكلٍّ من هولمز وفرويد حرص شديد على قيام الدَّليل والبرهان، في حالة هولمز كان يعنيه صدور هذا الدَّليل عن فاعل رئيسيٍّ

في شكل اعتراف يتلوه في بعض الحالات صدور إدانة من المحكمة. وفي حالة فرويد قبول المريض للتَّفسير. وقد انتقى الاثنان من أعمالهما ما يريدان عرضه على النَّاس، فالكمُّ الهائل من كتابات فرويد لا يحتوي إلَّا "دستة" من الحالات الَّتي عُرِضَتْ بكاملها، بينما أشار إلى حوالي 130 حالة أخرى. أمَّا عدد الحالات بالضَّبط الَّتي باشرها خلال حياته المهنيَّة الَّتي امتدَّت حوالي أربعين عامًا، فلا نعلمه. وبالنِّسبة لهولمز، فلدينا ستّون حالة معترف بها، وإشارة إلى ما يزيد على ثماني حالات، وذلك من مجموع يزيد على 1500 قضيَّة غالبًا. كما كان الاثنان على دراية واسعة باللغات والآداب. وبالإضافة إلى كلّ تلك التَّشابهات هناك تطابق واضح في المفاهيم، فالصِّراع الأساسيّ في نظريَّة التَّحليل النَّفسيّ هو الصِّراع الأوديبيّ الذي يشمل صراع الطِّفل ضدّ الأب الذي يَعُدُّه مسيطرًا مستبدًّا، ويمثِّل خطرًا داهمًا عليه، وكذلك تخيّل تدمير هذا الأب أو دمار الطِّفل على يديه. ويظهر مثل هذا الأب بوضوح في 23 حالة من حالات هولمز.

هولمز وأصحاب علم النَّفس غير فرويد:

بدأ هولمز حياته المهنيَّة في عام 1877 أي قبل سنتين من التَّاريخ المتعارف عليه لقيام أوَّل مختبر لعلم النَّفس، وهو معمل "فونت" في لايبزيج بألمانيا. ولكن لم يستقرّ به الحال إلَّا عام 1881 عندما استأجر هو والدّكتور واطسون المسكن الشَّهير في 221 ب شارع بيكر في لندن. فإلى أيِّ حدٍّ عرف هولمز الاتِّجاه العلميّ في تناول السُّلوك؟

لقد كان بالتَّأكيد عارفًا بداروين- انظر رواية "دراسة في اللون الأحمر". (وقد ظهرت في السِّينما بنفس الاسم). كما كان ذا اهتمام شديد بالوراثة، وعلى دراية بقوانينها، انظر رواية "الوجه الأصفر" 1886. وكان يعتقد في وراثة "السِّمات الشَّخصيَّة"، فنجده في رواية

"أشجار الزَّان النّحاسيَّة" يستدلُّ على الشَّخصيَّة الكريهة لكلٍّ من مستر ومسز كاسل ممَّا شاهده من استمتاع طفلهما بقتل الحشرات بحذائه. وزعم هولمز أنَّ قدراته هو نفسه كانت موروثة. ونجده أيضًا في رواية "المنزل الخالي" يدعم نظريَّة أنَّ تطوّر الفرد يلخِّص تطوّر النّوع كلّه، وهو أمر لا يبعد كثيرًا عن نظريَّة داروين.

ويدعو كلّ ما سبق إلى نوع من المقارنة بأفكار السِّير فرانسيس جالتون، ولا نعلم أنَّ أحدًا أشار إلى أنَّ هولمز قد قابل جالتون، ولكن يمكننا أن نقارن غرام جالتون بالأرقام بما قاله هولمز من أنَّه من أنصار قانون المتوسِّطات. وكان هولمز خبيرًا في استقراء الشَّخصيَّة من الخطِّ "علامة الأربعة". مثلما كان جالتون يَعُدُّ الخطَّ اختبارًا دقيقًا للاختلاف في تنظيم الشَّخصيَّة، وأوصى باستخدامه في التَّشخيص النَّفسيِّ.

وكان هولمز يَعُدُّ نفسه، بالتَّأكيد، عالمًا؛ إذْ يقول: "الاستقراء علم مضبوط، أو يجب أنْ يكون كذلك، إنَّ الصِّفات المطلوبة في المخبر المثاليِّ هي: الملاحظة والاستقراء والمعرفة". ومع أنَّ ثقافته كانت واسعة إلَّا إنَّها كانت منتقاة. ولقد سبق هولمز ويليام جيمس في تفسير الذَّاكرة، فشبَّهها بحجرة فارغة يملؤها العامل الماهر بالأدوات الَّتي تساعده في عمله فقط، ولديه منها تشكيلة كبيرة متنوِّعة في حالة جيّدة وصالحة للاستعمال "دراسة في اللون الأحمر". بينما يصفها جيمس بأنَّها "الطَّريقة الَّتي يفكِّر بها الخبير في خبراته، وينسج منها شبكة من العلاقات، بينما قد يلاحظ وقائع كثيرة عديمة الفائدة، ولكنَّه سرعان ما ينساها". كما تجلَّت لدى هولمز ما أسماه جيمس بالذَّاكرة الاستطراديَّة، وهي القدرة على تذكُّر كمّيَّات كبيرة من الموادّ الَّتي يبدو أنَّه لا قيمة لها.

ويرى هولمز بوضوح أنَّ الملاحظة ليستْ هي الإدراك، فيقول لواطسون: "أنت ترى، ولكنَّكَ لا تلاحظ"، كما كان يؤكِّد باستمرار

أولويَّة الوقائع على النَّظريَّة، "فمن أكبر الأخطاء أن تضع نظريَّة قبل أن تكتمل لديك الوقائع". وقال أيضًا: "إنَّ الميل إلى وضع النَّظريَّات الفجَّة وفقًا لوقائع غير مكتملة هي آفة مهنتنا". ولعلَّه كان يتحدَّث بلسان أصحاب علم النَّفس حين قال: "استبعد المستحيل، وما يبقى بعد ذلك، مهما بدا غير محتمل يجب أن يكون الحقيقة".

كان علم النَّفس- عمومًا- في أيَّام هولمز يحاول أن يصبح موضوعيًّا. كان بادئًا في التَّجريب، ولكنَّه كان لا يزال شديد الاعتماد على الطَّريقة التَّاريخيَّة، أو ما يُسَمَّى "إعادة بناء الأحداث" لفهم الأسباب. وكان شرلوك هولمز في شتَّى مسالكه يشكِّل نوعًا من التَّوازي مع باحثي علم النَّفس المعاصرين له، خاصَّة فرويد. وكان مثلهم يستلفت انتباهَ الرَّأي العام، ويلهب خياله، وبشكل أكثر دراميَّة بالتَّأكيد، وكان كلّ ما يفعله هولمز يصبح "موضة" على التَّوِّ. وقد ارتدى النَّاس السَّواد عندما أُعْلِنَ عن موته خطأً عام 1893. ولعلَّ بافلوف كان الوحيد من بين أصحاب علم النَّفس الذي نال مثل هذا التَّكريم.

ولعلَّه من المعقول أن نفترض أنَّ مغامرات شرلوك هولمز تضرب لنا مثلًا مقبولًا في كيفيَّة النَّظر إلى السُّلوك الإنسانيِّ: دراسته وتفسيره، وأنَّ طريقته مشابهة للطُّرق التي اتَّبعها أصحاب علم النَّفس الأكاديميِّ، ولكنَّها أقرب للأفكار الشَّهيرة والمثيرة للجدل للتَّحليل النَّفسيِّ. وكانت تلك الأفكار- ولا تزال- بالنِّسبة للكثيرين النَّموذج أو النَّمط الأوحد لنظريَّة في السُّلوك، وأسلوب دراسته. ولا تتطابق حالات هولمز من نواحٍ كثيرة مع التَّحليل النَّفسيِّ فحسب، بل لقد كانت أيضًا بشيرًا به.

أمَّا إلى أيِّ حدٍّ أثَّرَ نموذج هولمز بالفعل على دارسي السُّلوك الإنسانيِّ، وإلى أيِّ مدى يعكس ذلك تغيُّرات عامَّة في طرق التَّفكير، فهذه مسألة أكبر شأنًا، وربَّما تذكِّرنا حالاته بأنَّ طرق تفكير أصحاب علم النَّفس

في السُّلوك في لحظة معيَّنة ليست نهائيَّة أو نسيجًا وحدها. وعلى أيِّ حال، فقد كانت له كلمة مأثورة يردِّدها دائمًا:

"الإنسان... ذلك اللغز الغريب"، وهو قولٌ لا يمكننا معارضته.

د. لطفي محمَّد فطيم

أستاذ علم النَّفس

زميل الجمعيَّة النَّفسيَّة البريطانيَّة

23 مايو 1994.

مصادر مقدّمة المترجم

1. Dakin, D.M. (1972). A Sherlock Holmes Commentary. Newton
   Abbot: David and Charles.
2. Doyle, A.C. (1981). The Penguin Complete Sherlock Hoimes.
   - Harmondsworth: Penguin Books.
3. Freud, S. (1925): an autobiographical Study. (Trans. 1935).
   London: Hogarth Press.
4. Freud, S. (1974): Letter to C.G. June in W. Mcguire (ed.) The Freud- Jung Letters. London: Hogarth Press.
5. Hall, T.H. (1978). Sherlock Holmes and His Creator. London Duckwoth,
6. Marcus, S. (1984). Sigmunc Freud and the Culture of Psychoana- lysis. London: George Allen and Unwin.
7. Musto, D. F. (1960). Sherlock Holmes and heredity. Journal of the American Medical Association (196 (I), 165- 169.
8. Musto, D.F. (1967). A study in cocaine. Journal of American
   Medical Assoiation, 204. (1) 125- 130.

9. Pankeyev, S. K. (1972). My recollections of Sigmund Freud.
London: Hogarth Press,

10. Rosenberg, S. (1975). Naked is the Best Disguise.
London Arling- ton Books.

11. Shepherd, M. (1985). Sherlock Holmes and the Case of Dr. Freud.

London: Tavistock.

12. Peter Gay (1988) Freud, A life for our time, Papermac 1993, reprint) London.

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمهيد

لقد كان اكتشاف مخطوطة لم تُنْشَرْ من قبل لجون واطسون، مثيراً لقدر كبير من الدَّهشة، بل والشَّكّ في عالم الكتابة والأدب، ولعلَّ تصوُّر اكتشاف مخطوطة أخرى بين مخطوطات البحر الميّت أقرب إلى الذِّهن من تصوُّر مخطوطة أخرى من يد ذلك الكاتب المترجم الذي لم يملّ قطّ.

ولقد أُتْخِمْنَا أخيراً بعدد من الوثائق المزوَّرة- لا مفرَّ من الاعتراف بأنَّ بعضها متقن، وبعضها الآخر مجرَّد ادِّعاء- بحيث إنَّ مجرَّد ظهور وثيقة تاريخيَّة أصليَّة أخرى قد يثير بشكل أوتوماتيكيٍّ- نوبة من العداء المشوب بالملل في صدور الدَّارسين الجادِّين للشَّرائع، من أين أتت تلك الوثيقة؟ ولماذا لم تظهر قبل الآن؟ هذه هي الأسئلة المحتومة التي سيضطر الدَّارسون إلى إلقائها المرَّة تلو المرَّة قبل الانصراف إلى تصنيف وتعديد التَّناقضات الكثيرة جدًّا في الأسلوب والمحتوى، والَّتي ستصم الوثيقة بأنَّها "زائفة".

وبالنِّسبة للمخطوطة الحاليَّة، فليس من المهمِّ أن أعتقد في صحَّتها أم لا، وبالنِّسبة لقيمتها، فلنَقُلْ إنَّني أعتقد فيها. أمَّا كيف وصلت إلى يدي؟ فذلك بصراحة بسبب المحاباة كما يتَّضح من خطاب عمِّي، الذي أورده بنصِّه فيما يلي:

لندن في 7 مارس 1970

عزيزي نيك

أعلم أنَّنا- أنا وأنت- تفترسنا مشاغل كثيرة؛ ولذلك فسأتَّجه مباشرة إلى لبِّ الموضوع "ولا تقلق من الحزمة المرفقة، فهي لا تمثِّل محاولة منِّي لإظهار أنَّ حياة سمسار الأوراق الماليَّة هي حياة رائعة أو سهلة".

اشترينا- أنا وفيني- منذ ثلاثة شهور منزلًا في هامبشير من أرمل يُدْعَى سوينجلين(1) "تصوّر الاسم!". وكانت زوجة الرَّجل المسكين قد تُوفِّيَتْ لتوِّها- كانت في منتصف الخمسينيَّات كما أتصوَّر- وكان الرَّجل محطَّمًا، يريد ترك المسكن بأسرع ما يمكن، وقد عاشا فيه منذ الحرب، وكانت مسألة تنظيف "الصَّندرة" أو السَّقيفة مسألة ثقيلة على نفسه. وكانت كلّ متعلّقاته وأوراقه "يا لهذا الكمّ الهائل من الأوراق الَّتي يجمعها المرء في حياته!" الَّتي يحتاج إليها موجودة في المنزل، وقال لنا يمكنكما تنظيف "الصَّندرة" إذا أردتما، وأيّ شيءٍ تجدونه فيها تستطيعون الاحتفاظ به.

وليس من المعتاد أن "ينكش" المرء في مخلَّفات شخص آخر، ويأخذ ما يريد، وأصدقكَ القول أنَّني كلَّما فكَّرت في الأمر قلَّ حماسي للقيام به. كان المكان مزدحمًا بالأثاث، والكراكيب، والمصابيح، وأشياء غطَّتها الأتربة، بل وصندوق ضخم من ذلك النّوع الذي يحمل فيه

(1) وتعني بالانجليزيَّة "محتال".

المسافرون بالبحر حاجيَّاتهم! إلَّا أنِّي كنت مستاءً من التَّنقيب في ماضي المسكين سوينجلين، حتَّى ولو كان ذلك بإذنه.

ومع أنَّ فيني كانت تحسُّ بنفس شعوري، ولكنَّها - خلال تأثيثها للمنزل - دار بذهنها أنَّه قد يوجد في ذلك المخزن شيءٌ ينفع، خاصَّة أنَّ أسعار الأثاث أصبحتْ كما تعلم، كما كان لديها في نفس الوقت أشياء تريد تخزينها وإزاحتها من الطَّريق، وهكذا صعدتْ إلى المخزن، ونزلتْ تكاد تختنق بالتُّراب ملطّخة الوجه حتَّى بدت كمنظِّفي المداخن.

لن أطيل عليك، فقد وجدنا رزمة من الأوراق هي الَّتي نرفق لك صورة منها. ومن الواضح أنَّ المسز سوينجلين كانت طبَّاعة على الآلة الكاتبة، "وكان اسمها قبل الزَّواج ولسون" تعمل في إيلزورث هاوس، وهو شبه مصحَّة لكبار السِّنِّ، انتقلت ملكيَّته أخيرًا إلى هيئة الصِّحَّة القوميَّة. وخلال عملها- وكان يشمل مساعدة المرضى في كتابة الخطابات لذويهم- كتبت على الآلة الكاتبة "وهي بالمناسبة توجد أيضًا في المخزن بحالتها" الرُّزمة المرفقة، وأملاها عليها طبيب يُدْعَى جون. هـ واطسون!

وقد استغرقت قراءة تلك الأوراق وقتًا. ولكنَّني لم أُمْضِ فيها أكثر من ثلاث أو أربع صفحات فيما سمَّاه المؤلِّف بالمقدِّمة، حتَّى اكتشفتُ حقيقتها، وخطر ببالي بالطَّبع أنَّها قد تكون عمليَّة تزييف كبرى، لم تَرَ النّور، ودُفِنَتْ في ذلك المخزن؛ ولذلك فقد تمعَّنتُ في الأمر، فوجدت أوَّلًا أنَّ مستر سوينجلين لا يدري عنها شيئًا، فقد سألته سؤالًا عابرًا، فلم يتذكَّر شيئًا، بل ولم يُبْدِ أيَّ اهتمام. ثمَّ ذهبت إلى إيلزورث هاوس، وطلبت منهم مراجعة الملفَّات، وكان هناك بعض الشَّكّ فيما إذا كانت ملفَّاتهم لا تزال قائمة حتَّى ذلك التَّاريخ- فقد قلبت الحرب كلّ شيء- ولكن لازمني حسن الحظّ. ووجدت أنَّه في

عـام 1932 أُدْخِـلَ إلى المصحَّـة مَـن يُدْعَـى دكتـور جـون هـ. واطسـون "التهـاب مفاصـل روماتزميّ شـديد"، وذكـر في ملفِّـه أنَّـه يتبـع فرقـة نـور ثمبرلانـد الخامسـة للبنـادق! ولم يعـدْ هنـاك مجـال لأيِّ شـكٍّ عـلى الأقـلّ فيـما يتعلَّـق بي، وكنـت أتحـرَّق شـوقًا لمعرفـة تفاصيـل الملـفّ "ألا تشـتاق لمعرفـة حقيقـة أيـن أُصِيـبَ واطسـون؟"، ولكـنَّ كبـيرة الممرِّضـات لم تتـح لي الفرصـة، فلـم يكـن لديهـا وقـت لتنتظـرني، كـما أنَّ الملـفَّ سرِّيٌّ "آه أيَّتهـا البيروقراطيَّـة... مـاذا تفعـل هيئـة الصِّحَّـة القوميَّـة بدونـك!".

عـلى أيِّ حـال كان ذلـك برهانًـا قويًّـا عـلى صـدق المرفقـات الَّتي أرسـلها إليـك لتسـتخدمها أفضـل اسـتخدام تـراه، فأنـت "الشّـيرلوكي" الوحيـد في العائلـة، وسـتعرف كيـف تتصـرَّف فيهـا، وإذا كانـت فيهـا فائـدة "نقسـمها بالنّـصّ".

أفضل تحيَّاتي إليك

هنري

ملحوظـة: تقـول فينـي إنَّ لهـا نصيبًـا هـي الأخـرى؛ فهـي الَّتـي وجدتهـا.

ملحوظـة أخـرى: نحـن نحتفـظ بالأصـل، وسـنرى إن كانـت صالـة سـوثبي تحـبُّ أن نعرضهـا في المـزاد، وسـواء أكانـت المخطوطـة أصليَّـة أم لا، فإنَّهـا تحتـاج إلى إعـادة صياغـة، وربَّمـا كان تحقيـق طبعـة لبلوتـارك أسـهل مـن مواجهـة المشـاكل الَّتـي تخلقهـا مخطوطـة عُـثِرَ عليهـا حديثًـا لواطسـون. ولقـد تبادلـت مراسـلات كثـيرة مـع "أنصـار شرلـوك هولمـز" وعددهـم يفـوق الحصـر، بحيـث لا يمكـن ذِكـر أسـمائهم هنـا، وكانـت لهـم جميعًـا ملاحظـات قيّمـة، ولم يتوانـوا في تقديـم النَّصائـح والتَّعليقـات والأفـكار اللَّامعـة فيـما يتعلَّـق بذلـك الاكتشـاف الجديـد. ولعـلَّ أعظـم اعـتراف بالفضـل لهـم هـو صـدور هـذا الكتـاب في حدِّ ذاتـه، فلقـد تمكَّنت

بفضل مساعداتهم من الاحتفاظ بأسلوب د. واطسون في السَّرد بما يجعل القصَّة متَّسقة.

ولم يتمكَّن واطسون قطّ، لأسباب غير معروفة تحديدًا - في حدود ما نعلم- أن يعيدَ صياغة وتحرير هذه المخطوطة. ولعلَّ موته، أو ربَّما ظروف الحرب، هي الَّتي منعته؛ ولذلك حرصت عند تجهيز الكتاب للنَّشر أن أعمل ما اعتقدت أنَّه كان سيفعله هو نفسه، فاستبعدت التِّكرارات، فكبار السِّنِّ لديهم ميل لتكرار أنفسهم، ورغم أنَّ ذاكرة واطسون فيما يتعلَّق بالوقائع يبدو أنَّها ظلَّت سليمة، فإنَّه كان أميل إلى تكرار التَّفاصيل المهمَّة، كما استبعدت بعض "الشَّطحات" الَّتي كان يقوم بها من حينٍ لآخر، عندما كان يبدو أنَّ عقله يسرح في القصَّة الأصليَّة، وينطلق بلا قيد في السَّنوات التي تفصل بين الحوادث "وهذه الذِّكريات لها قيمة في حدِّ ذاتها، ولا شكَّ أنَّني سأسردها في شكل ملاحق في الطَّبعات التَّالية"، وأنا أدرى النَّاس أنَّ الهوامش تشتِّت الانتباه خلال سرد القصَّة؛ ولذلك فقد تعمَّدت أن أبقيها في أدنى حدٍّ ممكن، وذكرت فقط تلك الَّتي لابدَّ منها، بشكل غير ملحوظ قدر الإمكان.

وبالنِّسبة لباقي المخطوطة، فقد تركتها على حالها، فالدُّكتور واطسون بارع في سرد القصص، ولا يحتاج إلى أيِّ تدخُّل منِّي، وإذا تركنا جانبًا الإغراء الذي كان ينتابني أحيانًا بأن أختزل أو "أصنفر" عبارة هنا أو هناك- فلا شكَّ عندي أنَّ الدُّكتور كان سيفعل الشَّيء نفسه عند المراجعة، وفيما عدا ذلك فقد ظلَّ كلّ شيء كما خطَّه المخلص الأمين الدُّكتور واطسون.

نيكولاس ماير- لوس أنجلوس، 30 أكتوبر 1973

تقديم

ظللت لسنوات عدَّة- لحسن حظِّي- شاهدًا ومؤرِّخًا، وأحيانًا، مساعدًا لصديقي مستر شرلوك هولمز في عدد من القضايا الَّتي عُهِدَ بها إليه بصفته الَّتي انفرد بها، ألا وهي "المخبر السِّرِّيّ الاستشاريّ"، والحقيقة أنَّه في عام 1881 عندما أودعت الورق محتوى أوَّل قضيَّة قمنا بها معًا، كان مستر هولمز، كما قال، المخبر السِّرِّيّ الاستشاريّ الوحيد في العالم، وشهدت السَّنوات التَّالية تحسُّن هذا الموقف بدرجة كبيرة حتَّى إنَّنا نرى اليوم- في عام -1939 انتشار المخبرين السِّرِّيّين الاستشاريين- وإن لم يحملوا هذا الاسم- في كافَّة بلاد العالم المسمَّى بالمتمدين. ويستخدم الكثيرون منهم- لشدَّة سروري- الأساليب والطُّرق الَّتي أنشأها صديقي المتميّز من زمن بعيد، ولو أنَّ الكثيرين منهم لا يعترفون بالفضل لتلك العبقريَّة بالدَّرجة الَّتي تستحقُّها.

وكان هولمز، كما حاولت أن أصفه دائمًا، فردًا يحبُّ الخصوصيَّة بدرجة شديدة، وكان في بعض النَّواحي معتزلًا لدرجة الغرابة والشُّذوذ، وكان مغرمًا بأن يبدو ساكنًا حازمًا عابسًا متباعدًا كما لو كان "ماكينة مفكِّرة" ليس لها اتِّصال مباشر أو تواصل مع ما يَعُدُّه الواقع المادِّيّ

الـدَّنيء. والحقيقـة أنَّ مـا اشْـتُهِرَ بـه مـن بـرود كان فعـلًا مقصـودًا ومتعمّدًا مـن صنعـه هـو نفسـه، ولم يكـن يسـعى بذلـك إلى إقنـاع أصدقائـه- وهـم قلَّـة- أو كاتـب سـيرته بذلـك الجانـب مـن طبعـه، إنَّمـا كان يريـد أن يقنـع نفسه .

ولقـد مكَّنتنـي السَّـنوات العشـر الَّتـي انقضـت منـذ موتـه مـن التَّأمُّـل والتَّفكـير في مسـألة شـخصيَّة هولمـز، ووصلـت إلى إدراك حقيقـة كنـت أعرفهـا بالتَّأكيـد- ولكنَّنـي لم أعـرف أنَّنـي كنـت أعـرف- ألا وهـي أنَّ هولمـز كان شـخصًا عميـق العواطـف، وكان اسـتعداده للانفعـال عنصـرًا مـن عنـاصر شـخصيَّته يحـاول أن يقمعـه ولـو بجسـده. لقـد كان هولمـز يعُـدُّ انفعالاتـه نوعًـا مـن التَّشـتيت، بـل عبئًـا، وكان مقتنعًـا بـأنَّ تـرك العنـان للمشـاعر سـيؤثِّر عـلى الدِّقَّـة المطلوبـة لعملـه، وأنَّ هـذا أمـر لا يمكـن السَّـماح بـه. لقـد تنـزَّه عـن العاطفـة. أمَّـا تلـك اللحظـات في حياتـه الَّتـي أرغمتـه فيهـا الظُّـروف عـلى التَّخلِّي عـن تحفُّظـه، فقـد كانـت نـادرة تمامًـا، ولكنَّهـا كانـت دائمًـا رائعـة يـكاد يحـسُّ الملاحـظ لهـا أنَّـه شـاهد شـهابًا لامعًـا يـبرق في سـماء مظلمـة.

ولم يكـن هولمـز يحـبُّ تلـك اللحظـات، الَّتـي كانـت تحـدث فجـأة بحيـث تفقـده اتِّزانـه، بـل واتِّـزان أيّ شـاهد. ولذلـك فقـد كان يمتلـك ترسـانة حقيقيَّـة مـن التَّصـرُّفات الَّتـي يلجـأ إليهـا، والَّتـي كان هدفهـا الحقيقـيّ- سـواء أعـترف بذلـك أم لا- هـو التَّنفيـس عـن الضُّغـوط عندمـا يكـون ذلـك التَّنفيـس أمـرًا لابـدَّ منـه. ولمَّـا كانـت إرادتـه الحديديَّـة قـد سـدَّت الطَّريـق أمـام الأسـاليب التَّقليديَّـة للتَّعبـير، فقـد كان يلجـأ إلى القيـام ببعـض التَّجـارب الكيميائيَّـة- الغامضـة- الَّتـي كانـت تبعـث غالبًـا رائحـة كريهـة، أو يرتجـل عـلى الكـمان ألحانًـا لسـاعات طويلـة (ولقـد ذكـرت في أماكـن أخـرى مـدى إعجـابي بملكاتـه الموسـيقيَّة)، أو يزيّـن حوائـط مسـكننا في شـارع بيكـر بآثـار الطَّلقـات النَّاريَّـة، يرسـم بهـا عـادة

الحروف الأولى من اسم صاحبة الجلالة الملكة، أو اسم غيرها من المشاهير الَّذين يلفتون انتباه عقله، ذلك العقل الَّذي لا يقرّ له قرار.

كما كان يتعاطى الكوكايين!!!

وقد يندهش البعض من هذه الطَّريقة الملتوية الَّتي اتَّبعتها في سرد قصَّة أخرى من إنجازات صديقي اللامعة، ولكنَّ الأغرب من ذلك أن أبدأ في سرد قصَّة من قصصه في هذا التَّاريخ المتأخِّر. وكلُّ ما آمل فيه، بعد أن أبدأ قصَّتي، وأبيِّن مصدرها أن أفسِّر السَّبب في تأخُّري في عرضها على النَّاس.

إنَّ مصادر هذه المخطوطة تختلف اختلافًا نسبيًّا عن المصادر الَّتي استندتُ إليها في الحالات التي سبق لي تسجيلها. ففي تلك الحالات، كنت أرجع إلى المذكِّرات التي دوَّنتها في وقتها، ولكن لم توجد مثل هذه المذكِّرات خلال الفترة الَّتي حدثت فيها الواقعة الحاليَّة.

وهناك سببان لما يبدو إهمالًا منِّي، أوَّلًا أنَّ هذه الواقعة بدأت بطريقة غريبة، بحيث إنَّها سارت في طريقها دون أن أنتبه إلى أنَّها قضيَّة فعليَّة. وثانيًا، ما إن أدركتُ ما يحدث حتَّى تيقَّنتُ أنَّها مغامرة لا يجب أن ترى النُّور قطّ.

ولقد أخطأت في ذلك التَّقدير. ولعلَّ المخطوطة الماثلة بين أيديكم، خير دليلٍ على ذلك، ولحسن الحظِّ أنَّه رغم اقتناعي - أخلاقيًّا- أنَّه لن تنشأ قطُّ الظُّروف الَّتي تسمح لي بتدوينها، فإنَّ تلك القصَّة من الحالات الَّتي أتذكَّرها بكافَّة تفاصيلها، ولي كلّ الحقِّ في ذلك، ويمكنني القول إنَّ ركائز تلك القصَّة محفورة في ذاكرتي، وستبقى هناك حتَّى مماتي، وربَّما بعد ذلك.

إلَّا إنَّ الأسباب الَّتي دعتني إلى التَّأخُّر في عرض تلك القصَّة على الرَّأي العامِّ كثيرة ومتراكبة. وقد سبق لي أن قلتُ إنَّ هولمز كان شخصًا يحبُّ الانفراد، وهذه قصَّة لا يمكن وصفها دون استكشاف بعض نواحي

شخصيَّته، وهو استكشاف لم يكن ليستسيغه في حياته، وأرجو ألَّا يعتقد أحد أنَّ وجوده حيًّا كان هو المشكلة الوحيدة، فلو كان ذلك صحيحًا، لم يكن هناك ما يمنعني من كتابتها منذ عشرة أعوام عندما لفظ أنفاسه الأخيرة في تلال سوسكس، الَّتي كان يُكِنُّ لها أكبر إعزاز. كما أنَّني لم أكن لأشعر بحرج للكتابة عن القضيَّة "على جثَّته" كما يقولون.

فقد كان هولمز ملحدًا لا تعنيه سمعته في العالم الآخر، كما كان شديد اللامبالاة بانعكاس ذلك على شخصيَّته في الحياة الدُّنيا، أو متى ما رحل إلى ذلك العالم المجهول الَّذي لا يؤوب منه راحل.

كلَّا، لم يكن هناك شيء من ذلك، ولكنَّ السَّبب في التَّأخير هو أنَّه كان هناك طرف ثالث في القضيَّة، وكان الاحترام والتَّوقير لتلك الشَّخصيَّة هو الَّذي جعله يكبِّلني بأشدِّ المواثيق والعهود، حتَّى لا أُفْشِي هذه المسألة إلَّا بعد أن تكون تلك الشَّخصيَّة قد رحلت عن عالمنا. أمَّا إذا رحلتُ أنا قبلها، فتلك مشيئة الله.

وقد شاء القدر أن يعالج تلك المسألة بما يخدم مصلحة الأجيال التَّالية، فلقد تُوفِّيَ الشَّخص المعنيُّ منذ أربع وعشرين ساعة، وبينما انشغل العالم في دبج قصائد المدح والرِّثاء، "وانشغل البعض بتشييعه باللعنات"، واسْتُعِيْدَتْ سيرته، واسْتُعْرِضَتْ مآثره في طبعات صدرت على عجل، بدأت أنا الآخر وأنا مازلت متمتِّعًا بصفاء الذِّهن وثبات اليد - ولقد بلغت السَّابعة والثَّمانين أي الشَّيخوخة- أقول سارعت إلى تدوين ما لا يعرفه أحد، وأعرفه أنا فقط.

ولا ريب أنَّ ما سأميطُ عنه اللثام سيثير جدلًا في عددٍ من الدَّوائر، خاصَّة أنَّه سيشمل ما سبق أنْ أعلنته من أنَّ حالتين من قضايا هولمز الَّتي كتبتها، كانتا من وحي الخيال. فقد أشار الدَّارسون المتتبِّعون لكتاباتي أنَّه توجد فيهما أوجه تناقض، وطريقة واحدة في تزييف اسم أو تاريخ؛ ممَّا أثبت لجميع المهتمِّين أنَّ مَن كتب هاتين الحالتين

إمَّا أحمق سخيف، أو على الأقلِّ أخرق شارد الذِّهن. بينما رأى بعض الباحثين المدقِّقين- أو الطَّيِّبين- أنَّ ما يبدو من أخطاء هي في الحقيقة تحريفات مقصودة، بالإضافة أو الحذف، أرمي بها إلى حماية أو إخفاء بعض الحقائق، إمَّا لأسباب واضحة، أو لأسباب لا يعرفها أحد غيري، على أنَّني لا أنوي هنا أن أدخل في عمليَّات طويلة من التَّصحيح والتَّعديل للمعلومات، واقبلوا اعتذاري عن ذلك.

وتفسيري البسيط هو أنَّني عند كتابتي للحالات غالبًا ما كان يتمُّ ذلك في عجلة فائقة، وكثيرًا ما ألجأ إلى ما بدا لي أبسط وسيلة للخروج من مأزق الحاجة إلى التَّغطية أو اللياقة، وعندما أستعيد هذه الأمور؛ يبدو لي الآن أنَّ ذلك الأسلوب كان أكثر صعوبة من سرد الحقيقة كما هي، إلَّا أنِّي كنت أفتقر إلى الشَّجاعة، أو في بعض الحالات إلى التَّدقيق.

إلَّا إنَّ نفس هؤلاء الباحثين الجادِّين الَّذين سبقت الإشارة إليهم لم يصفوا قطّ بالزَّيف الحالتين اللَّتين اقتطعتهما من النَّسيج العامِّ، وعزلتهما عن بقيَّة الرِّوايات، ولا أقصد هنا تلك الرِّوايات الزَّائفة الَّتي كتبتها أيد أخرى غير يدي، والَّتي شملت قصصًا تافهة من أمثال "عرف الأسد"، و"جوهرة مازالين"، و"الرَّجل الزَّاحف"، و"الحوائط الثَّلاثة". وإنَّما أشير إلى "المشكلة الأخيرة" الَّتي حكيت فيها عن المبارزة القاتلة بين هولمز وأعدى أعدائه، ذلك الشَّيطان المسمَّى البروفيسور موريارتي، وإلى مغامرة "المنزل الخالي" الَّتي صاحبتها. وفي هذه الرِّواية الأخيرة حكيت عن عودة هولمز للظُّهور بطريقة دراميَّة، وقدَّمت عرضًا مختصرًا للسَّنوات الثَّلاث الَّتي قضاها في التَّجوال فيما بين وسط أوروبا وأفريقيا والهند هاربًا من صنائع وأتباع عدوِّه الَّذي رحل.

وقد أعدت لتوِّي قراءة هاتين الحالتين وتعجَّبت، والحقّ يُقال، لقلَّة دهائي. فكيف فات على قرَّائي النَّابهين إلحاحي الزَّائد على صدق، ما زعمته؟ وما القول في كلّ تلك التَّعبيرات المسرحيَّة النَّثريَّة،

الَّتي هي أقرب إلى ذوق هولمز من ذوقي أنا؟! (فقد كان، رغم حبِّه الواضح للمنطق الصَّارم، في قرارة نفسه كاتبًا مسرحيًّا من النَّوع الرُّومانسيِّ الميلودراميِّ الَّذي لم تنله يد التَّهذيب).

وكما عبَّر لي شرلوك هولمز في أكثر من مناسبة، فإنَّ الأدلَّة الَّتي يبدو أنَّها تشير بلا جدال إلى اتِّجاه معين قد تتحوَّل، إذا نظرنا إليها من منظور مختلف قليلًا إلى التَّعبير عن تفسير مضادٍّ تمامًا. وهكذا فقد يصحُّ الأمر أيضًا في الكتابة؛ إذْ ربَّما كان إلحاحي المتكرِّر في "المشكلة الأخيرة"، على صدقها الصَّافي، قد أثار بعض الشَّكِّ لدى قرَّائي، وجعلهم يتوخُّون الحذر.

وربَّما لم يحدث شيء من ذلك إلَّا إنَّ السِّرِّيَّة، كما سوف نرى، كانت أمرًا لازمًا في ذلك الوقت. وقد آن الأوان اليوم للكشف عن القصَّة الحقيقيَّة بعد أن تحقَّقت الشُّروط الَّتي وضعها هولمز.

ولقد أشرت فيما سبق إلى أنَّني قد بلغت السَّابعة والثَّمانين، ومع أنَّني أدرك جيّدًا أنَّني قرب حافَّة الموت، إلَّا أنِّي من النَّاحية الانفعاليَّة أستطيع مقاومة النِّسيان مثلما يستطيعه رجل يبلغ من العمر نصف ما بلغته أو ربعه، ومع ذلك، فإذا لم تحمل القصَّة الَّتي سأحكيها فيما يلي من الصَّفحات أحيانًا بصمات أسلوبي المعتاد، فلا بدَّ أنَّ ذلك يرجع جزئيًّا إلى السِّنِّ بالإضافة إلى حقيقة أنَّه قد انقضت سنوات عدَّة منذ أن كتبت لآخر مرَّة، ولا شكَّ أنَّ الحكاية الَّتي أكتبها اليوم، والَّتي لا تستند إلى المذكِّرات الدَّقيقة الَّتي تعوَّدت كتابتها تختلف بشكل ملحوظ عن أعمالي السَّابقة مهما بلغت دقَّة ذاكرتي.

وهناك سبب آخر، وهو أنَّني لم أعد أكتب بيدي، فلقد حال التهاب المفاصل الرُّوماتيزميُّ بيني وبين القيام بتلك المهمَّة؛ ولذلك، فأنا أُمْلِي هذه الذِّكريات على آنسة لطيفة تكتبها على الآلة الكاتبة

"مس دوبسون"، وهي تكتبها بطريقة الاختزال، وستنقلها فيما بعد إلى اللغة الانجليزيَّة كما وعدت.

وأخيرًا، فقد يبدو أسلوبي مخالفًا لكتاباتي السَّابقة؛ وذلك لأنَّ هذه المغامرة من مغامرات شرلوك هولمز تختلف كلّيَّة عن أيِّ مغامرة كتبتها من قبل، ولن أكرِّر خطئي السَّابق، وأحاول التَّغلُّب على شكِّ القارئ بأن أذكر له أنَّ ما أسرده هو الصِّدق بعينه.

جون. هـ واطسون
دكتور في الطِّبِّ
محلَّة الزورث- هامبشير 1939

الفصل الأوّل

البروفيسور موريارتي

كما سبق لي القول في مقدِّمتي لحالة "المشكلة الأخيرة" أدَّى زواجي وما تبعه من افتتاح عيادة خاصَّة بي إلى تغيُّر خفيٍّ، ولكنَّه مُحَدَّدٌ في نمط صداقتي مع شرلوك هولمز. ففي البداية كان يزوروني في منزلي الجديد بشكل منتظم. وكنت أردُّ له هذه الزِّيارات، وأقيم معه لفترة قصيرة في مقرِّنا بشارع بيكر، حيث كنَّا نجلس أمام المدفأة ندخِّن الغليون، ويخبرني هولمز بأحدث اكتشافاته.

إلَّا إنَّ هذه التَّرتيبات سرعان ما طرأت عليها بعض التَّغيُّرات، فأصبحت زيارات هولمز متباعدة، وانكمشت فتراتها، ومع ازدياد ضغط العمل، أصبح من الصَّعب عليَّ أن أرتِّب زياراتي له.

وخلال شتاء 1890-1891 لم أره إطلاقًا، بل وعلمت من الصُّحف بوجوده في فرنسا، ولم أتلقَّ منه سوى مذكِّرتين كانتا هما كلّ المعلومات الَّتي أدلى بها إليَّ عن الموضوع، وكانتا شديدتي الإيجاز، وتوضِّحان أنَّه كان مطلوبًا في مكان آخر. وكان الرَّبيع مطيرًا؛ ما زاد من العمل في

عيادتي الخاصَّة، ومضى الوقت حتَّى شهر أبريل دون كلمة من هولمز خلال تلك الشُّهور، وفي يوم 24 على وجه التَّحديد، وكنت على وشك تشطيب بقايا اليوم في غرفة الاستشارة - فلم أكن في وضع يسمح لي بأن أستأجر سكرتيرة- عندما دخل صديقي.

ولقد دهشت لمرآه- ليس بسبب السَّاعة المتأخِّرة الَّتي حضر فيها، فقد كنت معتادًا على حضوره وانصرافه في أوقات شاذَّة - ولكن بسبب التَّغيُّر الَّذي طرأ عليه، فلقد بدا أشدَّ نحافة وشحوبًا عن المعتاد مع أنَّ مظهره المعتاد كان أميل إلى النَّحافة والشُّحوب، وبدا لون جلده مريضًا، كما فقدت عيناه بريقهما المعتاد. وكانتا تدوران في محجريهما بلا استقرار تتجوَّلان بلا هدف في أرجاء الغرفة- كما بدا لي- ومع ذلك لا تستقرَّان على شيء.

- هل لديك مانع من إسدال "شيش" النَّافذة؟

كانت هذه أوَّل كلمات ينطق بها، وقبل أن أستطيع الرَّدَّ، تحرَّك بسرعة بجانب الحائط، وبحركة سريعة أسدل الشِّيش، وأغلق المتراس بإحكام. ولحسن الحظِّ كان هناك مصباح يضيء الغرفة، وعلى ضوئه رأيت حبَّات العرق تنساب على خدَّيه، فسألته:

- "ما الأمر؟".

- "البنادق الهوائيَّة".

وأخرج سيجارة، وبيدين مرتعشتين أخذ يفتِّش في جيوبه عن عود ثقاب. ولم أره قطّ من قبل في مثل تلك الحالة.

- تفضَّل، وأشعلت له السِّيجارة. ونظر إليَّ بتمعُّن للحظة من خلال الثِّقاب المشتعل؛ إذْ أدرك بلا شكٍّ مدى دهشتي لسلوكه.

- "لا بدَّ لي من الاعتذار لحضوري في هذا الوقت المتأخِّر"، وأخذ نفسًا عميقًا بارتياح، وهو يلقي برأسه إلى الخلف.

- "هل مسز واطسون موجودة؟".

واستمرَّ في حديثه حتَّى قبل أن أستوعب اعتذاره، وأخذ يذرع الغرفة الصَّغيرة متجاهلًا حملقتي فيه.

- "لقد خرجت في زيارة".

- "صحيح. أنت وحدك إذن".

- "نعم".

وتوقَّف فجأة عن الحركة، ونظر إليَّ، ولانت تعبيرات وجهه استجابة لما بدا على وجهي:

- "يا صديقي العزيز لا بدَّ أن أفسِّر لك الأمر، فلا شكَّ أنَّك تجد تصرُّفاتي غريبة جدًّا".

واعترفت بذلك، واقترحت عليه أن ننتقل ونجلس بجانب المدفأة، ونتناول بعض البراندي إذا لم يكن لديه مانع. وأخذ يتدبَّر الاقتراح، وقد بدا عليه التَّركيز الشَّديد وهو أمر يبدو مضحكًا لولا أنَّني أعلم عن هولمز أنَّه شخص لا تزعجه التَّفاهات. ووافق في نهاية الأمر مشترطًا أن يجلس على الأرض وظهره إلى المدفأة.

وانتقلنا إلى غرفة الجلوس، حيث أضفتُ مزيدًا من الوقود إلى المدفأة، وأعددتُ الشَّراب، وجلستُ في مقعدي، بينما جلس هولمز إلى الأرض بجانب اللهب، وانتظرتُ أن يبدأ بالحديث ليشبع فضولي، فسأل:

- "هل سمعت عن البروفيسور موريارتي قطّ؟".

منطلقًا بذلك إلى صلب الموضوع بعد أن تناول رشفة أو رشفتين من الشَّراب.

وكنتُ في الواقع قد سمعت بالاسم، ولكنَّني لم أخبره. لقد كان اسم موريارتي هو النِّداء الَّذي كنتُ أسمعه أحيانًا يغمغم به عندما يكون غارقًا في نشوة الكوكايين، وعندما يتلاشى أثر المخدِّر لم يكن يشير قطّ إلى هذا الشَّخص. وقد فكَّرت مرارًا في أن أسأله عن ذلك الاسم ودلالته بالنِّسبة إليه، إلَّا إنَّه كان في طبع هولمز ما يمنعني عادة من هذا الاستفسار، وكان يعرف تمامًا كيف أنَّني كنت أكره من صميم قلبي تلك العادة القبيحة "تناول الكوكايين"؛ ولذلك لم أكن أرغب في أن يتفاقم الأمر بأن أتناول سلوكه، وهو تحت تأثير المخدِّر. أجبته:

- "كلَّا لم أسمع به مطلقًا".

- "آه هذا هو الشَّيء المدهش والعبقريُّ في نفس الوقت؟".

وانطلق في الحديث بحماس دون أن يغيِّر من مكان جلوسه:

- "لقد غزا الرَّجل لندن، بل العالم الغربيّ كلّه، ولم يسمع به أحد".

وزاد من دهشتي أنَّه انطلق في مونولوج لا نهاية له عن "البروفيسور"، وأخذت أصغي باندهاش متزايد وتوجُّس، بينما هولمز يصف لي هذه العبقريَّة الشِّرِّيرة أو "أمير الانتقام" كما كان يُسَمِّيه. ونهض على قدميه، وأخذ يذرع الغرفة في قلق، ونسي خطر البنادق الهوائيَّة رغم أنَّه كان من المستحيل أن يصبح هدفًا لها وهو في غرفة الجلوس وفي مثل هذه السَّاعة وهذا الضَّوء، وأخذ يقصُّ عليَّ بالتَّفصيل تاريخ حياة ذلك الرَّجل الَّذي وصل إلى الحضيض في كلِّ أنواع الرُّعب والإجرام.

أخبرني أنَّ موريارتي قد وُلِدَ في عائلة طيِّبة، ونال تعليمًا ممتازًا، ووهبته الطَّبيعة ملكة فذَّة في الرِّياضيَّات، وفي سنِّ الحادية والعشرين كتب رسالة عن "نظريَّة ذات الحدَّين" لاقت استحسانًا في أوروبا، وأدَّت سمعته إلى أن يفوز بمنصب أستاذ كرسي الرِّياضيَّات في إحدى جامعاتنا الصَّغيرة. إلَّا إنَّ الرَّجل كانت لديه ميول موروثة من النَّوع الشَّيطانيِّ المخيف، وتفاعلت مع قدراته العقليَّة الفذَّة، فلم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتَّى دارت الشَّائعات حوله في البلدة الَّتي تحتوي تلك الجامعة، واضطرَّ في النِّهاية إلى أن يستقيل من منصبه، ويستقرَّ في لندن كمستشار للجيش في الرِّياضيَّات، ولم يكن ذلك إلَّا ستارًا.

ومال هولمز نحوي وحملق في وجهي، بينما استندت يداه إلى حافَّة الكرسيِّ، واستطعت رغم الضَّوء الخافت أن أرى إنسان عينيه يتَّسع بشدَّة، وفي اللحظة التَّالية عاد ليذرع الغرفة بطريقته المخيفة.

- وخلال السَّنوات الماضية- يا عزيزي واطسون- كان وعيي يزداد باستمرار بأنَّ هناك قوَّة تقف وراء الأفعال الإجراميَّة الشِّرِّيرة، قوَّة تنظيميَّة عميقة تقف دائمًا سدًّا أمام القانون، وتبسط حمايتها على كلِّ مرتكبي الآثام والشُّرور، وأحسست بوجود تلك القوَّة مرارًا وتكرارًا، وفي قضايا متنوِّعة - تزوير، سرقة، قتل- كما استنتجت وجودها في كثير من الجرائم الَّتي لم يتمّ اكتشاف فاعلها، والَّتي لم أُدْعَ للإسهام فيها. ولقد ظللت لسنوات أحاول اختراق ذلك الحاجز، وأهتك حجب أسراره، وها قد حان الوقت أخيرًا، فأمسكت بخيط، وتتبَّعته؛ فقادني بعد آلاف الحيل والمكائد إلى أستاذ الرِّياضيَّات المعروف البروفيسور موريارتي. فقاطعته:

- "ولكن يا هولمز"...

- "إنَّه نابليون عالم الجريمة يا واطسون".

واستدار صديقي على عقبيه من موقعه أمام المدفأة، وأضفت ألسنة اللهب المتصاعدة خلفه، وصوته الحادُّ غير العاديِّ على هيئته طابعًا مخيفًا. وكنت أرى عروقه وقد انتفضت وبرزت إلى أقصاها.

- إنَّه المنظِّم لنصف الشُّرور، ولكلِّ ما لم يُكْتَشَفْ بعد من جرائم في هذه المدينة الكبيرة، وفي سجلِّ الجريمة المعاصرة. إنَّه عبقريٌّ وفيلسوف وأستاذ في التَّفكير المجرَّد، إنَّه يجلس بلا حراك كالعنكبوت في منتصف شبكته، تلك الشَّبكة الَّتي تتشعَّب إلى آلاف الخيوط، ويدرك تمامًا كلّ هزَّة في أيِّ خيط منها، وقد يمكن الإمساك بعملائه، وقد تُكْتَشَفُ جَرَائمُهُم أو يُحْتَاطُ لها، أمَّا هو فلا يمسُّه شيءٌ قطّ، بل إنَّه فوق مواطن الشُّبهات.

وهكذا انطلق هولمز في حديثه غامضًا أحيانًا، وأحيانًا أخرى كما لو كان يتحدَّث من فوق خشبة المسرح معدِّدًا الجرائم الَّتي قام بها البروفيسور، فتحدَّث عن أنظمة الوقاية والحماية الَّتي وضعها لتحميه من كلّ شبهة أو أذى، كما ذكر بحماس كيف أنَّه - أي هولمز - قد تمكَّن من اختراق الشَّبكة الدِّفاعيَّة الَّتي شيَّدها البروفيسور، وكيف أنَّ أتباع البروفيسور، عندما اكتشفوا ما نجح فيه، يقتفون أثره الآن حاملين بنادقهم الهوائيَّة.

وقد استمعت إلى هذا الحديث المتناثر بانزعاج متزايد، وبذلت جهدي؛ لكي أخفيه، فلم أعرف قطّ عن هولمز أنَّه يقول غير الصِّدق، كما أدركت فورًا أنَّ هذا الحديث لم يكن واحدًا من مقالبه المعهودة، فقد كان يتكلَّم بجدِّيَّة صارمة، بل يكاد يرتعش من الخوف؛ إذ لم يوجد قطّ بشر يحمل سجلّه تلك الفظائع الَّتي نسبها هولمز إلى البروفيسور. لقد ذكَّرني حديثه رغمًا عنِّي بعدوٍّ "دون كيشوت" اللدود؟

ولم ينتهِ الحديث نهاية تقليديَّة؛ فقد انتقل هولمز تدريجيًّا من عباراته التَّقريريَّة إلى همهمات غير مفهومة، حتَّى وصل إلى حدِّ الهمس، وصاحب هذا التَّغيُّر في نبرة الصّوت هبوط في الحركة النَّشطة ذهابًا وجيئة، فاستند إلى الحائط حتَّى ألقى بنفسه دون وعي على كرسيٍّ، وقبل أن أنتبه إلى ما حدث سرعان ما كان يغطُّ في النَّوم.

جلست في صمت أمام النَّار الخابية أتفحَّص صديقي، لم أره قطّ من قبل في مثل هذا الاضطراب العميق، بل لم أكن أدري ما نوع الاضطراب، وبدا لي من الطَّريقة الَّتي تكلم بها أنَّه واقع تحت تأثير مخدِّر قويٍّ.

وخطر لي خاطر مفزع، فقد تذكَّرت للمرَّة الثَّانية في هذه الليلة المناسبة الأخرى الَّتي سمعت فيها هولمز يتكلَّم عن موريارتي، ألا وهي عندما يكون واقعًا تحت تأثير الكوكايين. تسلَّلت بهدوء عبر الكرسيِّ الَّذي كان يستلقي عليه، وقد راح في غيبوبة، وأزحت جفنيه، وفحصت إنسان عينيه، ثمَّ قست نبضه وكان ضعيفًا مضطربًا، وفكَّرت بالمخاطرة بنزع سترته وفحص ذراعيه؛ لأرى ما إذا كانت هناك علامات لحقن فيها، إلَّا أنِّي فضَّلت ألَّا أخاطر بإيقاظه من النَّوم. وعدت إلى مقعدي مسترجعًا أفكاري: في الماضي كان هولمز يتعاطى الكوكايين أحيانًا لمدَّة شهر أو أكثر، وخلال تلك الفترة كان يحقن نفسه ثلاث مرَّات يوميًّا بمحلول من الكوكايين يبلغ تركيزه 7%. ولقد ظنَّ الكثيرون من القرَّاء، خطأ، أنَّ هولمز كان يستغلُّ صداقتي حتَّى أحصل له بوصفي طبيبًا على ما يريده من هذا المخدِّر الفظيع، بل لقد سمعت أخيرًا أنَّ استجابتي لرغبة هولمز في إمداده بهذا المخدِّر كان السَّبب الوحيد الَّذي جعله يطيق صحبتي.

ولن أعلِّق على سخافة هذا الكلام. يكفي أن أقول إنَّ هولمز لم يكن يحتاج لذلك؛ ففي القرن الماضي لم تكن هناك قوانين تمنع المرء

من شراء الكوكايين أو الأفيون بأيِّ كمِّيَّة يرغبها؛ ولذلك لم يكن هذا الأمر غير قانونيٍّ بأيِّ حالٍ من الأحوال، كما كان نفوري من إمداده بالكوكايين أمرًا يخرج عن نطاق الموضوع. وعلى أيِّ حالٍ، فقد أشرتُ في أماكن أخرى إلى محاولاتي المتعدِّدة لكبح جماحه عن الاستمرار في هذه العادة المرذولة والمدمِّرة للذَّات.

ولقد نجحت في مسعاي خلال فترات معيَّنة، على أنَّ الأمر لم يكن راجعًا إلى قدرتي على الإقناع فحسب، وإنَّما إلى ما يُضَاف إليها عندما تُحَال إليه قضيَّة جديدة ومثيرة، فقد كان العمل هو "أفيون هولمز"، وكانت المشكلات الَّتي تستعصي على الحلِّ، وتتحدَّى القدرات هي ميدانه الأصيل، فإذا ما اندمج في قضيَّةٍ من هذا النَّوع لم تكن به حاجة إلى اللجوء إلى أيِّ منبهات اصطناعيَّة، ونادرًا ما كنت تراه خلال تلك الحالات يتناول أكثر من كأس من النَّبيذ مع العشاء، وكان ذلك بالإضافة إلى كمِّيَّات كبيرة من التَّبغ هي الملذَّات الوحيدة الَّتي يمتِّع نفسه بها عند اندماجه في قضيَّة ما.

إلَّا إنَّ مثل تلك القضايا المتحدِّية كانت نادرة، وكان هولمز دائمًا ينعى انعدام الابتكاريَّة لدى فئات المجرمين. وكانت قولته الدَّائمة لي والَّتي تتَّسم بالمرارة عندما كنَّا نسكن معًا في شارع بيكر: "لم تعد توجد جرائم عظيمة هذه الأيَّام يا واطسون!".

فهل أمكن، ما بين غياب الجرائم المحيِّرة وبين رحيلي من شارع بيكر، أن يقع هولمز فريسة مرَّة أخرى- وبلا عودة هذه المرَّة- في مخالب الكوكايين؟

وما لم تكن القصَّة الخياليَّة الَّتي حكاها لي لتوِّه هي الصِّدق بعينه، لم يكن أمامي إلَّا هذا التَّفسير لما سرده عليَّ من وقائع، ومن حِكَمِ هولمز الشَّهيرة أنَّه عندما تستبعد كافَّة الإمكانات المحتملة، فإنَّ الباقيَ مهما بلغت درجة لا معقوليَّته سيكون هو الحقيقة.

وما أن وصلت إلى هذا الحدِّ من التَّفكير حتَّى قمت وأفرغت رماد غليوني في المدفأة، وقررت الانتظار لأرى ما ستتمخَّض عنه الأحداث، وألقيت غطاء على جسد صديقي الهامد، وأطفأت المصباح.

ولا أستطيع القول كم مضى عليَّ وأنا قابعٌ في الظَّلام. ربَّما مرَّت ساعة أو ساعتان؛ إذْ إنَّني كنت مستسلمًا للنّوم عندما استيقظ هولمز وأيقظني، وتاه عقلي، للحظة. أين أنا وماذا حدث؟ وبسرعة البرق استعدتُ نفسي ثمَّ أضأت المصباح.

وكان هولمز هو الآخر يستعيد نشاطه، وأدار عينيه فيما حوله بنظرة تائهة، ولاحظت أنَّه هو أيضًا قد نسيَ المكان وماذا أتى به هنا. ثمَّ تثاءبَ في ارتياحٍ وقال: "غليون وجرعة من الخمر يا واطسون- لا شيء يعادلهما في ليالي الرَّبيع المطيرة، هل غفوت أنت أيضًا واستسلمت لمورفيوس إله النّوم؟".

وأجبته: "يبدو أنَّ الأمر كما تقول". ثمَّ تجرَّأت وسألته عن البروفيسور موريارتي.

ونظر هولمز إليَّ نظرة لا معنى لها وقال: "مَن؟". وحاولت شرحَ ما كنَّا نتحدَّث فيه بشأن هذا السَّيِّد قبل أن يلعب البراندي والدِّفء بأعطافنا، فأجاب بحدَّة: "هراء، لقد كنَّا نناقش كتاب ويندوودريد "تضحية الإنسان"، وكنت أستشهد بشيء أو بآخر من أعمال "جان- بول"، وهذا هو آخر ما أتذكَّر"، ونظر إليَّ نظرة ذات معنى، وقال: "أمَّا إذا كنت تتذكَّر شيئًا آخر، فكلّ ما يمكنني قوله هو أنَّ البراندي الَّذي شربناه أقوى بكثير ممَّا يزعم صانعوه".

اعتذرت لهولمز، وقلت إنَّ ما تذكَّرته هو غالبًا من صنع الخيال، وتبادلنا بعضَ الكلمات، وودَّعني هولمز، ولم يأبه باعتراضاتي أنَّه من الصَّعب الخروج في السَّاعة الثَّالثةِ صباحًا.

- "سينعشني هواء اللَّيل أيُّها الرَّجل العجوز، وأنت تعلم أنَّه لا يوجد خبير مثلي بشوارع لندن في تلك السَّاعات الغريبة. بلِّغ شكري إلى مسز واطسون لهذه اللَّيلة الممتعة، أيُّها الرَّجل الطَّيِّب".

ذكَّرته بأنَّ زوجتي مسافرة إلى الرِّيف، ونظر إليَّ بحدَّة للحظة، ثمَّ هزَّ رأسه، وذكر البراندي مرَّة أخرى ورحل.

أغلقت الباب بالمزلاج خلفه يملؤني التَّوجُّس والارتياب، وصعدت درجات السُّلَّم إلى غرفتي، وبدأت في خلع ملابسي، ولكنّي عدلت عن ذلك وجلست في مقعدي واضعًا يدي على ركبتي بجانب مدفأة غرفة النّوم، وكانت نارها قد خبت منذ وقت طويل.

راودتني فكرة أنَّ هولمز كان على صواب، وأنَّه قد أتى إليَّ ليقضي سهرة مسائيَّة متأخِّرة، وأنَّنا دخنَّا غليونًا أو اثنين، وشربنا كأسًا أو ثلاثة، وأنَّني قد تخيَّلت كلّ ذلك الحديث عن البروفيسور موريارتي، بينما دار الحديث بيننا في مسائل أخرى مختلفة تمامًا، هل كان ذلك ممكنًا؟ وكنت في حالة من الإجهاد تمنعني من التَّفكير بوضوح مثلما يحدث حين يستيقظ المرء بعد كابوس مخيف، ويظلّ لفترة غير مدركٍ أنَّه قد استيقظ منه.

وكان لا بدَّ لي من دليل ملموسٍ، فتسلَّلت هابطًا أحمل مصباحًا في يدي، ولا شكَّ أنَّ منظري كان سيبدو غريبًا لو أنَّ الخادمة رأتني، رجل في أواسط العمر دون حذاءٍ وبقميص مفتوح يتسلَّل على سلّم منزله، وقد ارتسمتْ على وجهه أمارات الذُّهول، ودخلت غرفة الاستشارة، حيث بدأت مشاهد هذه الفانتازيا- إذا كانت فانتازيا فعلًا- وفحصت شيش النَّافذة، كان مغلقًا بالمزلاج، ولكن من الَّذي أغلقه؟ هولمز كما أذكر أم أنا؟ وجلست في مقعدي محاولًا أن أتذكَّر كلّ تفاصيل الحديث، وتصوَّرت أنَّني هولمز نفسه ينصت إلى عميل يعرض قضيَّته في غرفة

الجلوس بمزلنا القديم في شارع بيكر، ولقد كان المنظر إذا تصادف ورآه أحد، أمرًا يبعث على السُّخرية، فها هو رجل في أواسط العمر دون حذاء يجلس في قاعة الاستشارة يضيئها مصباح واحد، ويتحدَّث إلى نفسه. وكنت أفعل مثلما يفعل هولمز، أتوقَّف بين كلِّ سؤال وآخر لأتمعَّن ما يُقال، ودار بيني وبين نفسي الحوار التَّالي: هل تستطيع أن تتذكَّر أيّ شيء قاله أو فعله الرَّجل بشأن الحديث الَّذي دار قبل أن تستيقظا معًا، ويشير هو إلى البراندي الَّذي تناولتماه سويًّا؟

- كلَّا. لا أتذكَّر، ولكن لا!! إنَّني أتذكَّر شيئًا.

- عظيم يا واطسون عظيم!

- كانت هذه هي العبارة المألوفة، ولكنَّ الصَّوت هذه المرَّة كان صوتي أنا.

- لقد سألني عندما دخل غرفة الاستشارة لأوَّل مرَّة: أين ماري؟ وأجبته بأنَّها في زيارة بالخارج، وأنَّنا وحدنا، وبعد ذلك- بعدما أخذنا غفوتنا، كلٌّ منَّا على كرسيِّه- وكان على وشك المغادرة، طلبَ منِّي أن أنقلَ شكره إلى زوجتي لهذه الليلة الممتعة، ولمَّا أخبرته أنَّها غير موجودة بدت الدَّهشة عليه؛ إذْ لم يتذكَّر ما سبق أن أخبرته به.

- هل أنت متأكِّد من أنَّك ذكرت له هذا الأمر من قبل؟

- نعم، بالتَّأكيد، ولو أنَّني غضبت للسُّؤال.

- ألم يكن من الممكن إذن طالما كان هناك تأثير للبراندي أنَّه قد نسي ببساطة ما ذكرته له من قبل؟

- نعم. نعم، لكن هذا هراء، فلم يكن أيٌّ منَّا سكرانَ.

ونهضتُ والجوارب في قدميَّ، وأمسكت بالمصباح وانتقلتُ إلى غرفة الجلوس في محاولة للفرار من صوتي الثَّاني، وأزحت السَّتائر في غرفة الجلوس، ورأيت أنَّ ضوء النَّهار في طريقه إلينا، ولقد كنتُ مجهدًا عندما ظهرَ هولمز لأوَّل مرَّة. أمَّا الآن فيبدو أنَّني قد أنهكت تمامًا.

- هل جاء فعلًا؟

وكانت هذه فكرة أشدّ جنونًا، ولعنتُ نفسي لمجرَّد أنَّني فكَّرتُ فيها، ولو في أعماق نفسي، وتحوَّلت عن النَّافذة وبدايات ضوء الفجر.

طبعًا لقد كان هنا.

رأيت أمامي الدَّليل على ذلك، كان هناك الكأسان اللَّتان شربنا منهما أنا وهولمز.

واستيقظت في الصَّباح التَّالي، أو على وجه الدِّقَّة في نفس الصَّباح، وكنت في سريري، ويبدو أنَّني ألقيت بنفسي عليه دون أن أنزع ملابسي خلال تأمُّلاتي الَّتي لم تصل إلى شيءٍ بشأن اللَّيلة الماضية، وكان المنزل قد بدأت فيه الحركة استعدادًا لليوم الجديد، ونهضتُ وأنا أنوي البحثَ من جديدٍ في هذا الأمر.

بدَّلت ملابسي، وأتممت حلاقة ذقني، ونزلت حيث تناولت طعام الإفطار، ولم تلفت نظري صحف الصَّباح. لقد كان عقلي شاردًا في مكان آخر. لقد تذكَّرت الآن أنَّني قست نبض هولمز وفحصت إنسان عينيه في الليلة الماضية، ومرَّة أخرى راودني السُّؤال: هل كان هذا واقعًا أم كان جزءًا من الحلم؟

ألحَّ عليَّ السُّؤال بجنون، فأنهيت إفطاري بسرعة، وذهبت إلى زميلي كولينجوورث، وطلبت منه أن يحلَّ محلِّي في عيادتي هذا الصَّباح، وكان سعيدًا بذلك، فطالما طلبت مساعدته دون إخطار مسبق، واستدعيتُ عربة وشددت الرِّحال إلى شارع بيكر.

كان النَّهار لا يزال في بدايته عندما ترجَّلت من العربة إلى الرَّصيف المألوف أمام رقم 212 ب، ونقدت السَّائق أجره، واستنشقت نسيم الصَّباح، وكان لا يزال نديًّا، وقرعت الجرسَ ففتحت لي الباب بسرعة مدبِّرة منزلنا المسز هدسون، وبدا عليها أنَّها أكثر من فَرِحَة لرؤيتي، وصاحت دون مقدِّمات:

- حمدًا لله يا دكتور واطسون أنَّك أتيت.

ولدهشتي جذبتني من كمِّ سترتي إلى داخل المنزل.

- ماذا هنالك؟

ولكنَّها وضعت إصبعها على شفتيها مشيرة بقلق إلى أعلى السُّلَّم. كانت أذنا هولمز مرهفتين، وبدا أنَّ حديثنا المتبادل القصير قد وصل إلى سمعه، وجاءنا صوته الحادُّ من أعلى: " يا مسز هدسون، إذا كان الطَّارق يحمل اسم البروفيسور موريارتي، فدعيه يصعد، وسوف أسوِّي حسابي معه".

- "ها أنت ترى يا دكتور واطسون"، همست مديرة المنزل التَّعيسة في أذني: "لقد تحصَّن في الغرفة العليا، ولا يتناول طعامه، ويسدل ستائره طوال النَّهار، ثمَّ يتسلَّل خارجًا في الليل بعد أن أكون قد أغلقت الباب بالمزلاج، وذهبت الخادمة إلى فراشها".

- صاح هولمز: "يا مسز هدسون".

ربَّتت على ذراعها لأطمئنها وقلت: "سأصعد لأراه"، ولكنَّني في الحقيقة لم أكن واثقًا من نفسي، هناك إذن بروفيسور موريارتي، على الأقلِّ في خيال هولمز، وصعدت الدَّرجات السَّبعة عشر إلى مسكني القديم، وقلبي مثقل، ترى ما الَّذي دهى هذا العقلَ النَّابه؟!

طرقت البابَ فصاحَ هولمز من النَّاحية الأخرى: "مَن الطَّارق؟ أهذا هو أنت يا موريارتي".

- "أنا واطسون"، وأعدت ذلك القولَ عدَّة مرَّات حتَّى وافق أخيرًا أنْ يفتحَ زاوية من الباب، ونظر إليَّ نظرة غريبة من خلال الفرجة.
- "إنَّه أنا يا هولمز، دعني أدخل يا رجل".
- "ليس بهذه السُّرعة"، وكان قد دسَّ رجله خلف دَرْفَةِ الباب، وقال: "قد تكون أنت موريارتي متخفِّيًا، أثبت لي أنَّك واطسون".

فولولت صائحًا: "كيف؟" ولم تكن لديَّ أيُّ فكرة عمَّا يمكن أن يثبت له حقيقة هويَّتي.

- فكَّر قليلًا ثمَّ قال: أين أحتفظ بتبغي؟
- تحتفظ به داخل خفِّك الفارسيِّ.

ويبدو أنَّ هذه الإجابة السَّريعة قد خفَّفت من شكِّه بعض الشَّيء، فلان صوته وسأل:

- "وأين أحتفظ بمراسلاتي؟".
- "على رفِّ المدفأة، وبجانبها مطواة".

فأصدر صوتًا نمَّ عن التَّأييد:

- وما أوَّل كلمات وجَّهتها إليك؟
- "يبدو أنَّك كنت في أفغانستان". وصِحْتُ في هولمز أستعطفه: "افتح يا رجل بحقِّ السَّماء".

- "حسنًا، يمكنك أن تدخل". يبدو أنَّه اقتنع أخيرًا، فأزاح قدمه من خلف الباب، وفتحه فتحة ضيِّقة، وجذبني بشدَّة إلى الدَّاخل، وأغلق الباب خلفي بسرعة، وجذب عدَّة مزاليج وأقفال لم أرها قطّ خلال إقامتي معه، وأخذت أراقبه مشدوهًا، بينما يقوم بتلك العمليَّات، ثمَّ وضع أذنه خلف الباب يحاول الإنصات لشيءٍ لا أدريه، وأخيرًا استقام والتفت إليَّ مادًّا يده.

قال وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامته المعهودة: "اعذرني يا واطسون لشكِّي فيك، ولكن كان عليَّ أن أتأكَّد، فإنَّهم لا يتورَّعون عن شيء".

- تقصد عصابة الأستاذ.

- تمامًا.

وقادني إلى داخل الغرفة، وعرض عليَّ تناول الشَّاي الَّذي صنعه بنفسه مستخدمًا - كما بدا لي - موقدًا التقطه من أدواته الكيميائيَّة وكأسًا زجاجيَّة! قبلت دعوته، وجلست أنظر فيما حولي، كان المكان كما عهدته عندما كنت أشارك هولمز السَّكن، ولكنَّ شيش النَّوافذ كان مدعمًا بمزاليج، كما كانت السَّتائر مختلفة عن تلك الَّتي أعرفها، لقد أصبحت مصنوعة من الحديد. وكان هذا الشِّيش والأقفال خلف الباب هي كلّ التَّغييرات الَّتي لاحظتها.

- "تفضَّل أيُّها الرَّجل العجوز"، وامتدَّت ذراعا هولمز لتقدِّم لي قدح الشَّاي، وكان يرتدي ثوبه المنزليّ (الرُّوب) ذا اللَّون الرَّماديّ، وانكشفت ذراعاه وهو يقدِّم لي الشَّاي، كانتا مليئتين بندوب الحقن.

ولن أسهب في تفاصيل تلك المقابلة المؤلمة، فلا ريب أنَّ موضوعها واضحٌ لكم. كما أنَّني لا أريد أن ألقي أيَّ ظلٍّ من الشَّكِّ على ذكرى هذا الرَّجل العظيم بأن أحكي ما أحدثه هذا المخدِّر البشع في ملكاته الذِّهنيَّة.

تركت شارع بيكر بعد ساعة، وقد خرجت مشيّعًا بنفس الاحتياطات الَّتي صادفتها عند الدُّخول، واستدعيتُ عربة وعدت إلى منزلي.

وصلت وأنا ما زلت تحت تأثير صدمة مقابلة هولمز، وهناك واجهتني مفاجأة مزعجة، فقد أخبرتني الخادمة حال دخولي أنَّ هناك سيّدًا ينتظرني.

- ألم تخبريه أنَّ دكتور كولينجوورث يحلّ محلِّي هذا الصَّباح؟
- لقد فعلتُ يا سيِّدي، ولكنَّ الرَّجل أصرَّ على رؤيتك شخصيًّا. ولم أشأ أن أغلق الباب في وجهه؛ ولذلك تركته ينتظر في غرفة الاستشارة.

وكان هذا أكثر ممَّا أحتمل، وزاد غضبي، وكنت على وشك التَّعبير عنه عندما قدَّمت إليَّ الفتاة بطاقة وهي تقول: " هذه هي بطاقته يا سيِّدي"، وتناولت البطاقة، وشعرتُ برجفةٍ تنتابني، وتحوَّل الدَّمُ في عروقي إلى جليد. لقد كان الاسم المدوَّن على البطاقة هو "البروفيسور موريارتي".

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثَّاني

سيرة الحيـــاة

حملقـتُ بغبـاء لمـدَّة دقيقـة في البطاقـة، وانتبهـتُ لوجـود الخادمـة، فدسسـتُ البطاقـة في جيبـي، ودخلـت غرفـة الاستشـارة.

لم أكـن أجـرؤ عـلى التَّفكـير، بـل لم أرغـب فيـه، فليوضِّـح لي هـذا السَّـيِّد مهـما كان ومهـما كان اسـمه، تلـك الأمـور، فلـم تعـد بي مقـدرة عـلى التَّخمـين أكـثر مـن ذلـك.

نهـض الزَّائـر حالمـا دخلـت الغرفـة، وكان شـخصًا خجـولًا ضئيـلَ الحجم، في السِّـتينيَّات، يحمـل قبَّعتـه في يـده، وعـلى وجهـه أمـارات انزعـاج سرعـان مـا تحوَّلـت إلى ابتسـامة وجلـة عندمـا قدَّمـت نفسـي إليـه. وقـدَّمَ إليَّ يـدًا صغـيرة عانقـت يـدي باختصـار. كان حسـن الهيئـة، ولكـنَّ ملابسـه لم تكـن مـن النّـوع الغـالي. وكانـت عليـه أمـارات أصحـاب المهـن، ولكنَّـه - رغـم ذلـك - بـدا غـيرَ معتـادٍ عـلى صخـب الحيـاة وضجيجهـا، ربَّمـا كان ينتمـي إلى ديـر، حيـث عينـاه الزَّرقـاوان المصابتـان بقصـر النَّظـر لا عمـل لهـما إلَّا الانكبـاب عـلى الأوراق القديمـة وفـكّ ألغـاز معانيهـا. وكانـت رأسـه تؤيِّـد

الانطباع الَّذي كوَّنته عن طبيعته بأنَّه أميل إلى أنْ يكون رجل دين، فقد كانت صلعاء تقريبًا مع وجود خصلات خفيفة من شعر أبيض رماديٍّ يحيط بمؤخّرة الرَّأس والجانبين.

- قال بصوت خافت ولكن قلق: "أرجو ألَّا أكون قد سبَّبت لك إزعاجًا باحتلالي غرفة استشارتك... فإنَّ طبيعة مهمَّتي عاجلة إلى أقصى حدٍّ وشخصيَّة جدًّا، فأنت هو الشَّخص الَّذي أريد أن أقابله وليس الدُّكتور كولينجورث".

فقاطعته بخشونة لاحظتُ أنَّها أزعجته... "حقًّا حقًّا، أرجو أن تخبرني بهذا الأمر"... خفَّفت من حدَّة صوتي، وأشرتُ إليه أن يجلس، وجلست على مقربة منه.

- "الحقيقة أنني لا أعرف من أين أبدأ". وكانت لديه عادة مزعجة، وهي أن يدير قبَّعته بين يديه وهو يتكلَّم، وحاولتُ أن أتصوَّره في الصُّورة الَّتي وصفه بها هولمز - شيطان شرير ذكيّ، يجلس بلا حراك في مركز كافَّة المؤامرات الدَّنيئة الَّتي ينسجها الإنسان- إلَّا إنَّ هيئته لم تكن تنبئ عن هذا.

واستمرَّ البروفيسور في حديثه بتصميم وحيويَّة قائلًا: "لقد جئتُ إليك؛ لأنَّ قراءتي لقصصك بيَّنتْ لي أنَّك صديق مستر شرلوك هولمز الصَّدوق".

- "إنَّني أتشرَّف بذلك فعلًا"، قلتها بصوتٍ خشنٍ وهزَّة من رأسي، فقد صمَّمت على أن آخذَ حذري، ورغم أنّي حكمت على مظهره بأنَّه غير مؤذٍ إلَّا أنّي قد عزمت على ألَّا يخدعني منظره.

ومضى في حديثه يدير قبَّعته بيده: "لا أعرف كيف أقول لك، ولكن مستر هولمز... أعتقد أنَّ الوصف الوحيد لما يفعله هو أنَّه يضطهدني".

- فصحتُ: " يضطهدك أنت؟".

- "نعم" قالها بسرعة، وقد بدا عليه الانزعاج مرَّة أخرى لنبرة صوتي، ولو أنَّه كما بدا لي لم يلحظ نَبرة التَّوكيد.

- "أنا أعلم أنَّ حديثي يبدو سخيفًا، ولكنَّني لا أرى سبيلًا آخر لوصفه، إنَّه يقف خارج منزلي في الطَّريق وفي الليل"، واختلس نظرةً إليَّ ليرى أيَّ استجابة تفصح عنها ملامحي، ولمَّا اطمأنَّ إلى أنَّني لستُ على وشك الانفجار من الغضب؛ استمرَّ في حديثه:

- "إنَّه يقف خارج منزلي ليلًا، ليس في كلِّ ليلة، وإنَّما عدَّة مرَّات في الأسبوع، وهو يتبعني أحيانًا أيَّامًا بطولها يقتفي أثري، ولا يعنيه أنَّني أراه، كما أنَّه يرسل إليَّ خطابات"... قالها بعد تردُّد.

- "خطابات؟".

- "حسنًا، إنَّها ليستْ خطابات، بل برقيَّات تحوي جملة أو جملتين... موريارتي خذْ حذركَ؟ لقد أصبحت أيَّامك معدودة؟ وأشياء من هذا القبيل، بل لقد قابل ناظر المدرسة بشأني".

- "ناظر المدرسة؟ أيّ ناظر تعني؟".

- "إنَّه المستر برايس جونز ناظر مدرسة كرويلوت الَّتي أعمل بها مدرِّسًا للرِّياضيَّات". (وكانت مدرَسة عامَّة غير مشهورة في منطقة غرب لندن). "لقد استدعاني ناظر المدرَسة، وطلب منِّي الرَّدّ على مزاعم مستر هولمز".

- وماذا قلت له؟

- لقد قلت إنَّني في حيرةٍ من أمري، ولا أستطيع التَّفسير؛ إذْ إنَّني لا أعلم ما تلك المزاعم، فأخبرني بها".

وتململ موريارتي في مقعده، وصوَّب عينيه الزَّرقاوين إليَّ وقال: "يا دكتور واطسون، إنَّ صديقك يعتقد أنَّني نوع من... وبدا عليه أنَّه يبحث عن الكلمة المناسبة- أنَّني نوع من العقل المدبِّر لعالم الإجرام، بل ومن عتاة مجرمي هذا العالم"، وأردفَ ذلك بهزَّة استسلام من مَنْكِبَيهِ، ومتعجِّبًا بِكِلْتَي يديه:

- "وإنِّي أسألك يا سيِّدي بكلِّ أمانة، هل ترى فيَّ أيّ ملامح لمثل هذا الشَّخص؟".

ولم يكن هناك بدٌّ من الاعتراف بأنَّني لا أستطيع أنْ أرى ذلك، وتابع الرَّجل حديثه بصوتٍ متألم:

- "ولكن ما العمل؟... إنِّي أعلم أنَّ صديقك رجل طيب، وتلهج انجلترا كلّها بالثَّناء عليه، ولكنَّه في حالتي قد ارتكبَ خطأ فاحشًا، وأصبحت أنا ضحيَّة تعيسة له".

ولم أقل شيئًا. لقد دارت رأسي من التَّفكير.

واستمرَّ الرَّجل في حديثه المتألِّم: "إنَّ آخر ما أرغب فيه هو أن أسبِّب له أيّ إزعاج أو حرج، إلَّا إنَّ السُّبل قد تقطَّعت بي، وإذا لم يتمَّ عمل شيء بهذا الخصوص، أيّ بشأن هذا الاضطهاد، فليس أمامي من سبيل إلَّا أن ألجأ إلى محامٍ؟".

- أجبتُ بسرعةٍ: "لن يكون هذا ضروريًا، ولو أنَّني في الحقيقةِ ليست لديَّ أيّ فكرة عمَّا سأتَّخذه في هذا الصَّدد".

- ووافق الرَّجل على كلامي وقال: "أرجو مخلصًا ألَّا نضطر إلى ذلك، وهذا هو السَّبب في لجوئي إليك".

- فأجبت، وقد بدأت أتحسَّس طريقي: "إنَّ صديقي ليس على ما يُرَام في هذه الأيَّام، فهذا التَّصرُّف ليس من طبعه، ولو كنتُ قد تعاملت معه عندما كان بكامل صحَّته...".

فقاطعني البروفيسور بدهشة بالغة: "نعم، لقد عرفته آنذاك".

- "عرفته؟".

- "بالتَّأكيد... ولقد كان شابًّا غاية في الظّرف، السَّيّد شرلوك الصَّغير".

- "السَّيّد شرلوك الصَّغير؟".

- "أجل... لقد كنت أدرِّس له الرِّياضيَّات".

وحملقتُ فيه وقد فغرتُ فمي من الدَّهشة... وبدا لي من التَّعبيرات الَّتي تتالتْ على وجهه أنَّه كان يظنُّ أنَّني أعلم ذلك... فقلت له إنَّني لا أعلم، ورجوته أن يخبرني.

- قال وقد زاد اضطراب نبرات صوته وضوحًا: "ليس هناك الكثير ممَّا يُقال، فقبل مجيئي إلى لندن منذ عدَّة سنوات بعد تخرُّجي من الجامعة...".

فقاطعته: "اسمح لي، هل تصادف أنَّكَ كتبت رسالة عن نظريَّة ذات الحدّين!".

فحملق في وجهي وقال: "كلًّا بالتَّأكيد، فلا يوجد لدى أحدٍ ما يمكن أن يضيفه إلى هذه النَّظريَّة، وعلى أيِّ حال، فلستُ في وضع يمكِّنني من معرفة ذلك".

- "لا تؤاخذني، استمرَّ من فضلك".

- "كما سبق لي القول تخرَّجت في الجامعة، وقبلت وظيفة معلِّم للرِّياضيَّات في منزل الوجيه هولمز، وهناك علمت السَّيّد مايكروفت، والسَّيّد شرلوك...".

- "أعتذر مرَّة أخرى عن مقاطعتك" قلتها وأنا في غاية الدَّهشة. إذ لم يذكر لي شرلوك شيئًا عن أهله أبدًا خلال مرحلة صداقتنا كلِّها "وأين كان ذلك؟".

- "كان ذلك بالطَّبع في سوسكس مقرِّ ضيعة العائلة".

- "هل أتت العائلة من سوسكس؟".

- "الواقع أنَّها لم تكن هناك أصلًا، بمعنى أنَّ عشيرة هولمز انحدرت من هناك، ولكنَّ الوجيه كان ابنًا ثانيًا، ومن ثَمَّ لن يرث الضَّيعة أبدًا بحكم القانون؛ ولذلك فقد انتقل مع عائلته ليعيش في نورث ريدنج في يورك شاير، وهناك مات السَّيّد مايكروفت. ثمَّ مات الأخ الأكبر للوجيه، وكان أرملَ لم ينجب، ومن ثَمَّ عاد والد السَّيِّد شرلوك بعائلته إلى الضَّيعة القديمة[1]".

- "آه... وهناك قابلت شرلوك هولمز".

- "لقد درَّستُ لِكِلَي الولدين" قالها موريارتي بنبرة لا تخلو من فخار "ولقد كانا صبيَّين غاية في الذَّكاء، وكم وددتُ أن أستمرَّ معهما لولا- ثمَّ قال بعد تردُّد- المأساة الَّتي حدثت".

---

(1) إنَّ هذا التَّوضيح يبدو أنَّه يوفِّق بين رأيين متعارضين. الأوَّل ما قال به و. س. بارنج- جولد الَّذي ذكر في تأريخه لسيرة هولمز أنَّه انحدر من يورك شاير، وبين ما قال به تربفور هول الَّذي زعم حديثًا أنَّ هولمز قد وُلِدَ ونشأ في شرق سوسكس. كما يخبرنا بارنج جولد أيضًا بأنَّ موريارتي قد علَّم هولمز الرِّياضيَّات، ولكنَّه لم يشر إلى مصدر تلك المعلومة. "نيكولاس مايرز".

- "أيّ مأساة؟".

نظرَ إليَّ مرّة أخرى باندهاش:

- "ألا تعلم؟".

- "أعلم، أعلم ماذا يا رجل؟ بحقِّ السَّماء هلَّا أفصحت". كنت جالسًا على حافَّة مقعدي، وأنا في غاية الاستثارة، فلقد كانت تلك التَّفاصيل جديدة عليَّ حتَّى إنَّني نسيت هولمز ومشكلاته الخطيرة في غمرة حماسي لإشباع فضولي بشأن ماضي هولمز. لقد كانت كلّ كلمة يصدرها الرَّجل الصَّغير أشدّ هولًا من سابقتها.

- "ما دام السَّيّد شرلوك هولمز لم يحكِ لك الموضوع، فلا أظنُّ أنَّ من حقِّي أن أقوله".

- "ولكن يا رجل...".

لم أستطع إقناعه؛ فقد كان رأيه أنَّ المسألة خاصَّة بشرف المهنة، ولم تفلح كلّ محاولاتي في إثنائه عن رأيه، وكلَّما ازددت إلحاحًا، ازداد هو إصرارًا. وفي النِّهاية صمَّ أذنيه عن كلِّ توسُّلاتي ونهض باحثًا عن عصاه، وقال متجنِّبًا التقاء عينيَّ بعينه: "لقد قلت في الحقيقة كلّ ما جئت لقوله، ويجب أن تلتمسَ لي العذر، فلا أستطيع، ولن أستطيع أن أفشي هذا الأمر. لقد قلت كلَّ ما أقدر عليه، وأترك الأمرَ بين يديك لتحلَّ هذه المعضلة".

وانصرف وهو في حالة من العزم والتَّصميم لم أتوقَّعها منه. وتحوَّل التَّهيُّب والوجل فجأة إلى رغبة في الخروج. وانصرف البروفيسور موريارتي، وتركني أفكِّر فيما يجب أن أفعله. أمَّا فيما يتعلَّق بتلك الإشارات المرعبة إلى ماضي هولمز المليء بالمآسي، فقد أحسست فيما بيني وبين نفسي أنَّ ما قد يراه البروفيسور مأساة، قد يبدو في نظري

مجرَّد أمر محزن باعتبار أنَّه - كما أظنُّ - رجل ذو طبيعة مفرطة الحساسية.

ولم يكن لديَّ وقت أنفقه في التَّفكير في تلك المسارات؛ إذ كان يجب أن أركِّز فيما يعانيه هولمز من انهيار، وفي التَّهديد المقنع الَّذي ألقاه موريارتي (ولو أنَّني لسوء الحظِّ كنت أقدِّر ظرفه) عن لجوئه إلى محاميه، فهذا أمر يجب تجنُّبه بأيِّ ثمن. فقد كان هولمز ذا طبيعة سريعة الانفعال- ولقد شاهدته مرَّتين ينهار قبل ذلك- ليس بسبب الكوكايين بالطَّبع- ولم أتصوَّر إمكان تعريضه لتلك الخبرة مرَّة أخرى[1].

وقرَّرت، بعد تفكير، أنَّ ما يحتاجه هولمز هو العلاج؛ إذ يجب إيقاف هذه العادة الفظيعة. ولا شكَّ أنَّني أحتاج في هذا الأمر إلى نوع من المعونة؛ إذ توضِّح لي خبرتي السَّابقة أنَّني أستطيع إيقاف إدمانه باستخدام قدراتي الضَّئيلة ومعرفتي القليلة، وإذا صدق ظنِّي فإنَّ القليل الَّذي حاولته قبل ذلك يبدو مستحيلًا الآن. فخلال الشُّهور الماضية عندما كانت اتِّصالاتنا ضئيلة جدًّا لا بدَّ أنَّ ذلك السُّلوك القهريَّ المميت قد ازدادتْ قوَّته عشرة أضعاف، بحيث إنَّه أصبحَ الآن أسير قبضته المرعبة أكثر ممَّا كان عليه في أيِّ وقتٍ مضى. فإذا لم أكن قد استطعت مساعدته في التَّخلُّص من تلك القبضة قبل ذلك عندما كانت لا تزال ميلًا وقتيًّا، فكيف يمكنني مجابهتها الآن بعدما أصبحت تمسك بخناقه؟

ونظرت إلى ساعتي ولاحظت أنَّها تعدَّت الثَّانية أيّ أنَّ الجزء الأكبر من النَّهار قد انقضى، وسيكون من الحماقة أن أستمرَّ في العيادة؛ ذلك أنَّ ماري زوجتي ستعود من عند مسز فورستر في الخامسة، وكنت أنوي الذَّهاب إلى محطَّة ووترلو لاستقبالها.

---

(1) يشير واطسون إلى واقعتين حدث فيهما مثل هذا الانهيار. الأولى في قصَّة "أسياد ضيعة ريجيب"، والثَّانية في مغامرة "قدم الشَّيطان" (نيكولاس ماير).

ورأيت أن أستفيد من تلك الفترة بأن أمرَّ على مستشفى بارت لأسأل ستامفورد النُّصح- ولن أخبره بالطَّبْع بالحقيقة الكاملة- ولكن أعرض عليه المشكلة وكأنَّها تخصُّ أحد مرضاي.

وكان ستامفورد- كما يتذكَّر القرَّاء- يعمل مساعدًا في مستشفى بارت عندما كنتُ أدرس في جامعة لندن 1878، وتقدَّمَ في دراسته منذ ذلك الحين، وحصل على البكالوريوس من جامعة لندن العتيدة، وأصبح الآن طبيبًا باطنيًّا في هيئة ذلك المستشفى القديم والَّذي- منذ سنوات بعيدة في معمله الكيميائيِّ- عرَّفني ستامفورد فيه لأوَّل مرَّة بشرلوك هولمز، ولم يكن على معرفة وثيقة بهولمز، وإنَّما جمع بيننا من خلال معرفته بأنَّ كلًّا منَّا كان يرغب في إيجاد سكن مشترك بسعر مناسب، ولم أكن أنوي بالطَّبع أن أذكِّر هولمز اليوم إذا استطعت ذلك.

وخرجت من منزلي مرَّة أخرى، مزوَّدًا في تلك المرَّة ببعض الخبز واللَّحم البارد، زوَّدتني به الخادمة، ولفَّته بالورق ودسَّته في جيبي - رغم اعتراضها- كما رأيت هولمز يفعل في عدد من المرَّات عندما ينشغل بقضيَّة، ولا يوجد لديه وقت لتناول وجبة معتادة. وأحدثت الذِّكرى هزَّة في صدري وأنا أمتطي المركبة في طريقي إلى مستشفى بارت للقيام بتلك المهمَّة الكئيبة.

ولقد تعجَّب الكثير من الباحثين المعاصرين أنَّنا- أي هولمز وأنا- كنَّا مؤمنين بركوب المركبات رغم ارتفاع سعرها في حين أنَّه كان يمكننا أن نستقلَّ قطار الأنفاق بسعر أقلّ بكثير، وما دمنا بصدد الكشف عن الألغاز، فيمكنني القول أنَّه رغم أنَّ قطار الأنفاق كان أقلّ تكلفة من المركبات الَّتي تجرُّها الجياد، ورغم أنَّه كان أسرع بالتَّأكيد في بعض الأحوال إلَّا إنَّ الخطوط لم تكن قد اكتملت كلّها، وفي كثير من الحالات لم تكن لتحملنا إلى حيث نرغب.

لكنَّ السَّبب الحقيقيَّ في عدم استعمالنا له حتَّى ولو كان يفي بالغرض- واستخدام صيغة الجمع هنا يعود على معظم السَّادة المحترمين الميسورين- هو أنَّ قطار الأنفاق في ذلك الوقت كان عميق الغور، وكانت القطارات تُدَار بالبخار كما كانت قذرة وخطرة تفوح منها رائحة حامض الكبريتيك، ولم تكن مأمونة، وليست مكانًا ملائمًا للإنسان يستطيع استخدام وسيلة أخرى للتنقُّل. وكان النَّاس المضطرون لاستخدامها يعانون من أمراض الرِّئة، وكنت أرى في عيادتي، الَّتي تجاور قطار الأنفاق، الكثير من العمَّال والبنَّائين والملاحظين العاملين في تلك الشَّبكة الأرضيَّة من القطارات، والَّذين يمكن القول إنَّهم قد دفعوا حياتهم- بالمعنى الحرفيِّ للكلمة- حتَّى يتمكَّن سكَّان لندن اليوم من التَّمتُّع بأحدث نظام للمواصلات في العالم وأرخصها وأكثرها أمنًا.

وفي عام 1891 لم يكن قطار الأنفاق يربط بين شارع بيكر ومستشفى بارت، ولم يكن شارع بيرك في ذلك الوقت يبلغ من الطُّول ما بلغه اليوم، وهكذا لم تكن المركبة نوعًا من التَّبذير، وإنَّما ضرورة- ما لم ندخل الأتوبيس في اعتبارنا، ولكنَّ الأتوبيسات كانت لها نواقصها أيضًا، وكان مستشفى سانت بارثولوميو يُعَدُّ واحدًا من أقدم المستشفيات في العالم، وقد بنى هيكله على طراز القرن الثَّاني عشر، وأقيم على أساس يرجع إلى العصور الرُّومانيَّة، ويُقال إنَّ مهرِّج الملك هنري الأوَّل "راهير" الَّذي أُصِيْبَ بمرض عندما كان في طريقه إلى روما للحجِّ أقسم أنَّه إذا تعافى، فسيبني كنيسة كبيرة في لندن[1]، ولا أدري إنْ كانت هذه الرِّواية صحيحة أم لا. إلَّا أنِّي أعلم يقينًا أنَّ مستشفى بارت بدأ ككنيسة، وظلَّ كذلك إلى أن ضمَّه هنري الثَّامن إلى أملاكه، ثمَّ دمَّرَ الكثيرَ من أجزاء المبنى، كما فعل في أماكن كثيرة، ولكنَّ ذلك لم يلحق إلَّا تغييرات طفيفة بالمستشفى.

---

(1) يوجد وصف تفصيليٌّ لتاريخ هذا المستشفى في كتاب مايكل هاريسون الممتاز "في خطى شرلوك هولمز"، "نيكولاس ماريز".

وقبل أن أبدأ دراستي في مستشفى سانت بارثولوميو بعشرين عامًا تقريبًا كانت سوق سميث فيلد الكبيرة- بما تحتويه من مجازر- قريبة جدًّا من المستشفى. وكانت رائحة الحيوانات المذبوحة تنتشر، كما يُقال، طاغية على أيِّ روائح أخرى لأميال حول المستشفى. إلَّا إنَّ السُّوق ومجازرها كانت قد أزيلت لحسن الحظِّ عندما التحقت بالمستشفى، وحيثما كانت الحيوانات تصيح من الألم، وتسيل دماؤها أنهارًا، قامت عمارات إسكانيَّة جديدة ودكاكين، وما إلى ذلك، ولا تزال هذه الجيرة كما هي لم تتغيَّر- حسب علمي- حيث إنَّني لم أتردَّد على المستشفى خلال الخمسة عشر عامًا الماضية.

وعندما عبرت المركبة بوَّابة المستشفى في ذلك اليوم- 25 أبريل- لم يتداعَ إلى خاطري ذلك التَّاريخ القديم للمبنى، ولم أتوقَّف لأتمعَّن الشَّكل الهندسيَّ للمباني الَّتي أُضِيْفَتْ أو الزَّخارف القديمة الَّتي قد تأسر العين أحيانًا، وقد تنفِّرها، ونقدت السَّائق أجره ودخلت مباشرة إلى قسم الباثولوجيا لأبحث عن ستامفورد.

وقادني هذا البحث إلى الدُّخول في متاهة من الممرَّات الملتوية؛ ممَّا اضطرني إلى السُّؤال عن الاتِّجاه عدَّة مرَّات، فقد مضى وقت طويل منذ أن عبرت تلك المتاهة، ولم تكن هناك روائح السُّوق القديمة، وإنَّما ملأت أنفي الرَّوائح القويَّة لحمض الكربوليك والكحول، ولم يكن هذا شيئًا جديدًا عليَّ، فرائحة هذين التَّوأمين ترافقني يوميًّا في جولاتي إلَّا إنَّ درجة تركيزها كانت أعلى هنا.

وعرفت أنَّ ستامفورد كان يلقي محاضرة، واضطررت إلى الجلوس على مقعد في نهاية المدرَّج منتظرًا أن ينتهي من محاضرته، وكان من الصَّعب عليَّ في الواقع أن أركِّز على ما يقول- وأتصوَّر أنَّه كان يتحدَّث عن الدَّورة الدَّمويَّة- لقد كنت مشتَّت الفكر فيما يتعلَّق بمهمَّتي، وما زلت أتذكَّر أنَّني نظرت إليه وهو يقف على المنصَّة

كما لو كان يمتلكها، وتذكَّرت المدَّة الطَّويلة الَّتي انقضت منذ كنَّا - أنا وهو - نجلس على هذه المقاعد نستمع إلى أستاذ آخر حادّ الطَّبع يحاول أن يغرسَ نفس هذه الحقائق في جماجمنا المستغلقة، ونظرت إلى ستامفورد وتصوَّرته، وقد بدأ يتَّخذ شكلًا مشابهًا لذلك الأستاذ الَّذي لم أعد أتذكَّر اسمه.

وعندما انتهى من محاضرته، نزلت إلى مقدِّمة المدرَّج، وناديته وهو يقترب من باب الخروج- "يا للسَّماء، هذا أنت يا واطسون!"- صاح وهو يشقُّ الطَّريق إليَّ ويشدُّ بقوَّةٍ على يدي: "ما الَّذي أتى بك إلى بارت في هذا اليوم دون سائر الأيَّام؟ هل سمعت محاضرتي؟ أراهن أنَّك لم تكن تظنُّ أنَّني ما زلت أتذكَّر كلّ هذا الهراء؟".

وأخذ يتحدَّث بهذه الطَّريقة لعدَّة دقائق، وتناول ذراعي وقادني خلال المباني الجديدة في هذا التِّيه إلى مكتبه، وكان مكتبًا فسيحًا يُعَدُّ امتيازًا للأطبَّاء الَّذين هم في نفس الوقت أعضاء في هيئة التَّدريس، وكان لستامفورد طريقة مرحة ما زلت أتذكَّرها فيه منذ الشَّباب، وسرَّني أنَّه لا يزال يثرثر بنفس الطَّريقة، لقد تقدَّمت به السِّنُّ، ولكن برشاقة، وما زال يحتفظ بذلك الجوِّ الطَّريف، بينما قلَّ وزنه عن ذي قبل كما كانت طريقته المهنيَّة تليق به، صحيح أنَّها قد تثير الضَّحك، ولكنَّه كان مشغولًا في عمله لدرجة أنَّه لم يعد له وقت "للتظرُّف" كما يقول.

وتركت له فسحة من الوقت يحكي فيها كما حكيت له تفاصيل حياتي وزواجي وعيادتي وما إلى ذلك، وحاولت قدر الإمكان الدَّوران حول أسئلته الَّتي لم يكن هناك مفرٌّ منها بشأن هولمز.

- "مَن كان يظنُّ قطّ أنَّه ستنشأ بينكما هذه العلاقة الوطيدة؟ أنَّ لديك موهبة حقيقيَّة لسرد القصص يا واطسون، ولديك براعة في اختيار العناوين أيضًا، والآن وقد أصبحنا وحدنا،

ولـن أبـوح لمخلـوق، هـل صحيـح أنَّ صديقـك العزيـز هولمـز يقـوم بالفعـل بـكلِّ مـا نسـبته إليـه في كلّ تلـك الأقاصيـص: اصدقنـي القـول!؟".

وأجبتـه بـبرود أنَّ شرلـوك هولمـز في رأيـي هـو أفضـل وأحكـم الرِّجـال الَّذيـن عرفتهـم.

ووافقنـي سـتامفورد بسـرعة: "هـذا صحيـح، هـذا صحيـح". فقـد أدركَ عـلى الفـور أنَّـه لم يكـن لبقًـا في حديثـه، وتمـدَّد في كرسـيِّه، وقـال: "مَـن كان يظـنُّ ذلـك، أعنـي أنَّنـي كنـت أعلـم أنَّ الرَّجـل بـارع، ولكـن لم تكـن لـديَّ أيّ فكـرة عـن... حسـنًا حسـنًا" وبـدا أنَّـه أدرك في النِّهايـة أنَّنـي قدمـت لزيارتـه وفي ذهنـي غـرض معـيَّن، فتحـوَّل اهتمامـه إليَّ وقـال: "هـل هنـاك مـا أسـتطيع أن أفعلـه لـك أيُّهـا الرَّجـل العجـوز؟".

فقلـت لـه إنَّ لـديَّ شـيئًا مـا، واسـتجمعت نفسـي، وشرحـت باختصـار تاريـخ حالـة أحـد مرضـاي الَّـذي وقـع في براثـن الكوكايـين، مشـيرًا ببراعـة إلى الأوهـام الَّتـي تصاحـب المراحـل المتأخِّـرة مـن الإدمـان، وسـألته مـا الخطـوات الَّتـي يمكـن اتِّخاذهـا لشـفاء مثـل هـذا الشَّـخص مـن آلامـه.

ولقـد أصغـى سـتامفورد إليَّ - والحـقّ يُقـال - بانتبـاه كامـل، وقـد وضـع يديـه عـلى مكتبـه يدخِّـن في صمـت وأنـا أعـرض عليـه التَّفاصيـل.

وعندمـا انتهيـت قـال: "هـل تعنـي أنَّ المريـض لا يعـي بمصـادر أو أصـول تلـك المشـاعر- أي أنَّ هنـاك شـخصًا يسـعى إلى إلحـاق الأذى به؟ ألا يفهـم أنَّ هـذه الضَّـلالات ناشـئة عـن المخـدِّر الَّـذي يثابـر عـلى تعاطيـه؟".

- "مـن الواضـح أنَّـه لا يـدرك. أعتقـد أنَّـه قـد وصـل إلى المرحلـة - إذا كان ذلـك ممكنًـا- الَّتـي لم يعـد يـدرك فيهـا أنَّـه يتعاطـى الكوكايـين عـلى الإطـلاق. حملـق سـتامفورد وقـد قـوَّس حاجبيـه في دهشـة، وزفـر الهـواء بـلا صـوت مـن فمـه قائـلًا: "سـأكون

صريحًا معك يا واطسون، أنا لا أعرف إذا كان ذلك ممكنًا أم لا في الواقع". ونهض من مكانه وأقبل عليَّ وهو يقول: "لا يعرف الطِّبّ حتَّى الآن إلَّا القليل عن الإدمان من أيّ نوع، ولا ريب أنَّك تدرك، إذا كنت قد تابعت التَّحصيل، أنَّنا سنصل في المستقبل القريب إلى وضع لن نسمح فيه بتداول الكوكايين والأفيون ما لم يصاحبه وصفة طبيَّة".

- "لن يفيدني هذا بشيءٍ" صحتُ بمرارة: "فإلى أن يتمَّ ذلك سيكون مريضي قد مات". وقد أدَّت الفكرة الَّتي عبرت خيالي إلى ارتفاع صوتي بطريقة لفتت انتباهه. فتفرَّس فيَّ، وصمدت أمام نظراته الفاحصة قدر إمكاني ثمَّ عاد إلى كرسيّه.

- "لا أدري بماذا أخبرك يا واطسون، ولكن إذا استطعت إقناع المريض بأن يضع نفسه تمامًا تحت إشرافك ورعايتك..." فقاطعته محاولًا إظهار نفسي بصورة عاديَّة، وأنا ألوِّح بالسّيجار في يدي: "ماذا تفعل إذن؟ ولكن انتظر"، ونهض من مقعده مرَّة أخرى: "شيء قد يفيدك، أين وضعته يا ترى؟".

- وبدأ بتفتيش مكتبه مزيحًا أكوامًا من الأوراق، ومثيرًا الكثيرَ من الغبار؛ ما ذكَّرني والألم يمزِّق صدري بملفَّات هولمز المتناثرة في شارع بيكر عندما كان البحث عن أحد المراجع أو مراجعة أحد الملفَّات القديمة يثير من الأتربة ما يدفعنا إلى السُّعال والخروج من المسكن إلى الشَّارع ساعة أو بعض ساعة حتَّى يهدأ.

- "ها هي" صاح وفي صوته رنَّة انتصار، وانتصب واقفًا وهو يمسك بيديه نسخة من مجلَّة "لانست"، وصاح وهو يناولها لي ملتقطًا أنفاسه: "هذا هو عدد شهر مارس هل رأيته؟".

- فأخبرته أنَّني لم أره؛ إذْ إنَّ عملي في العيادة لا يتيح لي الوقت الكافي، ولكنَّني أظنُّ أنَّ هذا العدد موجود لديَّ في المنزل.
- "حسنًا، خذْ هذا العدد معك على أيِّ حال، فقد لا تتذكَّر المكان الَّذي وضعت فيه نسختك. يبدو أنَّه يوجد شابٌّ في فيينا على ما أعتقد، وعلى أيّ الأحوال، لم يكن لديَّ وقت لقراءة الموضوع بكامله، ولكن يبدو لي أنَّ هذا الطَّبيب يقوم بعلاج إدمان الكوكايين بشكل أو بآخر، لا أستطيع تذكُّر اسمه إلَّا إنَّه موجود في المجلَّة، وربَّما كان لديه ما ينفعك، آسف يا صديقي العزيز، أخشى أنَّ هذا هو أفضل ما أستطيع أن أقدِّمه".

وشكرته بشدَّة، وافترقنا على وعدٍ باللقاء لتناول العشاء معًا في القريب العاجل، وأن نعرِّف زوجاتنا ببعضهنَّ... إلخ، والحقّ أنَّه لم يكن لدى أيّ منَّا النِّيَّة في تحقيق مثل هذه الوعود المسرفة، وكان قلبي مثقلًا وأنا في طريقي إلى محطَّة ووترلو، ولم يكن لديَّ اعتقاد كبير، شأني شأن استامفورد، في أنَّ ذلك المقال في مجلَّة "ذي لانست" قد يستطيع إنقاذ صديقي وانتشاله من الهوَّة العميقة الَّتي سقط فيها، ولم يدر بخلدي وأنا في طريقي لملاقاة زوجتي، أنَّه في المرَّة الثَّانية خلال عشر سنوات سيحقّق استامفورد - ذلك الشَّخص النَّادر المثال- لي ولهولمز ما نتمنَّاه.

الفصل الثّالث

الوصول إلى قرار

"يا عزيزي جاك، ما الأمر؟".

كانت هذه هي أولى الكلمات الّتي فاهت بها زوجتي وأنا أساعدها على النُّزول من القطار من محطّة ووترلو. لقد كان بيننا رباط عظيم ظهرَ لأوّل مرّة في تلك الليلة الّتي تقابلنا فيها منذ ثلاث سنوات[1].

لقد جمعتنا معًا ظروف من النّاس والأحداث المتشابكة شملت مجرمين وهاربين من العدالة، وسكّان جزر الإندمان وضبّاط جيش منهكين ومتقاعدين، وكنز "آجرا" الأسطوريّ والعصيان الأكبر. لقد وقفنا معًا في الظّلام في تلك اللّيلة الفظيعة في الدّور الأرضيّ من "بوند

(1) دار بين الباحثين جدل كبير فيما يتعلّق بزواج واطسون أو زيجاته المتعدّدة، ودون الدُّخول في مسألة عدد المرّات التي تزوّج فيها، ومَن هنّ فإنّ الفقرة، والّتي تليها "تبيّن بوضوح تامٌّ أنّ المرأة الّتي يشير إليها هي ماري مورستان زبونة هولمز في قضيّة "علامة الأربعة"، وهي الأنثى الوحيدة الّتي يقرّر واطسون بما لا يدع مجالًا للشّكّ أنّه تزوّج منها. "نيكولاس ماير".

شيري لودج"، بينما صعد هولمز ومديرة المنزل إلى الطَّابق العلويِّ مع تاديوس شولتو، وهناك اكتشف جثَّة أخيه التَّعس بارثولوميو. في ذلك الموقف المرعب ودون كلمة واحدة، بل ودون أن يعرف أحدنا الآخر على الإطلاق- امتدَّت يدانا بشكلٍ غريزيٍّ لتلتقيا وتتشبَّثا ببعضهما في الظَّلام. وكطفلين خائفين سعينا في نفس الوقت لمواساة بعضنا بعضًا. لقد نشأ التَّعاطف بيننا بسرعة البرق.

وقد استمرَّ هذا الفهم والتَّعاطف الحيّ بيننا حتَّى يوم وفاتها؟ كان هذا التَّعاطف واضحًا عندما نزلت من القطار تلك الليلة في شهر أبريل. ورمقتني بقلق وكرَّرت السُّؤال: "ما الأمر؟".

- "لا شيء، تعالَ، سأخبرك عندما نصل إلى المنزل، هل هذا كلّ متاعك؟".

وهكذا حوَّلت انتباهها ونحن نشقُّ طريقنا خلال المحطَّة المزدحمة ندور ونلفّ بين الحقائب والبشر وصيحات الحمَّالين والآباء الَّذين يحاولون الإمساك بأطفالهم، وتمكَّنا بطريقة أو بأخرى من عبور الضَّجَّة والصَّخب، والتقطنا مركبة ونقدنا الحمَّال أجره - بعد أن حزمَ المتاع على ظهر العربة - ودلفنا إليها تاركين خلفنا ذلك البحر الدَّائم من الصَّخب والضَّجيج والفوضى... ووترلو.

وما أن اتَّخذنا طريقنا حتَّى بدأت زوجتي في معاودة أسئلتها، ولكنَّني قاومتُ وأخذتُ أثرثر في غير اهتمام، وقد رسمت على وجهي علامات المرح والابتهاج بعزم وتصميم، وسألتها عمَّا تمتَّعت به في رحلتها وزيارة مخدومها السَّابق، فقد كانت تعمل مربّية في منزل مسز فورستر عندما ساقني حظِّي الحسن لأتعرَّف بها.

وتحيَّرت لأوَّل وهلة من عنادي، ولكن لمَّا رأت أنَّه لا فائدة، استجابت لرغبتي وحكت لي قصَّة إقامتها في المنزل الرِّيفيِّ لآل فورستر

في هاستينجز وعن الأطفال الذين كانت ترعاهم، وأنَّهم كبروا الآن بحيث لم يعودوا في حاجة إلى مربِّية.

"أو هكذا يتوهَّمون" قالتها زوجتي وهي تضحك. وأعتقد أنَّني لم أحبّها قطّ بمثل هذا القدر من الحبِّ الَّذي أحسست به خلال ركوبنا العربة. لقد أدركت (زوجتي) أنَّني قلق بشأنٍ ما، ولكن لمَّا رأت أنَّني لم أكن أرغب في الحديث عنه، التقطت خيط الحديث، وتسامرنا بكلِّ مودَّة حتَّى تمكَّنت من السَّيطرة على أعصابي ومواجهة عذاب الإفصاح. لقد كانت امرأة رائعة، ومازلت أفتقدها حتَّى يومنا هذا.

كان العشاء في انتظارنا عند وصولنا، وتناولناه ونحن على نفس الحال من الحديث الخفيف، كلّ منَّا يحاول أن يمتِّع الآخر بالحديث اللَّطيف والوقائع الَّتي حدثت خلال فترة الفراق، وما أن أوشكنا على الانتهاء من الطَّعام حتَّى أحسَّت بتغيُّر مزاجي.

"والآن يا جاك لقد حاورتني وداورتني بما فيه الكفاية، ويستحيل أن تكون مهتمًّا بمزيد من التَّفاصيل عن هؤلاء الأطفال، قم بنا إلى غرفة الجلوس".

ونهضتْ ومدَّتْ يدها إليَّ، فأمسكت بها: "إنَّ نار المدفأة في انتظارنا، وسوف نجلس في راحة واسترخاء، نتناول كأسًا من البراندي والصّودا إذا أردت وتدخِّن غليونك، ثمَّ تخبرني بالحكاية".

ونفَّذتُ تعليمات زوجتي بخضوع كالطِّفل، غير أنِّي لم أضف أيّ صودا إلى كأس البراندي، فقد كانت زوجتي شديدة التَّأثُّر، في الأيَّام الأولى لتعارفنا، بصورة الجنرال جوردون الموجودة لديَّ، ولا أدري من أين أتت بتلك المعلومة عن الجنرال جوردون أنَّه كان يفضِّل البراندي بالصُّودا على كلّ المشروبات - ربَّما لأنَّها تنحدر من أصل عسكريٍّ - كما كوَّنت فكرة مبالغًا فيها عن تعلُّقي بالجيش، ربَّما بسبب الجرح

الَّذي أصبتُ به في العمليَّات في أفغانستان. وكانت على الدَّوام تحاول أنْ تغرسَ فيَّ ميل الجنرال جوردون إلى ذلك المشروب. وعبثًا حاولتُ أن أفهمها أنَّني ورثتُ صورة الجنرال بعد وفاة أخي الأكبر، كما حاولت عبثًا أن أخبرها بأنَّ الجنرال لم يقد قطّ فرقة نورثمبر لاند الخامسة للبنادق. لقد كانت تقدِّسه إلى درجة العبادة؛ وذلك بسبب عمله المجيد في إنهاء تجارة الرَّقيق في الصِّين؛ ولذلك فلم تفقد الأمل قطّ في أن تراني يومًا ما، وقد انحزت إلى مشروب بطلها المفضَّل، إلَّا إنَّها اليوم لم تعبس عندما أدركت أنَّني - كعادتي- قد استبعدت الصّودا من كأسي.

وحثَّتني قائلة: "والآن يا جاك" واستقرَّت في رشاقة وجمال على حشية من ذيل الخيل مقابلة للمقعد الَّذي جلست فيه - نفس المقعد الَّذي نام عليه هولمز في اللَّيلة الماضية - كانت لا تزال في ملابس السَّفر، رداء من التّويد الرَّماديِّ تحيط به الدَّنتيلا عند المعصم والرَّقبة - وكانت قد خلعت قبَّعتها قبل تناول العشاء.

وتناولت رشفة من البراندي، وأشعلت غليوني في تؤدة، ثمَّ قصصت عليها المأساة كلَّها.

"يا لمستر هولمز المسكين!" صاحت في النِّهاية وهي تعصر يديها منفعلة، والدُّموع تترقرق في مآقيها "ماذا سنفعل؟ هل هناك ما نستطيع أن نفعله؟". وأثلج صدري ما رأيته من رغبتها واستعدادها لمدِّ يد العون، لم يخطر ببالها أن تستبعد المشكلة، وتتجنَّب صديقي والمرض الخبيث الَّذي انتابه وشوَّه طبيعته الحقيقيَّة. وأجبتها ناهضًا على قدمي: "أظنُّ أنَّ هناك إجراء يمكن اتِّخاذه، ولكنَّه لن يكون سهلًا، لقد مضى هولمز بعيدًا بحيث إنَّه لن يقبل المساعدة عن طيب خاطر، وأظنُّ أنَّه ما زال من البراعة بحيث لن يمكننا خداعه ليقوم بذلك".

- "وماذا بعد".

- "لحظة يا عزيزتي سأحضر شيئًا من الرُّدهة".

وغادرتها للحظة، وأحضرت نسخة مجلَّة "ذي لانست" الَّتي أعطاها استامفورد لي، وتساءلت فيما بيني وبين نفسي وأنا أعود إلى غرفة الجلوس ما إذا كانت ماري ستقبل مساعدتي، إذا لزم الأمر، في تنفيذ خططي. لقد كانت فتاة ذات شخصيَّة مستقلَّة شقَّت طريقها في الحياة بنفسها، ولقد تخمَّرت الخطَّة في ذهني شيئًا فشيئًا وأنا جالس على المقعد في محطَّة ووترلو أنتظر وصول قطارها، وأنا أقرأ ما كتب عن هذا المتخصِّص النِّمساويِّ.

رجعت إلى غرفة الجلوس، وأغلقت الباب، وأخبرت زوجتي بنتائج مقابلتي مع استامفورد.

- "هل قرأت المقال"؟

- "نعم، قرأته مرَّتين، وأنا في انتظار قطارك".

وعدت إلى الجلوس على مقعدي، وتصفَّحت عدد "ذي لانست" باحثًا عن المقال.

"آه، ها هو، لقد قام هذا الطَّبيب بدراسة متعمِّقة للكوكايين، ويقول إنَّه توصَّل أوَّلًا إلى نتيجة خاطئة. كما يعترف، وهي أنَّ قوَّة العقار مدهشة للغاية، وهي استطاعته شفاء أيّ مرض، بل والقضاء على إدمان الكحول إلَّا إنَّه بعد ذلك اكتشف لعنته الفظيعة، ألَا وهي الإدمان عندما قضى صديق عزيز له نَحْبَهُ نتيجة لذلك".

"قضى نحبه!".

قالتها بصوت مكتوم معبِّر عن شعورها رغمًا عنها. ونظر كلٌّ منَّا إلى الآخر وقد انتابنا الفزع من تصوُّر إمكانيَّة موت هولمز بهذه

الطَّريقة البشعة. لقد كان للرَّجل في عنق زوجتي مثلما في عنقي من فضل؛ إذ عن طريقه تقابلنا، وبلعت ريقي وواصلت الحديث:

"وعلى أيِّ حال، فإنَّه بعد وفاة صديقه هذا - الَّتي حدثت في بداية هذا العام - غيَّر هذا الطَّبيب تأييده للكوكايين، وحوَّل طاقاته إلى شفاء هؤلاء التُّعساء الَّذين وقعوا في براثن هذا المخدِّر، وهو يعلم عن هذا العقار أكثر ممَّا يعلمه أيّ شخص آخر في أوروبا".

وتبادلنا النَّظرات مرَّة أخرى.

سألتني: "هل ستراسله؟".

هززت رأسي وقلت: "لا يوجد وقت، لقد مضى هولمز في طريق الدَّمار بسرعة لا تسمح لنا بأن نضيع ساعة واحدة، إنَّ بنيانه قويٌّ، ولكنَّه لن يستطيع مقاومة التَّلف النَّاشئ عن ذلك السّمِّ الَّذي يتناوله، وما لم نساعده فورًا، فإنَّ جسمه سينهار قبل أن تُتَاحَ لنا أيُّ فرصة لإصلاح عقله، إنّي أقترح أن ننقله إلى القارَّة، وأن نضعه في رعاية ذلك الطَّبيب، ولن أدَّخر وسعًا في التَّضحية بالوقت والجهد في تقديم ما أستطيع".

جلست زوجتي صامتة لعدَّة دقائق، وقد استغرقت في التَّفكير، وعندما التفتت إليَّ مرَّة أخرى ظهر الجانب العمليُّ في طبيعتها من خلال الأسئلة النَّفَّاذة الَّتي انهالت بها عليَّ:

"وإذا افترضنا أنَّ هذا الطَّبيب لن يستطيع شيئًا فماذا بعد؟".

هززت كتفيَّ: "إنَّه الشَّخص الوحيد في أوروبا الَّذي يبدو أنَّه يعلم شيئًا عن الموضوع، وليس أمامنا إلَّا المحاولة؟".

هزَّت رأسها:

- "ولكن ماذا عن الطَّبيب؟ هل سيوافق على رؤية هولمز؟ ربَّما كان مشغولًا جدًّا... أو ربَّما كانت تكاليفه فوق الاستطاعة".

- "سأتمكَّن من الإجابة على هذا السُّؤال بدقَّة عندما أستلم الرَّدَّ على برقيَّتي".

- "هل أرسلت ببرقيَّة؟".

كنت قد أرسلت برقيَّة من محطَّة ووترلو بعد قراءة المقال، وكنت في هذا أقتفي خطى هولمز الَّذي كان يفضِّل البرقيَّات دومًا على كافَّة أشكال الاتِّصال. وانقبض قلبي وأنا أتذكَّر أنَّه كان في هذه اللَّحظة يوجِّه برقيَّاته إلى موريارتي المسكين، وعلى أيِّ حال لم يكن يخدم غرضي في تلك اللَّحظة إلَّا البرقيَّات، وحتَّى لو كانت خطوط التِّليفون عبر البحار متوفِّرة في عام 1891 فلم أكن لأستعملها. لقد أصابني هولمز بعدوى رفض التِّليفونات؛ إذْ كان يقول إنَّ استخدام البرقيَّة يجبر المرءَ على الاختصار، ومن ثَمَّ على أن يكون منطقيًّا، والرَّسائل تتطلَّب ردًّا وليس ثرثرة لا معنى لها، وعلى أيِّ حال لم أكن أريد ردًّا طويلًا مفصَّلًا، وإنَّما مجرَّد نعم أم لا.

واضطجعت زوجتي إلى الخلف، وقد بدا عليها الانزعاج، وقالت وهي تتنهَّد: "ولكنَّنا لم نضع في اعتبارنا موقف هولمز نفسه. لقد اعترفت أنَّه لن يمكن خداعه حتَّى يطلب العون، فإذا افترضنا أنَّ ذلك الطَّبيب قد قبله كمريض، فكيف سنحمله على الذَّهاب إليه؟ وقد أدركت ممَّا سبق أن ذكرته أنَّه الآن في قمَّة الحذر والاحتياط".

- "هذا صحيح، لن يكون من السَّهل أن نأخذ هولمز خارج البلاد، يجب أن نجعله يشعر بأنَّ ذهابه نابع من إرادته".

- "وكيف سننجز ذلك؟".

- "يجب أن نجعله يعتقد أنَّه يقتفي أثر البروفيسور موريارتي، وأن ندبِّر الأمر بحيث يبدو كذلك".

نظرت إليها بعين ثابتة وقلت: "أجل، يجب أن نختلق أثرًا زائفًا يؤدِّي بهولمز إلى فيينا".
واحتجَّت بردٍّ فعل عفويٍّ: "سيكشف خطَّتك، فلا أحد يعرف فكَّ الطَّلاسم مثل هولمز".

- "هذا صحيح، ولكن لا أحد يعرف هولمز مثلما أعرفه، سأستخدم كلَّ حيلة أعرفها لأجذب انتباهه، وأجعله يقتفي أثر الرَّائحة، فالدَّهاء، ليس حرفتي، وإنَّما حرفته هو، ولسوف أستعيرها مؤقَّتًا. سأضع نفسي في مكانه وسأفكِّر مثله، سأرجع إلى مذكِّراتي عن القضايا السَّابقة الَّتي عملنا فيها معًا، وستساعدينني بالطَّبع"، وتابعت حديثي بشجاعة "وسوف نجعله يقوم بما نريد إذا لزم الأمر، ولن أبخل بأيِّ مال".

وانثنت زوجتي نحوي ووضعت كفَّيها حول وجهي، ونظرت إليَّ متطلِّعة في عينيَّ بحبٍّ وإعجاب:

- "وستفعل ذلك كلَّه... من أجله؟".

وأجبتها: "سأكون أتعس النَّاس على الأرض إن لم أفعل ذلك، لقد فعل من أجلي الشَّيء الكثير".

فقالت في بساطة: "سأقف بجوارك".

"شيء جميل" وأمسكت بيدها وأنا في غاية الانفعال "علمت دومًا أنَّني أستطيع الاعتماد عليك، ولكن يجب أن نطمئنَّ على تعاون ذلك الطَّبيب معنا".

إلَّا إنَّ هذه العقبة ذُلِّلَتْ في التَّوِّ واللَّحظة، فقد سمعنا طرقًا على الباب، وسرعان ما دخلت علينا الخادمة تحمل في يدها برقيَّة، وفتحت المظروف بأيدٍ مرتعشة، وقرأت رسالة موجودة مكتوبة بلغة

انجليزيَّة متعثِّرة بما معناه أنَّ الطَّبيب يقدِّم خدماته إلى المخبِر السِّرِّيّ الانجليزيّ العظيم بلا مقابل، وأنَّه ينتظر الرَّدَّ، وأسرعتُ بكتابة ردٍّ موجز أرسلته مع الفتاة، وبقي الآن كيف نحمل شرلوك هولمز على الذّهاب إلى فيينا؟

الفصل الرّابع

مقابلة في "بال مال"

كان من السَّهل عليَّ أن أقول إنَّني سأتمثَّل عقليَّة شرلوك هولمز، ولكن عند التَّنفيذ كان الأمر جدَّ مختلف.

لقد أشعلت البرقيَّة حماسنا، واقتربنا بمقعدينا بعضنا بعضًا، وبدأنا في وضع الخطط لصناعة ذلك الأثر الزَّائف، وبين الحين والآخر كنت أتناول ملفَّات القضايا القديمة من على الرَّفِّ.

ولسوء الحظِّ ظهر أنَّ المسألة أصعب بكثير ممَّا تصوَّرت. لقد أنعم عليَّ الكثيرون ممَّن درسوا كتاباتي بأوصاف تنعت الكاتب - أي أنا - بأنَّه بطيء وبليد وغرِّير يفتقر إلى الخيال، بل وما هو أسوأ من ذلك. ولن أدفع تلك الاتِّهامات عن نفسي، صحيح أنَّني قد استخدمت الأسلوب الأدبيَّ في سرد بعض مغامراتي مع هولمز، ومن ثَمَّ أخطأت أحيانًا في إظهار نفسي شديد الغباء بالمقارنة به، إلَّا أنِّي قد أضفت بعض المبالغات، لا من أجل تضخيم قدرات صديقي في عين القارئ، وإنَّما لأنَّ مصاحبته تجعل المرء في كثير من الأحيان يحسُّ

بالغباء، سواء أكان المرء متوسِّط الذَّكاء - وهذا ما أعتقده في نفسي - أم دون ذلك.

ولكن عندما يحاول عقل عاديٌّ تسانده كافَّة النِّيَّات الحسنة في هذا العالم أن يخدع عقلًا أرقى منه؛ سيتَّضح على الفور أين تقع المشكلة. ولقد وضعنا في تلك الليلة أكثر من "دستة" من الآثار الزَّائفة، ولكن كان لكلٍّ واحدٍ منها نقطة ضعف، خطأ في التَّركيب المنطقيِّ، أو ضعف في النَّوعيَّة، أعلم أنَّه سيلفت نظر هولمز، وقامت زوجتي بدور "الشَّريك المخالف" ممَّا أدَّى بها إلى أن تكتشف في عدَّة محاولات الخطأ فيما بدا لي أنَّه خطَّة محكمة.

ولم أدرِ كم مكثتُ أمام المدفأة أقدح زناد فكري، منكبًّا على مذكِّراتي، وبدا الأمر في نظري أطول بكثير ممَّا حدَّدته السَّاعة الموضوعة فوق رفِّ المكتبة.

وصاحت زوجتي فجأة: "جاك! إنَّنا نتناول هذه المسألة بشكل خاطئ تمامًا".

"ماذا تعنين؟" سألتها وأنا ممتعض نوعًا ما؛ لأنَّني كنت أبذل قصارى جهدي، وغاظني أن أسمع من زوجتي نفسها أنَّ جهودي في سبيل صديقي كانت "خاطئة تمامًا".

ردَّت بسرعة، وقد لاحظت اندفاع الدَّم إلى وجهي "لا تغضب، لقد قصدت أنَّنا إذا كنَّا نريد شخصًا يتفوَّق على مستر هولمز، فلا بدَّ أن يكون شقيقه".

"كيف غابت عن بالي هذه الفكرة؟" وملتُ نحو زوجتي مندفعًا، وقبَّلتها على وجنتها. وصحتُ وأنا أنهض من مكاني: "أنتِ على صواب، إنَّ مايكروفت هو الشَّخص الوحيد الَّذي يمكنه وضع الطُّعم في مصيدتنا، بل إنَّ هولمز نفسه قد اعترف بأنَّ مايكروفت يتفوَّق عقليًّا"، واندفعت نحو الباب مسرعًا.

فقالت: "هل ستذهب إليه الآن. لقد قاربت السَّاعة العاشرة، جاك، لقد فعلت ما يكفي ليوم واحد".

أجبتها وأنا أرتدي سترتي: "قلت لكِ إنَّه لا يوجد وقت لنضيّعه، وفضلًا عن ذلك، إذا تمكَّننا من الوصول إلى نادي ديوجين قبل الحادية عشرة، فالاحتمال الأكبر أن أجد مايكروفت هناك، ولا داعي لأن تسهري في انتظاري"، وقبَّلتُ وجنتها مرَّة أخرى وانطلقت.

في الخارج، استوقفت مركبة، وأخبرتُ السَّائق أن يذهب إلى نادي ديوجين، حيث يوجد مايكروفت عادةً، واتَّكأت على الأريكة منصتًا إلى دقَّات حوافر الفرس على الأحجار، وهو ينطلق بي عبر الشَّوارع المضاءة بالغاز، وحاولت أن أبقى مستقيظًا رغم أنَّني كنت في الحقيقة قد بلغ بي الإنهاك مداه. ومع ذلك، فلقد رأيت من هولمز عندما كان ينشغل بقضيَّة، القدرة على بذل الجهد الَّذي يفوق الطَّاقة البشريَّة، فإذا لم أكن قادرًا على تقليد ذكائه، فلا أقلَّ من أن أماثله في قدرته على الاحتمال.

لم أكن أعرف مايكروفت هولمز جيّدًا. والحقيقة أنَّني قابلته مرَّة أو مرَّتين قبل ثلاث سنوات عندما تقاطعت مساراتنا خلال الحالة التَّعسة "للمترجم اليونانيّ". الواقع أنَّني عشت مع هولمز سبع سنوات قبل أن يذكر لي أنَّ له أخًا. ولقد أذهلني هذا الكشف كما لو كنت قد علمت أنَّ الأرض مسطَّحة، وزادت دهشتي عندما قال هولمز إنَّ قدرات أخيه العقليَّة تفوق قدراته هو بكثير. قلتُ عندئذ: "إذن هو بالتَّأكيد مخبر سرِّيّ أعظم، وإذا كان الأمر كذلك كيف لم أسمع قطّ عنه؟" لأنَّه بدا لي من المستحيل أن يوجد عقل آخر مثل عقل هولمز في انجلترا دون أن يلاحظ ذلك أحد.مكتبة .. سُر مَن قرأ

أجاب هولمز ببشاشة: "أنَّ مايكروفت متواضع لا يحبُّ الحديث عن نفسه كما أنَّه كسول جدًّا" ولمَّا رأى أنَّني لم أفهم قال: "أيّ أنَّه

سيرغب تمامًا في حلِّ لغز إذا لم يتضمَّن ذلك قيامه من مقعده، ولسوء الحظِّ، فإنَّ الأمر يتطلَّب ما هو أكثر من ذلك"، أضاف ضاحكًا: "إنَّ مايكروفت يكره أيَّ جهدٍ بدنيٍّ كراهية التَّحريم".

أخبرني عندئذٍ أنَّ أخاه ينفق معظم وقته في نادي ديوجين المقابل لمسكنه في "بال مال"، وكانت العضويَّة فيه قاصرة على مَن لا يطيقون النَّوادي، فكان يضمُّ أكثر النَّاس كراهية للاجتماعات في لندن، ولم يكن مسموحًا لأيِّ عضو بأيِّ حال من الأحوال أن يهتمَّ بأيِّ عضو آخر، أو يلتفت إليه، إلَّا في "قاعة الغرباء"، كما أنَّ الكلام كان ممنوعًا منعًا باتًّا.

وكنتُ قد غفوت قليلًا عندما فتح سائق العربة الغطاء، ودون أن ينظر إليَّ أعلن بطريقة متعالية أنَّنا قد وصلنا إلى مبتغانا.

عبرت الشَّارع بسرعة إلى مدخل النَّادي، وأعطيتُ للخادم المختصّ بنقل الرَّسائل بطاقتي، ورجوته أن يبعث بمستر مايكروفت هولمز إليَّ في قاعة الغرباء، وانحنى لي بعظمة واستدار لينفِّذ ما طلبته منه، وجعلتني لمحة سريعة من عينية شبه المغلقتين في ترفُّع أن أفهم أنَّه يعدُّ مظهري غير ملائم؛ فقمت بمحاولة يائسة لشدِّ ياقتي، ومررت بيدي على شعر ذقني، ولحسن الحظِّ لم تكن بي حاجة لرفع قبَّعتي وتمشيط شعري، فرغم أنَّ عادة ارتداء القبَّعة كانت في طريقها إلى الزَّوال، فإنَّ الرِّجال - خاصَّة في الأندية - كثيرًا ما كانوا يتركون قبّعاتهم على رؤوسهم داخل المكان.

وبعد حوالي خمس دقائق عاد الخادم إليَّ وهو يسير هونًا، وبحركة رشيقة من يده المغطَّاة بالقفَّاز، قادني إلى قاعة الغرباء، حيث وجدت مايكروفت هولمز.

- "الدُّكتور واطسون! لم أكن متأكِّدًا أنَّني سأتعرَّف عليك"، وأقبل عليَّ يتمايل كالبطَّة، واحتوى يديَّ بين أصابعه البضَّة، وأعتقد أنَّني ذكرت فيما سبق أنَّه على عكس قامة شرلوك

الرَّشيقة، كان أخوه ممتلئًا إلى حدِّ السِّمْنَة، ولم تُغيِّر السُّنون من استدارة بطنه. أمَّا هو فقد تفرَّس فيَّ بعينين مستديرتين غائرتين في طيَّات من الشَّحم.

واستمرَّ في حديثه: "يبدو أنَّ لديك شيئًا عاجلًا يخصُّ أخي، لقد كنتُ طوال النَّهار تتنقَّل بشأنه - مستخدمًا المركبات كما أرى - كما أنَّك قد توقَّفت قليلًا في محطَّة ووترلو لتأخذ شيئًا، أو على وجه الدِّقَّة لتقابل شخصًا، إنَّك مجهد جدًّا".

وأشار إلى مقعد وقال: "أرجوك أخبرني بما حَدَثَ لأخي".

وسألته وأنا أستلقي على المقعد بدهشة: "كيف علمت أنَّ شيئًا حَدَثَ له؟" لقد كان شقيقًا لهولمز بالتَّأكيد.

وأشاح مايكروفت بيده الضَّخمة، وقال: "لم أرك خلال السَّنوات الثَّلاث الأخيرة، وعندما رأيتك في صحبة شرلوك الَّذي أعلم أنَّك تدوِّن أخباره، وفجأة تزورني في وقتٍ، المفروض أن يكون فيه معظم المتزوِّجين في منازلهم مع زوجاتهم، وتصل دون رفيقك، ومن السُّهولة بمكان افتراض أنَّ شيئًا قد حدث له، وأنَّك أتيت إليَّ للمساعدة أو للنَّصيحة، ومن رؤيتي لذقنك أرى أنَّك كنت خارج البيت طوال النَّهار، ولم تُتَحْ لَكَ فُرْصَة أن تحلق ذقنك مرَّة أخرى، كما يبدو من هيئة لحيتك، كما أنَّك لا تحمل حقيبتك الطِّبِّيَّة، رغم أنَّني أرى من بطاقتك أنَّك تمارس المهنة، وهكذا استنتجت أنَّ مهمَّتك العسيرة مرتبطة بزيارتك لي هذا المساء، وبيَّنَ لي تاريخ تذكرة الرَّصيف البارز من جيب سترتك أنَّك كنتَ في محطَّة ووترلو اليوم، وإذا كنتَ قد ذهبت هناك لتتسلَّم طردًا، فلم يكن بك حاجة بالطَّبع أن تذهب إلى أبعد من مستودع الأمتعة، الَّتي لا تتطلَّب تذكرة رصيف، ومن ثَمَّ فقد كنتَ هناك لتقابل شخصًا ما. أمَّا بالنِّسبة للمركبات الَّتي كنت تستقلُّها طوال اليوم، فإنَّ حالة لحيتك وتعبير الإرهاق على وجهك يبيّنان أنَّك

لم تذهب إلى منزلك، ومع ذلك فإنَّ سترتك جافَّة، وحذاؤك نظيف رغم رداءة الجوِّ، فأيّ وسيلة مواصلات أخرى تحافظ على هيئتك إلَّا تلك الوسيلة الَّتي يلقِّبها مستر دزرائيلي (رئيس وزراء انجلترا في ذلك الوقت - المترجم) جندولَ لندن، وهكذا ترى أنَّ المسألة بسيطة تمامًا، أخبرني الآن ماذا حدث؟"، واقترب بمقعده ليواجهني معطيًا لي الفرصة لأهضم دهشتي، وابتسم بعطف، وقدَّمَ لي شرابًا، ولكنَّني هززت رأسي رافضًا. سألته:

- "هل كنت على اتِّصال بأخيك أخيرًا؟".

- "لم نتَّصل منذ أكثر من عام".

ولم يبدُ هذا غريبًا لي، ولو أنَّ معظم النَّاس قد يظنُّون أنَّه من الشَّاذِّ أن يظلَّ شقيقان يعيشان في نفس المدينة، ولا يوجد بينهما أيّ شقاق يظلَّان على مبعدة بعضهما من بعض بهذا الشَّكل إلَّا إنَّ الأخوين هولمز كانا الاستثناء الَّذي يؤيِّد القاعدة كما أعلم جيِّدًا.

وحذَّرت مايكروفت هولمز من أنَّ أخباري ليست سارَّة، وأخبرته بحالة أخيه، وكيف اقترح معالجتها، وأنصت إليَّ في صمت كئيب، ورأسه تميل إلى الأمام شيئًا فشيئًا، وعندما انتهيت كان الصَّمت الَّذي تلا طويلًا لدرجة أنَّني اعتقدتُ للحظة أنَّ النُّعاس قد غلبه، وندَّت عنه آهة عميقة مالتْ بي إلى الاعتقاد أنَّه قد نام، ولكن تلاها ارتفاع رأسه تدريجيًّا حتَّى أصبحت عيناه في مواجهة عيني، ولمحت ناظريه ألمًا شديدًا.

ونطق أخيرًا بصوت أجشٍّ: "موريارتي؟".

هززتُ رأسي، وهمهم: "هكذا، هكذا" ثمَّ استغرق مرَّة أخرى في صمتٍ، وهو يحملق في أطراف أصابعه، وبعد فترة طويلة صدرتْ عنه آهة أخرى، ونهض على أثرها، وانطلق يتحدَّث بحيويَّة وحماس،

كما لو كان يحاول دفع حالة الاكتئاب الَّتي انتابته من جرَّاء أخباري، ووافقني قائلًا: "إنَّ دفعه إلى الذّهاب إلى فيينا لن يكون سهلًا - وتحرَّك نحو الباب، وجذب حبل الجرس - ولكنَّه لن يكون مستحيلًا، ولكي نفعل ذلك يجب أن نوحي إليه بأنَّ موريارتي هناك يقبع في انتظاره".

"هذه هي بالطَّبع المهمَّة الَّتي لا أدري كيف ننجزها".

"حسنًا، إنَّ أبسط الحلول هو إقناع البروفيسور موريارتي بالذّهاب إلى فيينا، استدعِ لنا مركبة من فضلك يا جينكينز".

وجَّه مايكروفت هولمز كلامه للخادم من خلف ظهري، وكان قد حضر استجابةً لدقِّ الجرس.

ظلَّ مايكروفت صامتًا خلال رحلتنا اللَّيليَّة إلى رقم 114 شارع مونرو (وهو العنوان المسجَّل في بطاقة البروفيسور). فيما عدا سؤاله عن الأخصَّائيِّ النِّمساويِّ، وعمَّن يكون، وشرحت له بالتَّفصيل مقال "ذي لانست" لم يردَّ سوى بهمهمةٍ، وكان تعليقه... "يبدو أنَّه يهوديٌّ".

لقد كسبت حليفًا قويًّا، فها هو مايكروفت - أو عقل مايكروفت - ينضمُّ إليَّ في تلك المعركة، وأدَّى هذا إلى رفع روحي المعنويَّة كثيرًا، وكنتُ على وشك السُّؤال عن البروفيسور موريارتي والمأساة الَّتي أشار إليها، ولكن حبست لساني، فقد كان من الواضح أنَّ مايكروفت مشغول البال بالمصيبة الَّتي حلَّتْ بأخيه، وكان هناك شيء في طبعهما يحول بين المرء وبين الاقتراب، الحميم، حتَّى ولو كان صديقًا، ولم أكن بالتَّأكيد على علاقة حميمة بمايكروفت.

وتحوَّلت إلى التَّفكير في مسألة كيف يمكن أن نغري البروفيسور موريارتي ليوافق على طلبنا الغريب، ولن نستطيع بالتَّأكيد أن نغري هذا المعلِّم الخانع أن يتخلَّى عن وظيفته، ويسافر إلى القارَّة الأوروبيَّة في التَّوِّ، بالتَّأكيد سوف يتأبَّى متحرِّجًا، والأسوأ من ذلك قد يبكي،

وتحوَّلت إلى رفيقي، أريد تبادل هذه الأفكار المتشائمة معه، ولكنَّه كان يشرئبُّ بعنقه خارج النَّافذة.

"توقَّف هنا أيُّها الحوذيُّ" مع أنَّنا كنَّا لا نزال على مسافةٍ بعيدةٍ بعض الشَّيء من غايتنا.

ووضَّح لي مايكروفت الأمر وهو يدفع جسمه خارجًا من المركبة: "إذا لم يكن البروفيسور قد بالغ فيما قاله لنا، فيجب أن نأخذ حذرنا... من الضَّروريِّ أن نتحدَّث معه، ولكن ماذا لو انكشف أمر هذه الزِّيارة لشرلوك، ونجده في هذه الليلة بالذَّات واقفًا يترصَّد المنزل؟".

وهززتُ رأسي موافقًا، وأخبرت السَّائق أن ينتظرنا في نفس المكان مهما طال الوقت، ودسست شلنًا في يده؛ لأتأكَّد من أنَّه سينفِّذ الأمر، ووعدته بشلن آخر عندما نعود، وانطلقنا أنا ومايكروفت بهدوء عبر الشَّوارع الخالية إلى مسكن البروفيسور.

في ضاحية غير متميِّزة، وتتكوَّن من مساكن ذات طابقين، واجهاتها مزيَّنة بالجصِّ، وحدائق صغيرة لم تنلها يد التَّشذيب، وقرب نهاية الشَّارع رأيت دخانًا أبيض يتصاعد في ظلام اللَّيل، وأطبقت بيدي على كمِّ سترة زميلي، فألقى ببصره إلى النَّاحية الَّتي أشرت إليها وهزَّ رأسه، وتسلَّلنا معًا إلى ظلال أقرب مسكن لنا.

هناك وتحت المصباح الوحيد في الشَّارع كان شرلوك هولمز واقفًا يدخِّن الغليون. وسرنا على حذر ملتصقين بالجدران، وانكمشنا في موقعنا؛ إذْ أدركنا بسرعة أنَّ الموقف كان صعبًا للغاية، فطالما ظلَّ هولمز مزروعًا أمام مدخل منزل البروفيسور، فليس أمامنا أمل في الوصول إليه دون أن يلاحظنا إلَّا إذا شتَّتنا انتباهه، أمَّا كيف يتمُّ التَّشتيت، فلم تكن لدى أيٍّ منَّا أيّ فكرة. وتبادلنا المشورة بصوت هامس، فناقشنا احتمال التَّراجع إلى الشَّارع الواقع خلف المنزل، والدُّخول من الباب الخلفيِّ، ولكن ظهرت عدَّة عقبات تحول دون تحقيق هذه المخادعة،

فسوف يكون هناك بالتَّأكيد سياج يجب تسلُّقه، ولم يكن مايكروفت، كما هو واضح، قادرًا على مثل هذه الألاعيب الَّتي قد أقدر أنا عليها، وحتَّى لو تخطَّينا تلك العقبة، وتمكنَّا أيضًا من أن نحدِّد المنزل بدقَّة في الظَّلام، فستظلّ هناك عقبة الباب الخلفيِّ المغلق، وما سيتلو فتحه من ضجيج لا شكَّ أنَّه سيجذب انتباه هولمز.

وعلى حين غِرَّة، انحلَّت المشكلة؛ إذْ عندما ألقيتُ ببصري على صديقنا الواقف تحت الضَّوء الأصفر للمصباح رأيته ينفض رماد غليونه بكعب حذائه، ويسير متهاديًا إلى الطَّرف الآخر من الطَّريق.

وهمست بصوتٍ خافتٍ: "أنَّه يرحل".

وتمتم مايكروفت: "فلنأمل أنَّه لا ينوي العودة مرَّة أخرى ليتابع رقابته". ونهض وهو يلتقط أنفاسه محاولًا أن ينفض التُّراب عن ركبتيه إلَّا إنَّ "كرشه" لم يسمح ليديه أن تصلا إليهما: "فلنسرع". قالها وقد تخلَّى عن المحاولة "يجب أن ننجز مهمَّتنا دون أدنى تأخير".

واندفع في طريق المنزل، بينما وقفت ساكنًا أراقب الشَّبح البعيدَ لصديقي وهو يبتعد في الظَّلام، وبدا لي أنَّ ظهره - ذلك الظَّهر المستقيم الضَّيّق - الَّذي جثمت عليه قبَّعته الشَّهيرة، بدا لي ذلك الظَّهر وحيدًا مستوحشًا.

"أسرع يا واطسون!" وتبعته. وكان إيقاظ أهل المنزل أسهل ممَّا توقَّعنا؛ إذْ كان البروفيسور موريارتي متيقِّظًا، بينما جفا النّوم عينيه؛ لعلمه - ولم تكن المرَّة الأولى - أنَّ هولمز يقف خلف نافذته.

ولا بدَّ أنَّه رآنا نتقدَّم نحو منزله، فقد فتح الباب قبل أن تصلَ يد مايكروفت إلى المقبض.

وهناك وقف موريارتي في لباس نومه وغطاء الرَّأس، يرتدي "روبًا" أحمر باهت اللون يحملق فينا بعينين "قصيرتي النَّظر" تملهما الرَّغبة في النّوم.

"أهذا أنت يا دكتور واطسون؟".

"نعم، ومعي مستر مايكروفت هولمز، هل تسمح لنا بالدُّخول؟".

وصاح الرَّجل في دهشة وانزعاج: "السَّيّد مايكروفت!".

وقاطعه مايكروفت بلهجة مطمئنة: "الوقت من ذهب، ونحن نرغب في مساعدتك مثلما نرغب في مساعدة أخي".

ووافق موريارتي بسرعة: "بالتَّأكيد بالتَّأكيد، تفضَّلا اتبعاني بهدوء، فإنَّ صاحبة المنزل نائمة، وكذا الخادمات، وليس من الضَّروريّ إيقاظهنَّ".

وبعد أن دخلنا، أغلق موريارتي الباب بهدوء، وأحكم الإغلاق بالمزلاج من الدَّاخل.

والتقط المصباح الَّذي كان قد وضعه على المنضدة في وسط الرّدهة، وتبعناه على الدّرج إلى داخل مسكنه، وكان أثاث المسكن، شأنه شأن "الرُّوب" مكتملًا، ولكنَّه بالٍ بعض الشَّيء.

ولمَّا رأى مايكروفت أنَّ البروفيسور على وشك إضاءة المصابيح رجاه قائلًا: "من فضلك لا تشعل الغاز؛ فقد يعود أخي، ومن المهمِّ ألَّا يلاحظ وجود أيّ تغيُّر من خلال نافذتك".

وأومأ موريارتي برأسه، وجلس مشيرًا بيديه لنا أن نجلس أيضًا.

وسألنا بصوت يائس: "ما العمل؟" فقد رأى في وجوهنا المكفهرَّة ما جعله يدرك أنَّ الأمر من الخطورة بنفس القدر الَّذي توقَّعه.

وبدأ مايكروفت الحديث قائلًا: "سنقدِّر لك صنيعك أعظم التَّقدير إذا سافرت إلى فيينا في الصَّباح".

الفصل الخامس

رحلة في الضَّباب

لا أجد من الضَّروريِّ أن أروي هنا أنواع الإغراءات الَّتي قدَّمناها في تلك الليلة إلى مدرِّس الرِّياضيَّات التَّعيس، وأنواع التَّرغيب والتَّهديد والضَّغط والوعيد الَّتي استخدمناها لنجعله يرضخ لرغباتنا، ولم يَدُرْ بخلدي أنَّ مايكروفت هولمز يمتلك مثل تلك البلاغة الَّتي استخدمها في ذلك الموقف الغريب.

واحتجَّ موريارتي في البداية وهو يطلق نظرات فزعة تنتقل من أحدنا إلى الآخر، بينما بدت عيناه الزَّرقاوان باهتتين في ضوء المصباح الوحيد الخافت، ولكنَّ مايكروفت استطاع إقناعه، ولم أكن أدري حينذاك أيَّ سلطان ونفوذ يمتلكه ذلك العملاق الضَّخم على ذلك الكيان الضَّئيل.

لقد كان يبجِّل مايكروفت، وفي النِّهاية بعد أن وعدناه بدفع تكاليف الرِّحلة، وافق أخيرًا بعد أن كرَّر تذكيرنا بالاعتذارات والتَّفسيرات الَّتي

سنقدِّمها إلى ناظر المدرسة بحيث لا يفقد منصبه في مدرسة "رويلت" خلال غيابه.

وما أن وصلنا إلى اتِّفاق، حيث ذهبت إلى النَّافذة محتميًا بالسَّتائر، ونظرت إلى الشَّارع، فلم أبصر هولمز، وأشرت إلى أخيه، وخرجنا كما دخلنا، ثمَّ صعدنا إلى العربة الَّتي كانت لا تزال في انتظارنا.

وفي رحلة العودة قاومتُ الإغراء الشَّديد لأستفسر من مايكروفت عن ماضي عائلة هولمز، بل وقد زاد الإغراء عن ذي قبل لاكتشاف السِّرِّ، فقد بدا واضحًا لي أنَّ البروفيسور قد استسلم لطلب مايكروفت البالغ الغرابة؛ بسبب "ذلَّة" يمسكها عليه، ويبدو أنَّ هذه الذِّلَّة من القوَّة بمكان بحيث إنَّه لم تكن هناك حاجة لذكرها، وعندما استرجعت المناقشة الَّتي دارتْ، وجدت أنَّها سارت في صالحي أكثر ممَّا كانت في صالحهم؛ إذْ كانت النَّتيجة معروفة سلفًا منذ البداية.

وقاومتُ الإغراء بالفعل، ولم تكن المقاومة صعبة كما قد يظنّ؛ إذْ إنَّني استغرقتُ في النّوم، ولم أفق منه حتَّى وقفت المركبة أمام بابي، ولكزني مايكروفت، وتبادلنا تحيَّة المساء، وقال مايكروفت: "الأمر في يد شرلوك الآن" أجبته وأنا أتثاءب رغمًا عنِّي: "أرجو ألَّا نكون قد صعَّبنا عليه الأمر أكثر ممَّا يجب".

ومن داخل العربة ضحك مايكروفت وقال: "لا أظنُّ ذلك، فممَّا قلته يبدو أنَّه ما زال حادَّ الذِّهن كما كان دومًا، كلّ ما في الأمر أنَّ التَّركيز قد انحرف عن مساره، وموريارتي هو بغيته، وسيجد طريقه إليه، وأعتقد أنَّنا لا يجب أن نشغل بالنا بذلك. أمَّا بقيَّة المسألة، فهي في يد صديقك الطَّبيب، وعمت مساءً يا واطسون"، وانتهى حديثه وطرق سقف العربة بعصاه، فانطلقت في غمار الضَّباب الَّذي أخذ في التَّكاثف قرب سطح الأرض.

ولا بـدَّ أنَّنـي وجـدت طريقـي بشـكل مـا إلى سريـري، ولم أفـق مـن نومـي إلَّا وزوجتـي تقـف عـلى رأسي تتفحَّـص وجهـي بقلـق:

"هـل أنـت بخـير يـا عزيـزي؟" ووضعـتْ يـدًا حانيـة عـلى جبهتـي، كـما لـو كانـت تظـنُّ أنَّ بي شـيئًا مـن الحمَّـى. وأجبتهـا بأنَّنـي في خـير وعافيـة، لكنَّنـي مجهـدٌ فحسـب، وجلسـت في سريـري.

وصحـت في دهشـة عندمـا رأيـت خلفهـا صينيَّـة مغطَّـاة موضوعـة عـلى الكـرسيِّ بجانـب البـاب: "هـل سـأتناول طعـام الفطـور في السَّريـر، قلـت لـكِ إنَّنـي بخـير".

"تخبرني ظنوني أنَّه لديك الوقت بالكاد لتناوله".

قالت ذلك دون حماس وهي تضع الصِّينيَّة أمامي.

وكنـت عـلى وشـك أن أسـألها مـاذا تعنـي بهـذا الـكلام عندمـا رأيـت مظروفًـا أصفـر اللَّـون بجانـب إنـاء السُّـكَّر. ونظـرت متحـيِّرًا إلى زوجتـي الَّتـي شـجَّعتني بنظراتهـا الجريئـة، ففضضـت المظـروف.

"هـل تسـتطيع التَّغيُّـب عـن عيادتـك لعـدَّة أيَّـام؟ لقـد قاربـت اللُّعبـة نهايتهـا، وسـتكون معاونتـك لا تُقَـدَّر بثمـن، أحـضر تـوبي إلى رقـم 114 شـارع مونـرو بهامـر سـميت، خـذ حـذرك. هولمـز".

توبي... ونظرت إلى زوجتي، فقالت بهدوء: "لقد بدأت".

"نعـم، نعـم". وحاولـت أن أخفـي نـبرة الحـماس في صـوتي. لقـد بـدأت المطـاردة. أمَّـا نتيجتهـا، فالزَّمـن وحـده هـو الكفيـل بهـا.

وتجهَّـزت للخـروج، بينـما جهَّـزت زوجتـي الحقيبـة، إلَّا أنِّي غافلتهـا، ودسسـت مسـدَّسي القديـم فيهـا.

لقـد كان هـذا هـو مـا عنـاه هولمـز بقولـه "خـذ حـذرك" ورغـم أنَّنـي كنـت أعلـم أنَّنـي لـن أحتـاج إليـه، فلـم يكـن مـن الحكمـة أن أدع هولمـز يظـنُّ أنَّنـي تجاهلـت تعليماتـه، كـما لم يكـن مـن الحكمـة أيضًـا أن

أكشف لزوجتي أنَّني قد نفَّذت تلك التَّعليمات. وقبَّلتها قبل الرَّحيل، وذكَّرتها بأن تطلب من كولينجوورث العناية بمرضاي.

كان الطَّريق لا يبين من الضَّباب الكثيف الَّذي كان قد ارتفعَ وأحاط بي من كافَّة الجهات، ولم يكن هناك داعٍ لقياس مدى كثافته؛ إذْ كان لا يمكن اختراقه، وكان كلّ ما حولي حوائط من الدُّخان الأصفر الكبريتيِّ اللَّامع للعين والمؤذي للرِّئتين، وتحوَّلتْ لندن خلال عدَّة ساعات إلى عالم زاحف كأنَّه الحلم، حيث يحلُّ الصّوت محلَّ الرُّؤية.

وكانت أصوات حوافر الخيل تصل إلى مسامعي من كافَّة الجوانب وهي تدقُّ مربَّعات بلاط الشَّارع، وأصوات الباعة المتجوِّلين، وهم يصيحون على بضاعتهم أمام المباني غير المرئيَّة، ومن أعماق الضَّباب تناهت إلى سمعي أنغام غريبة صادرة من أرغن يعزف لحنًا نشازًا لأغنية معروفة؛ ما أضاف إلى غرابة الجوِّ.

كنت أحاول شقَّ طريقي إلى النَّاصية مستخدمًا عصاي؛ لأتحسَّس بها الطَّريق، ولا أرى النَّاس إلَّا في اللحظة الَّتي يجب أن أتحاشى فيها الاصطدام بهم، وكنت بالكاد قادرًا على تمييز النِّقاط المضيئة في هذا الجوِّ السَّائد من البخار الأصفر. وإذا كان المرء غريبًا، فلربَّما استغرق منه الأمر بضع دقائق ليعرفَ أنَّ هذه الأضواء هي مصابيح الشَّارع، تُرِكَتْ لتضيءَ في النَّهار لمصلحة السَّابلة. أمَّا أنا فقد عرفتها توًّا بالطَّبع.

ورغم خبرتي الطَّويلة، كان الضَّباب في ذلك اليوم يتَّخذ أبعادًا هائلة، وعندما عثرت أخيرًا على مركبة استطاعت شقّ طريقها بصعوبة وبطء في اتِّجاه رقم (3) حارة بينشيني في لامبت، وكنت أتطلَّع من النَّافذة في هذا الفراغ المصفرِّ، وألمح بين الحين والآخر بعض العلامات المميّزة الَّتي أكَّدت لي أنَّنا نسير في الاتِّجاه الصَّحيح، ميدان هانوفر، ثمَّ ميدان جروزفنر، ثمَّ هوايت هول، وست مينستر وأخيرًا جسر وست منستر،

مررت بها كلّها وهي غارقة في الضَّباب، وأنا في طريقي إلى تلك الحارة المنفِّرة، حيث كان يقطن مستر شيرمان، مربِّي الحيوانات، والَّذي كثيرًا ما قدَّمَ كلبه المتميّز "توبي" مساعدات لهولمز خلال تحقيقاته.

ولو كان "توبي" يمتلك شجرة نسب، فربَّما اعتبره البعض من نوع "بلودهاوند"، ولكنَّه لمَّا لم يكن يمتلكها، فقد كان من المستحيل معرفة أصله - ولم يكن "مستر شيرمان" يعرف كذلك عندما سألته عن الأمر - وكان تخمينه أنَّ هذا الكلب نصف "سبانييل" ونصف "لارشيل" (وكلّها أسماء لأصناف من الكلاب - المترجم). لقد كان لونه الَّذي يجمع بين البنِّيِّ والأبيض، وأذناه المتهدِّلتان، ومشيته المتأرجحة كافية لتثير الخلط في ذهني فيما يتعلَّق بأجداده.

وقد انتابه خلال فترة من حياته مرض أزال كمّيَّة من شعره، وكانت النَّتيجة أن أصبح مظهره منفِّرًا بدرجة ما، ومع ذلك فقد كان "توبي" حيوانًا ودودًا ومحبًّا، ولم يكن لديه من الأسباب ما يجعله يحسُّ بالدُّونيَّة بالنِّسبة لبقيَّة الكلاب مهما بلغت رفعة محتدِّهم، لقد كانت أنفه هي نسبه. وعلى قدر ما أعرف، فإنَّه لم يكن يوجد له مثيل فيما يتعلَّق بحاسَّة الشَّمِّ، ولعلَّ القرَّاء يتذكَّرون قدرات "توبي" الخارقة، والَّتي حكيت عنها في "علامة الأربعة" والَّتي كان فيها المسؤول الفعليّ عن اكتشاف الشِّرِّير جوناثان صمول وزميله المرعب. فقد تتبَّع أثرها خلال نصف لندن تقريبًا من خلال قطعة من القطران التصقت بالقدم الحافية لذلك الرَّجل المرعب، صحيح أنَّه قادنا إلى طريق مسدود عندما وصلَ إلى برميل من القطران، ولكن كان السَّبب في ذلك أنَّ المطارِدَين قد مرَّا بذلك البرميل، ولا يمكن أن نلوم الكلب على خلطه بين رائحتين متطابقتين، ولكن لما قدناه - هولمز وأنا - مرَّة أخرى ليراجع خطأه أدركه فورًا، وانطلق في الاتِّجاه الصَّحيح حتَّى حصلنا على النَّتيجة الَّتي أشرت إليها.

ولن يستطيع عقلي مهما حلَّق في سماء الخيال أن يخمِّن أيَّ آفاق من العبقريَّة يمكن أن يصل إليها "توبي".

وأخيرًا، أدركت من أصوات الحيوانات وضجيجها أنَّنا قد وصلنا. وأخبرتُ السَّائق أن ينتظر، ولم ينفر من ذلك، ونظرت حولي حتَّى أتعرَّف على صفِّ المنازل البائسة الَّتي كنتُ أعلم أنَّها تطلُّ على جانبي الحارة، ولكنَّها اختفت في الضَّباب، ولم يقدني إلى باب شيرمان سوى أصوات الحيوانات.

ولقد قابلت شيرمان عدَّة مرَّات عندما كانت أعمال هولمز تستدعي أن أذهب لطلب توبي، وفي المرَّة الأولى هدَّدني بحيَّة يمسكها في يده، ولكن كان ذلك قبل أن يدرك أنَّني صديق لمستر هولمز، وعندما علم بذلك فتح الباب على مصراعيه، وأصبح يرحِّب بي منذ ذلك الحين.

ولقد فسَّر لي العداء الَّذي قابلني به؛ أنَّه كان دائمًا محطّ معاكسة الأطفال في الحيِّ، وقد مضى اليوم أكثر من عام منذ أن زرته آخر مرَّة، وفي تلك المرَّة الأخيرة كان هولمز يبغي استخدام توبي حتَّى يقتفي أثر غوريلَّا ضخمة - من نوع "الأورانج - أوتان" في أنفاق مجاري مارسيليا، وقد كانت تلك القضيَّة، رغم أنَّني لم أُسجِّلها، لا تخلو ممَّا كان يشير إليه هولمز بقوله "نواحٍ مثيرة" وكما أتذكَّر فإنَّ الحكومة البولنديَّة كافأته على خدماته بأن أهدته وسام "سان أستانيسلاوس" من الدَّرجة الثَّانية[1].

(1) من المؤسف أنَّ واطسون لم يسجِّل تلك القضيَّة، وكما نرى فإنَّ مكافأة الحكومة البولنديَّة لهولمز لتتبُّعه أثر الأورانج أوتان خلال مجاري مارسيليا، يجعل هذه القضيَّة تنضمُّ إلى حالات أخرى لم يعتبرها واطسون جديرة بالنَّشر، ونستطيع أن نستنتج من إهدائه هذا الوسام أنَّ القضيَّة تمَّ حلُّها بنجاح، ولكن إلى أيَّة درجة من النَّجاح؟ الله أعلم؛ إذْ لو كان هولمز قد نجح فيها تمامًا، ألم يكن من الجدير بالحكومة البولنديَّة أن تهديه الدَّرجة الأولى من ذلك الوسام؟ "نيكولاس ماير".

وبعد الطَّرق الطَّويل والصِّياح من الدَّاخل فتح الباب في نهاية الأمر.

"والآن يا أولاد..." ورمقتني العيون الضَّيِّقة لمربِّي الحيوانات، وهو يحاول استشفاف مَن أنا من فوق زجاج نظَّارته: "أهذا أنت يا دكتور واطسون؟ أرجو المعذرة، تفضَّل، لقد ظننت أنَّهم هؤلاء الأولاد الخبثاء يحاولون خداعي في هذا الضَّباب اللعين. ولكن كيف وجدت طريقك إلى هنا؟ تفضَّل".

كان يحمل في يديه قردًا، واضطررت في طريقي إلى الدُّخول أن أخطو فوق حيوان الغرِّير الَّذي كنت أعلم أنَّه منزوع الأسنان. وران على حديقة الحيوان تلك صمت مفاجئ، كما لو كنت قد ألقيتُ عليهم سحرًا، وفيما عدا الهديل الخافت لزوج من الحمام الرَّماديِّ يتربَّع فوق الرَّفِّ وصوت خنزير يصيح من الدَّاخل، غرق المنزل في سكون مفاجئ، وفي ظلِّ ذلك الصَّمت كنت أسمع أمواج نهر التِّيمز وهي ترتطم بأساسات المنزل، ومن خارج النَّافذة، كانت تتناهى إلى أذني صيحات طيور النّورس، وهي تحوم بلا هدف في الضَّباب.

وأزاح شيرمان بلطف قطًّا عجوزًا ذا عين واحدة من على الكرسيِّ الهزَّاز، ودعاني إلى الجلوس، ورغم أنَّني لم أكن أنوي البقاء طويلًا، فقد جلست. إذْ بدا في هيئة الرَّجل ما يوحي بأنَّه يشتاق إلى الصُّحبة الإنسانيَّة، وكرهت أن أدخل، ثمَّ اندفع خارجًا بسرعة، رغم معرفتي أنَّ أيّ تأخير، بالإضافة إلى مصاعب الرِّحلة الَّتي سأقطعها إلى هامر سميث، قد يؤثِّر على قدرة توبي في القيام بمهمَّته بكفاءة. وسألني:

"أنت تريد توبي يا دكتور؟".

قالها وهو يفكُّ ذراع القرد المحيطة بعنقه، ووضع الحيوان على قمَّة قفص للطّيور مغطًّى: "دقيقة واحدة وسأحضره لك، هل لديك وقت لقدح من الشَّاي؟".

- "أخشى ألّا يكون لديَّ وقت لذلك".

- "هذا ما ظننته" وندَّت عنه آهه، وخرج من باب جانبيٍّ إلى مرابض الكلاب. وبيَّنت لي أصوات النّباح والهرير الصَّادرة من ذلك الاتِّجاه أنَّ كلابه كانت فرحة لرؤيته، وميَّزت صوت توبي من بينها.

وعاد شيرمان لتوِّه بصحبة الكلب تاركًا البقيَّة تنبح في أسى؛ إذْ لابدَّ أنَّ وجوده قد أثار فيهم الرَّغبة في الخروج من الأقفاص، وعرفني توبي، وهجم وهو يجذب السِّلسلة، ويهزُّ ذيله بقوَّة وطيبة، واستجبت بأن أعطيته كتلة من السُّكَّر أحضرتها لهذه الغاية، وهي الطَّقس المعتاد في لقاءاتنا، وعرضت على شيرمان كالعادة أن أدفع له مقدَّمًا، ولكنَّه وفقًا لطريقته الخاصَّة في التَّعامل - على الأقلِّ فيما يتعلَّق بشرلوك هولمز - رفض قبول شيء.

- "فلتحتفظ به طالما أنت في حاجة إليه" - وقادني مصرًّا على موقفه إلى الباب مزيحًا برجله دجاجة من الطَّريق، وقال: "سنسوِّي هذا الأمر فيما بعد. مع السَّلامة يا توبي، أيّها الكلب الظَّريف، بلِّغ تحيَّاتي إلى مستر شرلوك"، وانطلقنا أنا وتوبي في اتِّجاه العربة.

وصحت به وأنا أنصرف أنَّني سأبلِّغ رسالته إلى شرلوك، وأخذت أصيح على السَّائق الَّذي بادلني الصِّياح حتَّى يدلّني على المكان الَّذي وقف فيه، وركبت، وأخبرته بالعنوان الَّذي كتبه هولمز في برقيَّته - والَّذي كنت قد زرته في الليلة الماضية - واندمجنا في ذلك الطَّابور الطَّويل من المرور الَّذي يسير على غير هدف يتحسَّس طريقه خلال شوارع لندن.

وأعدنا اكتشاف جسر وستمينستر، وعبرناه بعد أن أفلتنا بالكاد من الصِّدام مع مركبة أخرى، وتوجَّهنا غربًا نحو هامر سميث، وكانت العلامة الوحيدة الَّتي لا تكاد تبدو خلال الطَّريق هي محطَّة شارع جلوسستر.

وبعد أن تحوَّلنا إلى شارع مونرو الَّذي كان خاليًا، وتوجَّهنا إلى الضَّوء الخافت للمصباح الوحيد في الشَّارع وتوقَّفنا.

- "لقد وصلنا" صاح السَّائق، وهو يتنفَّس الصُّعداء ومندهشًا في نفس الوقت، وترجَّلت؛ لأستكشف المكان باحثًا عن أيِّ أثر لهولمز، وكان المكان موحشًا، صامتًا، وتردَّد صدى صوتي وأنا أنادي اسمه كما لو كان يصطدم بحائط الضَّباب.

وقفتُ لحظة متحيِّرًا، وكنتُ على وشك أن أتَّخذ طريقي إلى منزل البروفيسور - الَّذي أعلم أنَّه يقع في مكان ما خلفي - عندما سمعت دقَّات... تك... تك تك... على الرَّصيف في مكانٍ ما على يميني، فصحتُ:

- "مَن هناك؟"... لا إجابة، وإنَّما استمرَّت دقَّات العصا على الرَّصيف بنغماتها شبه المنتظمة. واستجاب توبي مثلما فعلت، وأطلق صوتًا مكتومًا ينمُّ عن الارتياح.

واستمرَّ الطَّرق مقتربًا.

وعاودت الكلام: "هالو... مَن هناك؟".

وانطلق صوتٌ حادٌّ يغنِّي من خلال الضَّباب أغنية شعبيَّة معروفة، ووقفت متجمِّدًا بلا حراك، بينما اقترب المغنِّي والغناء منِّي، وشعر رأسي يكاد يقف من الخوف، فها أنا أقف في شارع مهجور يغمره الضَّباب خارج حدود الزَّمان والعقل، بينما يتجاهل ذلك المغنِّي المجهول وصوته الأجشّ تساؤلاتي، وأخيرًا وببطء، ظَهَرَ المنشِد، رثّ الهيئة يترنَّح في مشيته، وقد أضفى عليه مصباح الشَّارع هالة من

الضّوء، وكان يرتدي صدارًا وأكمامًا من الجلد القديم وحذاءً متهالكًا لا يمسكه إلّا رباطه، وتدلّت خصلات خفيفة على جانبي وجهه، وعلى رأسه قبّعة من الجلد قد أدار حافّتها إلى الخلف، وكانت كلّ هذه الأشياء تشير إلى أنّه كانت له علاقة بصناعة الفحم، وأقول كانت لأنّه كان يُخْفِي عينيه بالنّظّارة السّوداء الخاصّة بالعميان.

وظللتُ أحملق مفزوعًا، بينما أخذ هذا الشّبح يدنو منّي حتّى انتهى من أغنيته، وساد الصّمت كأنّه معلّق في الهواء، صاح فجأة:

- "حسنة... حسنة إلى الأعمى"، وانحنى وقد مدّ قبّعته إليّ، وأخذتُ أفتّش جيوبي بحثًا عن نقود:
- "لماذا لم ترد عليّ عندما ناديتك؟" سألته وأنا ضيّق الصّدر؛ إذْ شعرت بالخجل من تلك الفكرة الّتي راودتني، وهي أن أستخرجَ مسدّسي من الحقيبة الموضوعة في أرضيّة العربة، وزادَ من ضيقي ما أدركته من أنّني كنتُ سأبدو في غاية الحماقة أمام هذا المغنّي الأعمى الّذي لا يمثّل أيّ خطر بالنّسبة لي، وبالتّأكيد لا يحمل لي أيّة ضغينة.

فأجاب: "لم أرد أن أقطع الأغنية"، وكانت لكنته قريبة من الأيرلنديّة "لا يدفع لي أحد عندما أتوقّف عن الغناء" وهزّ قبّعته، فألقيت فيها بعض البنسات "أشكرك يا سيّدي".

- "ولكن بحقّ السّماء أيُّها الرّجل لمن تقدّم بضاعتك في هذه الظُّروف؟".
- "أيّ ظروف يا سيّدي؟".
- "هذا الضّباب اللعين الّذي لا تستطيع أن ترى فيه رأسك من قدمك"، وتوقّفت فجأة متذكّرًا عجزه، وأطلق المنشد زفرة حارّة.

- "آه، هـذا هـو السَّـبب إذن. لقـد تعجَّبـت، فـكلُّ شيءٍ يبـدو غريبًـا اليـوم؛ إذْ لا أصـدِّق أنَّنـي جمعـت شـلنًا واحـدًا هـذا الصَّبـاح، هـو الضَّبـاب إذن؟ هـذا هـو السَّـبب القاطـع في أنَّنـي لم أتلـقَّ شـلنًا واحـدًا اليـوم".

وأطلـق تنهيـدة أخـرى، وبـدا كمـن يتلفَّـت حولـه. الأمـر الَّـذي أفزعني، خاصَّـة أنَّـه ضرير.

فسألته: "هل تحتاج أيّ مساعدة؟".

- "كلَّا كلَّا يـا سـيّدي. بـارك اللـه فيـك؛ لهـذا العـرض، ولكنّـي لا أحتـاج، فالأمـر سـيَّان بالنِّسـبة لي... الأمـر سـيَّان بالنِّسـبة لي... أشـكرك يـا سـعادة المحافـظ".

ومـدَّ يـده داخـل قبَّعتـه، والتقـط النُّقـود منهـا، ووضعهـا في جيبـه، وودَّعتـه، بينـما انطلـق مسـتخدمًا عصـاه ليتحسَّـس طريقـه، لا يختلـف عـن أيّ شـخص عـاديٍّ في مثـل هـذا الضَّبـاب اللعـين، فيـما عـدا أنَّـه بـدأ يغنِّـي مـرَّة أخـرى، وصوتـه يخفـت شـيئًا فشـيئًا كلَّـما ابتعـد عـن ناظـري، وابتلعتـه طيَّـات الدُّخـان.

وتلفَّتُ حولي وصحتُ مرَّة أخرى: "يا هولمز".

"لا داعـي للصِّيـاح يـا واطسـون، أنـا هنـا" سـمعت صوتًـا مألوفًـا خلفي، ودرت بحركـة سريعـةٍ لأجـد نفـسي وجهًـا لوجـه مـع المغنِّـي الأعمى.

الفصل السَّادس

توبي يتفوَّق على نفسه

- "هولمز!".

ضحك، ونزع الشَّعر المستعار عن رأسه، والحاجبين عن وجهه، وكذلك الشَّامات الَّتي كانت على ذقن المغنِّي، ثمَّ نزع النَّظَّارة السَّوداء، وبدلًا من عيون المغنِّي الخامدة، فرح قلبي لرؤية عيون هولمز اللامعة الَّتي تبدو فيها سخرية صامتة.

- "سامحني يا صديقي العزيز، فأنت تعلم أنَّني لا أستطيع مقاومة اللمسة الدِّراميَّة، وكان الموقف مكتملًا بحيث لم أستطع مقاومة الإغراء".

واستغرق منِّي الأمر بعضَ الوقت لأهدِّئ من روع سائق المركبة الَّذي تركه الموقف مشدوهًا، ونجح هولمز أخيرًا في تهدئته.

وسألته: "ولكن لماذا التَّنكُّر؟"، بينما انحنى هو يربِّت على الكلب الَّذي اقترب منه، يهزُّ ذيله في سعادة، ويلعق الطِّلاء عن خدَّيه، ونظر إليَّ نظرة حادَّة:

"لقد فرَّ يا واطسون".

"فرَّ؟ مَن الَّذي فرَّ".

"البروفيسور". ونهض هولمز وهو يتحدَّث بغيظ: "ها هو منزله يقبع خلفك في الضَّباب. لقد كنت أراقب بنفسي مسكنه الليلة الماضية. "وكنت عادة أكلِّف ويجينز بذلك"[1]. وكان كلّ شيءٍ يسير كالمعتاد حتَّى منتصف الليل، وكان الجوُّ رطبًا وثقيلًا، فذهبت إلى الحانة في نهاية الشَّارع لاحتساء بعض البراندي طلبًا للدِّفء، وخلال هذه الفترة أتى رجلان لرؤيته، وليست لديَّ وسيلة لمعرفة ما قالاه، ولكنّي لا أشكُّ لحظة أنَّهما كانا جاسوسين يعملان لحسابه. وقد أتيا ليخبراه بأنَّني قد أحكمت الخناق حوله، وعندما رجعت، كانا قد ذهبا، وكان كلُّ شيء كما تركته، وفي هذا الصَّباح في الحادية عشرة، تلقَّيت برقية من ويجينز. لقد رَحَلَ البروفيسور فيما بين الوقت الَّذي رحلت فيه، وحلَّ ويجينز محلِّي. أمَّا كيف وإلى أين؟ فهذا هو ما نحن بصدد اكتشافه. ولقد حضرت كما رأيتني لئلَّا يكونا قد أعدَّا كمينًا لي".

أصغيتُ إليه محاولًا رسم تعبير سلبيٍّ على وجهي وطرح الأسئلة المناسبة:

- "أقلت رجلان؟".

---

(1) وهو أحد أبناء الشَّوارع، وعمل لفترة ما من الفترات قائدًا لعصابة تُعَدّ فصيلة الاستخبارات الرَّسميَّة لهولمز "المتردِّدون على شارع بيكر" (نيكولاس ماير).

- "نعم، كان أحدهما طويلًا ثقيل الوزن، لا أقلَّ من مئتي رطل تقريبًا - فهذه الأرض الرّطبة مفيدة جدًّا في تسجيل ما ينطبع عليهما - وكان ينتعل حذاءً عاليَ الرَّقبة منبعجًا عند الإبهام، وكعبًا مربَّعًا متآكلًا من الدَّاخل، مثل هؤلاء الرِّجال ضخام الحجم غالبًا ما يقفون وقد تفرطح الإبهام لديهم، وهذا يفسِّر شكل الحذاء، كما كان شخصًا حاسمًا، وأعتقد أنَّه كان القائد بين الاثنين.

- "والآخر؟" سألته وأنا أحاول أن أمنع نفسي مع ابتلاع ريقي "آه... الآخر" تنهَّد هولمز، وهو يجول ببصره في السُّكون: "هناك ملامح مثيرة للاهتمام بشأنه، لقد كان أقصر قليلًا، ولا يكاد يبلغ وزنه نصف وزن زميله، ويبلغ طوله أقلَّ من ستَّة أقدام، كما أنَّ برجله اليسرى عَرَجًا خفيفًا يكاد يشبه مشيتك يا واطسون. وكان متأخِّرًا عن زميله؛ ممَّا دعا الآخر إلى استدعائه عندما اقتربَ من المنزل، ويتَّضح هذا من واقع أنَّ آثار إبهام القدم فقط هي الواضحة عندما ذهب في هذا الاتِّجاه.

لقد كان يمدُّ الخُطى، يدلُّ على ذلك ازدياد اتِّساع خطوته، ولم يكن يتسلَّل؛ حيث إنَّ ذلك لم يخطر على بال زميله، لقد جاءا مباشرة لرؤية البروفيسور وانصرفا، وكنتُ أستطيع أن أخبرك بالمزيد عنهم لولا هذا الضَّباب اللعين الَّذي منعني من رؤية الصُّورة الكاملة لما قاما به، ولحسن الحظِّ، لقد أخذت من الاحتياطات ما يمكِّننا من القبض عليهما إذا لزم الأمر. فكما تعلم، ليس من عادتي اصطياد السَّمك الصَّغير، بينما السَّمك الكبير مطلق السَّراح... وصاح فجأة: "احذرْ مسحوق الفانيليا"... وجذبني إلى الخلف بعد أنْ خطوت خطوة أو خطوتين في اتِّجاه المنزل، وتشبَّث بي حتَّى لا يفقد توازنه. لقد تأكَّد لي

الآن أنَّه مجنون تمامًا، ولا رجاء فيه، قلت له بأقصى درجة استطعتها من الهدوء: "مسحوق الفانيليا!".

- "لا تنزعج يا صديقي العزيز، فأنا لم أفقد عقلي - وضحك وهو يغلق أطراف سترته - ألم أقل لك أنَّني قد اتَّخذت من الاحتياطات ما يمكِّنني من اقتفاء أثر أيٍّ من هؤلاء الرِّجال أو كلّهم. ادفع للسَّائق، وسأشرح لك".

وبمزيدٍ من الانزعاج، جرجرت أذيالي إلى العربة، وأخذت حقيبتي ودفعت للسَّائق، وبدا عليه الارتياح للتَّخلُّص من صحبتي، فلابدَّ أنَّه قد اعتبر أنَّ أخطار الضَّباب أقلّ بكثير من مخاطر الانتظار في شارع مونرو. وخفت صوت عجلات المركبة حتَّى تلاشى، وعدت إلى حيث كان يقف صديقي منتظرًا، وأخذني من ذراعي، وأمسك مقود توبي بيده الأخرى، وقادنا نحو المنزل الَّذي كان لا يزال غير مرئيٍّ، ولكنَّني كنت قادرًا على الشُّعور بوجوده.

"انظر هنا تحت قدميك وشمّ الرَّائحة"، وانبطحت لأشمَّ حسب تعليماته، واندفعت إلى أنفي الرَّائحة النَّفَّاذة لمسحوق الفانيليا.

- "ما هذا، بحقِّ السَّماء؟".

- "إنَّه أفضل من القطران". ودعا توبي كي يشمَّ الرَّائحة، واستطرد: "إنَّه ليس لزجًا؛ ولذلك لا يحسُّ المنتعل بأنَّ هناك شيئًا ملتصقًا بنعل حذائه، وفائدته الأخرى أنَّه فريد من نوعه؛ فهو قويُّ الرَّائحة، ويظلُّ أثره لمدَّة طويلة، وأشكُّ كثيرًا أنَّ توبي سيختلط عليه الأمر - إلَّا إذا قادنا الأثر بالطَّبع إلى أحد المطابخ - هيَّا شمّه أيُّها الولد".

وشجَّع الكلب الَّذي أخذ يستنشق البقعة الكبيرة من المادَّة بجانب الرَّصيف.

- "واستطرد هولمز وهو ما زال مستمرًّا في إزالة آثار تنكُّره: "لقد رششت هذه المادَّة هنا قبل أن أغادر موقعي في الليلة الماضية. ولقد داسوا جميعًا عليها موريارتي وعميلاه وعجلات المركبة الَّتي أقلَّته منذ عدَّة ساعات".

وحمدت ربِّي أنَّني قد غيَّرت حذائي هذا الصَّباح، ونهضت على قدميَّ، وسألته: "وما العمل الآن؟".

- "الآن، سيقتفي توبي آثار عجلات المركبة، ولسوف تنتابه الحيرة عند نقطة معيَّنة، وهناك سنبحث نحن عن تلك الآثار سيرًا على الأقدام، فهل أنت مستعدّ؟".

"ألم يتأخَّر بنا الوقت؟".

"لا أظنُّ، فلا شكَّ أنَّ الضَّباب الَّذي أخَّر وصولك قد عاق أيضًا هروبه، هيَّا بنا".

ودفع توبي بعيدًا عن بقعة الفانيليا، وانطلقنا. وكانت الرَّائحة قويَّة واضحة. ورغم استحالة الرُّؤية الَّتي فرضها علينا الضَّباب مضى الكلب بخطوات ثابتة سريعة بحيث لم نستطع أن نكبح جماحه إلَّا بالكاد. واستعاد هولمز حقيبته الحمراء الَّتي يحملها فوق ظهره من السِّياج النَّباتيِّ الأخضر على الجانب الآخر من الطَّريق، وتابعنا رحلتنا في صمت نبذل جهدَنا لنتابع الكلب الَّذي كان شدَّه للمقود، وصيحات الحماس الَّتي يطلقها تدلُّنا على أنَّ أبخرة الكبريت المؤذية المنتشرة في الهواء ليس لها أيّ تأثير على حاسَّة الشَّمِّ لديه.

وبدا هولمز هادئًا ومتماسكًا، حاضر البديهة، بحيث تساءلت بيني وبين نفسي إذا ما كنت قد وقعت في خطأ فاحش، فربَّما قد خدعنا موريارتي - أنا ومايكروفت - وكان هو في الحقيقة رأس الأفعى، وطردت الفكرة عن خاطري باعتبار أن لا مكان لها في هذه اللحظة. وأسرعتُ

أحثّ الخُطى في أثر هولمز والكلب. ولقد كان لهذا الطَّقس آثار مؤلمة على جرحي، ولم أكن كقاعدة عامَّة، أمشي في مثل هذا الطَّريق، وفي لحظة معيَّنة أخرجت غليوني، ولكنَّ هولمز رفع يده محذِّرًا "يكفي الكلب ما يلاقيه من آثار الضَّباب، فلا ترهقه بمزيد من العقبات".

وهززت رأسي موافقًا، ومضينا نجوس خلال الشَّوارع الَّتي لا تكاد تُرَى، ونتفادى حركة المرور؛ لأنَّنا كنَّا مضطرين أن نسير في وسط الطَّريق متتبِّعين آثار العربة، ومررنا بمحطَّة شارع جلوستر، والَّتي كانت على يسارنا، وكنت أسمع أصوات خنازير عمياء تحاول البحث عن جرائها، واستمرَّ الكلب يشدُّنا دون أن تبدو عليه أيّ بادرة لفقدان الطَّاقة.

وقال هولمز مشيرًا إلى مسحوق الفانيليا: "قد أكتب مقالًا[1] في هذا الموضع؛ فإنَّ ميزاته لمثل هذا النَّوع من العمَّال مثاليَّة. كما ترى فها هو دليلنا لا يتردَّد لحظة، وحتى خلال الطِّين والماء يعرف طريقه". وغمغمت بكلام يُفهم منه الموافقة، وتنفَّست الصُّعداء؛ لأنّي قد غيَّرت حذائي، وإلَّا كانت تلك المادَّة قد قادت هذا الكلب النَّموذجيّ إليَّ قبل أن نسير خطوتين وتنتهي اللعبة قبل أن تبدأ.

وتابعت سيري السَّريع لمتابعة خُطى الكلب، ولم أكن أستطيع رؤية أين كنَّا، كما كانت أصوات المدينة تطنُّ في أذني ونحن نتابع بعضنا بعضًا بسرعة مدهشة، وبدأت ساقي تؤلمني، وكنت على وشك أن أقول ذلك عندما توقَّف هولمز وشدَّ طرف سترتي:

"ما الأمر؟" قلت وأنا ألهث.

"أنصت".

---

(1) وقد كتب هولمز بالفعل هذا المقال "حول تتبُّع آثار الأقدام". وهو عمل رائد في هذا الموضوع. وكان هولمز أيضًا أوَّل مَن نادى باستخدام عجينة باريس في صبِّ قوالب تلك الآثار، كما ألَّف عددًا من المقالات الَّتي طبعها على نفقته في موضوعات مشابهة "نيكولاس مايير".

وأطعت، محاولًا تخطِّي صوت نبضات قلبي، كانت هناك أصوات الخيل وصليل السُّروج، وأصوات المركبات وصفير القطارات.

وقال هولمز بهدوء: "محطَّة فيكتوريا".

وكانت بالفعل نهاية الخطّ الحديديّ العظيم كما أدركنا، وغمغم هولمز: "هذا بالضَّبط ما توقَّعته. لقد أتيت بحقيبتك معك لحسن الحظّ".

وخُيِّل إليَّ أنَّ هناك نغمة ساخرة في نبرة صوته، فذكَّرته قائلًا:

"قلت في برقيَّتك: عدَّة أيَّام".

ولم يبدُ عليه أنَّه سمع ما قلته، وإنَّما اندفعَ خلف توبي الَّذي كان يسير في خطٍّ مستقيمٍ تجاه موقف العربات، وتشمَّم الأرض حول "الموقف" الَّذي كانت تصطفُّ فيه عدَّة مركبات، وكانت تتدلَّى من رقبة كلّ جواد مخلاة تمتلئ بطعامه. وفجأة تحوَّل عنها كما لو كان يريد الخروج من المحطَّة.

"كلَّا، كلَّا، يا صديقي، لقد انتهينا من العربة يا توبي، خذنا الآن إلى حيث الرَّاكب".

وقاد توبي إلى النَّاحية الأخرى من "الموقف"، وهناك وبعد لحظة من التَّردُّد حلَّ الكلب الالتباس الَّذي طرأ، وبصيحة نشطة اندفع إلى الدَّاخل، وجاس خلال المحطَّة المزدحمة - الَّتي زاد ازدحامها بسبب التَّأخيرات النَّاتجة عن رداءة الطَّقس - متخطِّيًا جماعات الرُّكَّاب المتناثرة، الَّتي بدا عليها الضِّيق، قافزًا أحيانًا فوق معطف يعترض طريقه حتَّى وصل إلى رصيف قطار أوروبا السَّريع. وهناك توقَّف تمامًا قبالة القضبان الفارغة مثلما توقَّف جلوسستر عند حافَّة صخرته. لقد انتهت آثار الفانيليا، ونظرت إلى هولمز الَّذي ابتسم رافعًا حاجبيه.

وقال بهدوء: "هكذا إذن".

فسألته: "ما العمل الآن؟".

"دعنا نستفسر كم مضى من الوقت منذ أن سافر القطار السَّريع، ومتى يقوم القطار الَّذي يليه".

"وماذا بشأن الكلب؟".

"سنأخذه معنا بالطبع؛ إذْ لا أعتقد أنَّنا قد استنفذنا كافَّة خدماته بعد".

فيما بعد، والقطار ينطلق بنا من لندن، وهو يخترق أستار الضَّباب في الطَّريق إلى دوفر، التفت إليَّ هولمز قائلًا وهو يبتسم: "ليس توبي بالطَّبع هو الوسيلة الوحيدة الَّتي أقتفي بها أثر البروفيسور موريارتي... ثلاث وسائل على الأقلِّ تمكِّنني من ذلك، بدون خلاصة الفانيليا".

أدَّى استنشاق الهواء النَّقيّ إلى رفع معنويَّاتي، وإلى تحسُّن رئتيَّ المحتقنتين. وكان النَّهار في هذه المنطقة الجنوبيَّة الشَّرقيَّة من لندن لا يزال غائمًا ممطرًا، لكنَّ الرُّؤية ممكنة، وكان اطمئناني إلى وجود هولمز بجانبي فعلًا، وانطلاقه في الطَّريق المرسوم، يشيع الارتياح في نفسي ويعوِّضني عن متاعبي.

وراح صديقي في غفوة قلقة، واستيقظ بعد ثلاثين دقيقة منزعجًا، وهو ينظر إليَّ نظرات غريبة. ووقف فجأة، واستند إلى حاجز رفِّ العفش ليحفظ توازنه "اسمح لي يا صديقي العزيز". قالها بصوت متوتِّر، ونظر إليَّ نظرة غريبة مرَّة أخرى، ومدَّ يده إلى العفش، وجذب حقيبته القماشيَّة الحمراء. وكان هولمز في الفترة الَّتي سبقت قيام قطارنا من محطَّة فيكتوريا قد استخدم حمَّام المحطَّة ليزيل بقايا تنكُّره، ويعود إلى حالته الطَّبيعيَّة المعتادة، مستخدمًا ملابسه الموجودة في تلك الحقيبة نفسها.

وأدركت على الفور أين سيذهب، وماذا سيفعل ولماذا. وتراجعت عن أيّ اعتراض. ومهما كان الأمر، فهذا هو السَّبب فيما أفعله، في اصطحابي له إلى النِّمسا، دون أن يعلم شيئًا عن ذلك بالطَّبع. ورفع توبي رأسه من وضع النّوم الَّذي كان فيه عندما تسلَّل هولمز من أمامه خارجًا من المقصورة. فربَّت على رأسه حتَّى هدأ في مكانه.

وعاد هولمز بعد عشر دقائق تقريبًا. وأعاد الحقيبة بهدوء إلى مكانها، وجلس ساكنًا دون كلمة أو نظرة إليَّ. وتظاهر بالانشغال الشَّديد بقراءة طبعة الجيب من مقالات مونتاني. وانصرفت أنا إلى التَّطلُّع من النَّافذة إلى الحقول الَّتي تمرُّ مسرعة بي، وقد غطَّتها غلالة من النَّدى اللامع، بينما وقفت الماشية وقد أدارت ظهرها للرِّيح.

وتوقَّف القطار في ميعاده في دوفر ليلاقي العبَّارة. وترجَّلنا ثلاثتنا، وتمشَّينا قليلًا على الرَّصيف جيئةً وذهابًا حتَّى نستطيع أن نحدِّد ما إذا كان البروفيسور قد نزل من القطار السَّابق عندما توقَّف في تلك اللحظة. وكنت بالطَّبع أعلم أنَّه لم ينزل، وهي النَّتيجة الَّتي وصل إليها توبي أيضًا.

وقال هولمز ونحن نعبر القنال: "أعتقد أنَّه لمَّا كان قطارنا هذا لا يقف إلَّا في المحطَّات الَّتي تتوقَّف بها القطارات السَّريعة، فلن نفقد فرصة من فرص نزول البروفيسور من القطار".

وفي كاليه استخدم هولمز نفس الطَّريقة، ووصل إلى نفس النَّتيجة. وانطلقنا في الطَّريق إلى باريس، حيث وصلنا بعد منتصف اللَّيل. وكانت محطَّة الشَّمال (جاردي نور) شبه مهجورة في مثل تلك السَّاعة، ولم نجد صعوبة في اقتفاء آثار خلاصة الفانيليا، حتَّى وصلنا إلى رصيف قطار فيينا السَّريع.

وعبس وجه هولمز عندما رأى لافتة الرَّصيف.

- ولماذا يذهب إلى فيينا؟

فقلت: "ربَّما نزل في إحدى المحطَّات الفرعيَّة، ويبدو أنَّ هناك الكثير من الوقفات".

وأضفت: "أرجو ألَّا يكون توبي قد أخطأ".

وابتسم هولمز بعبوس: "إذا أخطأ، فسوف يكون موقفنا أسوأ بكثير من الموقف الَّذي حدث لنا عندما أخطأ، وتوجَّه إلى برميل المازوت" - أضاف - "ولكنَّني عظيم الثِّقة في خلاصة الفانيليا، ولقد أجريت عدَّة تجارب عليها - ولكن إذا اتَّضح زيفها يا واطسون، فسوف تكون هذه هي القضيَّة الَّتي ستسلِّي قرَّاءك بدلًا من الاندهاش المعتاد".

ولم أخبره أنَّ تلك القضيَّة هي الوحيدة الَّتي لن أفكِّر في كتابة وقائعها، وضحك قائلًا: "ستحلّ فيينا محلَّ نوربري في قائمة فشلي" وتوقَّف لينظر في جدول مغادرة القطارات ليرى ميعاد القطار التَّالي، والرَّصيف الَّذي يقوم منه، وكان لحسن الحظِّ هو نفس الرَّصيف. وجادلني هولمز والقطار ينهب الطَّريق عبر فرنسا في السَّاعات الَّتي تسبق الفجر "عندما لا يستطيع الكلب اقتفاء آثار الرَّائحة، فسوف يتوقَّف. ولمَّا كان لم يتوقَّفْ حتَّى الآن؛ فأعتقد أنَّ المعقول هو أنَّه لم يفقد الأثر. ولمَّا كانت الرَّائحة غير مألوفة - خارج المنزل بالتَّأكيد - فإنَّنا نستطيع أن نستنتج أيضًا أنَّه يتتبَّع نفس الرَّائحة، وليس برميلًا من الفانيليا صادفه في طريقه".

وأومأت برأسي والنّوم يعترينـي، وعيناي لا تقويان على متابعة السُّطور في الرِّواية ذات الغلاف الأصفر الَّتي اشتريتها من باريس... وسرعان ما استغرقت في النّوم.

عندما استيقظت كان الوقت ظهرًا، وعباءة هولمز تغطِّيني ورجلاي ممدودتان على المقعد. وكان صديقي يجلس قبالتي. كما تركته، يحملق في النَّافذة ويدخِّن الغليون.

وتحوَّل إليَّ بعد لحظةٍ، وسألني مبتمسًا: هل نمت جيِّدًا؟

وأجبته بأنَّني على ما يُرام فيما عدا بعض التَّصلُّب في رقبتي، وشكرته على العباءة. ثمَّ سألته متحرِّجًا عن مدى تقدُّمنا.

فقال: "توقَّفنا مرَّتين، الأولى عند الحدود السّويسريَّة، والثَّانية في جنيف لمدَّة تقارب السَّاعة، وإذا صدقنا توبي، فإنَّ موريارتي لم يغادر القطار".

وكان توبي صادقًا طبعًا. كنت متأكِّدًا من ذلك. ونهضت متوجِّهًا إلى الحمَّام، حيث حلقت ذقني، ثمَّ صحبت هولمز بعد ذلك إلى عربة الطَّعام، ونشأت مشكلة بسبب الكلب - نفس المشكلة الَّتي واجهتنا عند الحدود - وحلَّ هولمز المشكلة بأن دفع الكلب إلى أحد الفرَّاشين، وأعطاه بعض النُّقود، وطلب منه أن يجد للكلب بعض بقايا الطَّعام من المطبخ - وكانت بطبعها قليلة - ولم أعلِّق بشيءٍ. ومرَّت بنا السَّاعات، فوصلنا إلى برن بعد جنيف، ومن برن إلى زيوريخ. وفي كلِّ محطَّة كان هولمز يقوم بصحبة توبي للقيام بنفس التَّمرين. وفي كلِّ مرَّة كنَّا نخرج بنتائج سلبيَّة، نعود بعدها إلى مقصورتنا، وعلامات الحيرة مرسومة على وجوهنا. ويعيد هولمز ذكر تفسيراته المنطقيَّة، وأؤمِّن أنا عليها.

وبعد زيوريخ، وصلنا إلى الحدود الألمانيَّة، ثمَّ ميونيخ وسالزبورج، وظلَّت آثار الفانيليا مختفية، ولم نصادفها على أيّ رصيف.

وقضيت ما بعد الظَّهيرة محملقًا في نافذة المقصورة مسحورًا بمناظر الطَّبيعة الخلَّابة - والمختلفة تمامًا عمَّا عهدته في موطني - ومنازلها الصَّغيرة الَّتي تشبه منازل قصص الأساطير والجنّيَّات والأهالي بملابسهم الطَّريفة، وقبّعاتهم ذات الأطراف، وقمصانهم الفِضفاضة الزَّاهية الألوان، وستراتهم الجلديَّة القصيرة. وكان الجوُّ مشمسًا منذرًا بالدِّفء. وتعجَّبت كيف لا تسيل الثُّلوج عند قمم الجبال المتناثرة على طريقنا في مثل هذا الجوِّ المشمس. وقلتُ هذا لهولمز.

فقال وهو يميل لينظر من النّافذة إلى القمم المغطّاة باللون الأبيض: "إنّها تفعل ذلك يا واطسون، وعندئذٍ يحدث ما نسمّيه الانهيارات الجليديّة".

ولم تكن فكرة سارّة، وكان من المستحيل ألّا أفكّر فيها ما دامت قد حضرت إلى ذهني: ألا تحدث مثل تلك الانهيارات نتيجة لذبذبات الصّوت؟ ولم يكن القطار يُحْدِثُ ضوضاء مزعجة، ونحن نمرُّ بجوار تلك الثُّلوج الهشّة، وماذا يحدث إذا أدّت تلك الأصوات إلى حدوث الانهيار الّذي يدفننا؟

هذا صحيح يا واطسون... "إنّها فكرة تبعث على الخشوع والتّواضع"، ونظرت إلى رفيقي الّذي كان يزيح قشّة عن كُمّه، ولم تكن بي حاجة لسؤاله عن: كيف استشفَّ أفكاري. فقد كنتُ أرى بسهولة كيف تسلّسلت أفكاره.

- "نعم، انظر إلى هوان وضآلة أفعالنا عندما نقارنها بأفعال هي فعلًا كذلك"، واستمرَّ بنوع من الحزن: "من الممكن أن يوجد بهذا القطار اثنا عشرَ عبقريًّا، يمتلك كلٌّ منهم سرًّا هائلًا، قد يفيد البشريّة فائدةً لا حدود لها".
- "ومع ذلك، ففي لمحة بصر يأمر الخالق الذّرى بأن تنقضَّ علينا... فماذا سيكون من شأن الإنسانيّة عندئذٍ؟ هه يا واطسون... ماذا ستكون النّهاية؟".

وبدا لي أنّه في حالة من حالات الاكتئاب الّتي رأيتها تسيطر عليه فيما مضى. وبدلًا من أن أراه يدفن تحت تلك الثُّلوج الّتي تحدَّث عنها، كان يغوص في أعماق روحه، ولم يكن بيدي أيّ شيء أفعله لأحولَ دون ذلك.

فقلت بصوت منخفض: "لا شكَّ أنّه سيولد غيرهم من العباقرة".

- وهـزَّ رأسـه بشـدَّة وهـو يقـول: "يـا عزيـزي واطسـون، أنـت النُّقطـة الثَّابتـة الوحيـدة في هـذا الكـون مـن الانهيـارات الجليديَّـة".

ونظرت إليه ورأيت الدُّموع تترقرق في عينيه.

ونهـض فجـأة، وتنـاول حقيبتـه الحمـراء وخـرج، ولأوَّل مـرَّة شـكرت المخـدّر. فلسـوف يعيـد إليـه روحـه المعنويَّـة، وحتَّـى أسـتطيع تركـه في رعايـة الطَّبيـب النِّمسـاويِّ العلَّامـة، كنـت - ويـا لسـخرية الأقـدار - معتمـدًا عليـه!

وعـاد هولمـز بعـد فـترة قصـيرة. وطـرق بـاب المقصـورة رجـلٌ انجليـزيٌّ طويـل القامـة ذو شـعر أحمر، واستفسـر منَّـا في همهمة مشـتَّتة إذا لم يكن لدينـا مانـع مـن جلوسـه معنـا حتَّـى مدينـة لينـز. فقـد صعـد إلى القطـار في سـالزبورج، ولكـنَّ المقاعـد امتـلأت أثنـاء جلوسـه في عربـة الطَّعـام. وحثَّـه هولمـز عـلى الجلـوس بإشـارة لا مباليـة مـن يـده. وبـدت عليـه بعـد ذلـك الـلا مبـالاة التَّامَّـة. وأصبـح عـليَّ أنـا وحـدي القيـام بالحديـث المتقطِّـع مـع القـادم الجديـد الَّـذي كان يواصـل الحديـث معـي بعبـارات مبهمـة ذات مقطـع واحـد.

- "لقد كنت في التّيرول".

أجاب الرَّجل على سؤالي، ففتح هولمز عينيه قائلًا:

- "في التّـيرول. لا... بالتَّأكيـد، فالملصقـات عـلى حقائبـك تشـير إلى أنَّـك عائـد مـن رويتانيـا".

وامتقـع وجـه الرَّجـل الانجليـزيِّ الوسـيم، وأصبـح في لـون وجـه هولمـز نفسـه. ونهـض واقفًـا، واسـتعاد حقائبـه، وهمهـم ببعـض الاعتـذارات قائـلًا إنَّـه سـيذهب لتنـاول شراب.

وقلت بعد رحيله: "يا لسوء الحظّ، كنت أحبّ أن أسأله عن حفل التَّتويج".

- فقال هولمز: "لم يكن مستر راسنديل مستعدًّا لمناقشة الموضوع، وإلَّا لكان قد ترك معطفه معنا بدلًا من أخذه إلى عربة الشَّراب، وبهذا الشَّكل لا يوجد مبرِّر لعودته".
- "لكنَّ شعره الأحمر غير عاديٍّ. لقد كان سيمنحه بالتَّأكيد عضويَّة الرَّابطة[1]. أليس كذلك يا هولمز"؟

فأجاب بجفاء: "لا شكَّ في ذلك".

"لكنَّك قلت إنَّ اسمه راسنديل، بينما لم أستطع قراءته على الملصقات؟".

- "وكذلك أنا"

"فكيف تمكَّنت باسم كلِّ ما هو عجيب في هذا العالم؟"... وقاطعني بضحكة قصيرة، وإشارة من يده:

"لا أودُّ أن أجعل من المسألة فزّورة... لقد تعرَّفت عليه، هذا كلّ ما في الأمر، إنَّه الشَّقيق الأصغر للورد برلسدون[2]، وكنت قد تبادلت

---

(1) "يشير واطسون هنا إلى رابطة ذوي الشَّعر الأحمر". وهي جمعيَّة زائفة ادَّعت أنَّها تساعد وتوظِّف ذوي الشَّعر الأحمر الخالص. وقد ذكرها واطسون في كتاباته بعنوان "مغامرة رابطة الشَّعر الأحمر".

(2) هذه واحدة من أغرب المصادفات في التَّاريخ الانجليزيِّ الحديث مليئة بالمفارقات. ويبدو أنَّ واطسون ذهب إلى قبره دون أن يعلم قطّ مَن هو ذلك الشَّابّ الانجليزيُّ الوسيم ذو الشَّعر الأحمر الَّذي صادفه في القطار. وكان هذا الشَّابّ - كما استنتج هولمز - عائدًا لتوِّه من ريوريتانيا، وليس من التّيرول، وقد ذكر مغامراته في تلك المملكة، ورؤيته لوقائع تتويج الملك الخامس في روايته الشَّهيرة "سجين زندا" الَّتي نُشِرَتْ عام 1894 باسم مستعار هو أنتوني هوب (ن.م).

معه الحديث ذات مرَّة في حفلة لدى اللورد توبهام. ويبدو لي أنَّه من النّوع "الخسران".

تظهر عليه.

كان الوقت ليلًا عندما دخل القطار مدينة لينز، وأخذنا توبي؛ ليقوم بجولته المعتادة على الرَّصيف. وكان هولمز عندئذٍ قد أصبح مقتنعًا أنَّ موريارتي قد قطع كلَّ تلك المسافة إلى فيينا؛ (ولو أنَّ السَّبب كان لا يزال خافيًا عليه) ولذلك لم يُدْهَش عندما فشل الكلب في اكتشاف أيّ أثر للرَّائحة في المحطَّة.

وركبنا القطار مرَّة أخرى، ونمنا حتَّى وصل إلى فيينا مع مطلع النَّهار. وقمنا بالطُّقوس المعتادة من حلاقة الذَّقن وتغيير الملابس الدَّاخليَّة، ولكنَّنا كنَّا نحسُّ باضطراب في أعماقنا، من انتظار اللحظة الموعودة عندما ينطلق توبي إلى الرَّصيف ليرى إذا ما كان هناك أيّ أثر للفانيليا.

وأخيرًا جاءت اللحظة، ونزلنا من القطار نحمل حقائبنا، ونمسك بمقود توبي. ومشينا ببطءٍ من نهاية القطار إلى بدايته، ولم يتبقَّ أمامنا سوى عربة واحدة، ولم تبدُ على توبي أيّ علامات تبثُّ فينا الأمل حتى ذلك الحين، وطال وجه هولمز ونحن نقترب من البوَّابة المؤدّية إلى نهاية الرَّصيف.

وفجأة تجمَّد الكلب في موقفه، ثمَّ انطلق لقدم أو قدمين، وهو يدسُّ أنفه خلال تراب الرَّصيف، ويهزُّ ذيله في فرح.

وصحنا في نفس واحد: "لقد وجده"، وبالفعل كان توبي قد عثر على الأثر، وأخذ يزمجر في رضى وانتصار. ثمَّ سار في طريقه بسرعة نحو البوَّابة.

وقادنا الكلب خلال محطَّة السِّكك الحديديَّة الغريبة علينا، كما لو كان يسير في منطقة سكنه على بُعْد آلاف الأميال، فلم تكن الحدود أو حواجز اللغة لتقف عائقًا أمام توبي، أو تتداخل بأيِّ شكل في اقتفائه لأثر الفانيليا. ولو فكَّر البروفيسور موريارتي في القيام برحلة حول العالم، فإنَّ ذلك الكلب كان سيقتفي أثره حتَّى آخر الدُّنيا.

وقادنا الكلب إلى موقف العربات خارج المحطَّة وتوقَّف، وهو ينظر إلينا نظرة ألم ترجو الصَّفح، ولكنَّها تلومنا في نفس الوقت باعتبارنا مسؤولين بطريقة أو بأخرى عن ذلك المأزق الَّذي وصل إليه، ولكنَّ هولمز لم يضطرب.

وقال: "يبدو أنَّه استقلَّ عربة من هنا، والآن أصغِ إليَّ يا واطسون... في انجلترا تعود العربات الَّتي توصل المسافرين إلى موقعها بعد توصيل الرَّاكب، فلنرَ إذا كان توبي يمكنه أن يجد شيئًا في تلك العربة".

ولكنَّ الكلب لم يجد شيئًا يستحقُّ اهتمامه. وجلس هولمز بجوار حقائبنا على إحدى الدِّكك الواقعة بقرب المدخل، وهو يفكِّر في صمتٍ "هناك عدَّة احتمالات تخطر ببالي، ولكنَّ أبسطها هو أن نجلس هنا ونترك توبي يفحص كلّ عربة تصل إلى الموقف".

ثمَّ نظر إليَّ قائلًا: "هل أنت جائع؟".

فأجبته: "لقد تناولت إفطاري في القطار، بينما أنت نائم".

- فنهض من مقعده، وسلَّمني مقود توبي: "حسنًا، سأتناول قدحًا من الشَّاي، وسأكون في البوفيه، فقد يحالفنا الحظُّ".

"انطلق إلى غايته، وعدت أنا إلى العربات، وبدت على السَّائقين علامات الاستغراب لسلوكي. فكلَّما وصلت عربة جديدة، وأخذت موقفها في طابور الانتظار، سرت أنا وتوبي تجاهها، وساعدته على أن يشبَّ على قدميه، ويشمَّ رائحتها. وأخذ بعض السَّائقين يتسلُّون

بهذه التَّظاهرة الَّتي أقوم بها، بينما اعترض أحدهم بشدَّة، وكان وجهه سمينًا أحمر اللون يشبه الجزر، واستطعت أنا رغم أنَّ لغتي الألمانيَّة كانت لا تزيد عن لغة طلَّاب المدارس أن أدرك قلقه، فقد كان يخشى أن يتبرَّز الكلب (توبي) في العربة. وقد بدت من توبي في إحدى المرَّات علامات الرَّغبة في ذلك إلَّا أنِّي تداركت الأمر، وسحبته بعيدًا عن العربة.

ومضت نصف ساعة بهذه الطَّريقة، وقبل أن ننتهي ظهرَ هولمز، وهو يحمل حقيبتينا، ووقف وهو يراقب الموقف. ولم تكن بنا حاجة إلى الكلام، وبعد فترة، وهو يتنهَّد، وقال: "لن تنفع الحكاية يا واطسون، لنذهب إلى فندقٍ... وسأحاول إجراء ترتيبات أخرى... لا تبتئس يا صديقي". فقلت له: "لا بدَّ أنَّ هناك احتمالات أخرى".

وناديا على عربة، وكانت آخر العربات الَّتي تصل إلى الموقف، وكنَّا على وشك ركوبها عندما صاح (توبي) صيحات الفرح، وهو يهزُّ ذيله بشدَّة. ونظرنا أنا وهولمز بعضنا إلى بعض في دهشة، ثمَّ انفجرنا ضاحكين.

"مَن تأنَّى نال ما تمنَّى يا عزيزي واطسون"، وتحوَّل إلى سائق العربة. وكانت لغة هولمز الألمانيَّة أفضل من لغتي، ولكن بدرجة بسيطة "لقد كان يحفظ بالطَّبع نصوصًا من جوته وشيللر - منذ أيَّام الدِّراسة، ولا نفع لها الآن - إلَّا إنَّ معرفته بمعظم اللغات - فيما عدا الفرنسيَّة الَّتي كان يتقنها - قاصرة على مفردات تتعلَّق بالجريمة. فكان يعرف ألفاظًا مثل "جريمة"، "قتل"، "سرقة"، "تزوير"، "انتقام"، وما إلى ذلك في مختلف اللغات، بالإضافة إلى بعض الجمل المتعلِّقة بهذه الأمور. ولكن لا شيء بعد ذلك . وبدا عليه الضَّياع، وهو يتحدَّث إلى سائق العربة، محاولًا وصف موريارتي. وكان السَّائق مهذَّبًا، خاصَّة بعد أن منحه هولمز بعض النُّقود. وكان هولمز قد اشترى دليلًا

للغة الألمانيَّة من إحدى المنصَّات بجوار المقهى، وراح يتصفَّحه عبثًا لاستخراج الكلمات المناسبة. ولم تؤدِّ جهوده إلى نتيجة "وتقدَّم سائق آخر ممَّن كانوا جالسين يشاهدون حركاتي مع توبي قائلًا إنَّه يعرف بعض الانجليزيَّة، ويمكنه المساعدة.

غمغم هولمز: "شكرًا للسَّماء... إنَّ أقصى ما يوجد في هذا الدَّليل هو "الجوّ جميلٌ. أليس كذلك؟". ووضع دليل اللغة الألمانيَّة في جيبه، وتحوَّل إلى المترجم: "قل له إنَّنا نريد منه أن يحملنا إلى المكان الَّذي سبق أن حمل إليه راكبًا آخر خلال السَّاعات القليلة الماضية". وأخذ يصف موريارتي وصفًا تفصيليًّا. ونقل صاحبنا تلك الأوصاف إلى السَّائق الآخر، ولم يكد يمضي في حديثه حتَّى أشرق وجه السَّائق، وصاح: "آه... نعم"، وأشار لنا بالصُّعود إلى المركبة.

وما أن جلسنا في المركبة حتَّى قرقع بسوطه، وانطلق بنا خلال الشَّوارع المزدحمة لمدينة يوهان شتراوس - أو متيرنيخ، كلّ حسب تداعياته - ولم تكن لديَّ أيُّ فكرة عن أين نحن، أو إلى أين نتَّجه، فلم أذهب إلى فيينا من قبل. ومررنا بميادين جميلة وتماثيل فخمة، وأخذنا ننظر من النَّافذة إلى أهل تلك المدينة المثيرين للإعجاب، بينما هم لا يدرون بنا، ولا بنظراتنا المتطلِّعة، ويمضون في حال سبيلهم.

استخدمتُ كلمة "نحن" في وصف حالنا في العبارة السَّابقة، ولكنَّها في الواقع لا تُعَبِّر إلَّا عن ثلثي الحقيقة. فقد كان الَّذي ينظر من النَّافذة هو توبي وأنا فقط. أمَّا هولمز، فكان كشأنه في تلك المناسبات، لا يعير المناظر الطَّبيعيَّة أيَّ اهتمام مهما كان جمالها ورشاقتها، واكتفى بملاحظة أسماء الشَّوارع الَّتي نمرُّ بها، وأشعل غليونه، واستند إلى وسائد العربة، وقد انشغل عقله بما نحن مقبِلون عليه.

وانتبه عقلي فجأة؛ إذْ تذكَّرت أنا أيضًا ما نحن مقبلون عليه، فبعد لحظات قليلة - إذا سار كلّ شيء على ما يُرام - سنقف أنا

وهولمز وجهًا لوجه مع الطَّبيب الَّذي اعتمد عليه اعتمادًا كلِّيًّا في شفاء هولمز. تُرى كيف ستكون استجابة هولمز؟ هل سيتعاون؟ بل هل سيعترف بما يعانيه؟ هل سيقرُّ بالجميل أم سيثور عاضبًا لتدخُّلنا في شؤونه؟ وكيف سينظر إلى استخدامنا للحيلة في استغفاله هو نفسه، وسقيه من نفس الكأس الَّتي طالما سقاها لغيره؟

واستبعدت تلك الأفكار الأخيرة من ذهني حالما خطرت به. فلم أكن أعوِّل على عرفانه بالجميل، ولن أندهش إذا لم يُعبِّر عن ذلك في ظلِّ تلك الظُّروف. كلَّا لقد كان أهمّ ما يشغلني هو أن يُشْفَى ويتعافى، وإذا حدث ذلك فلن يضيرني أن أتحمَّل أيّ توبيخ أو ملام.

وتوقَّفت المركبة أمام بناية صغيرة، ولكنَّها جذَّابة المنظر في شارع جانبيٍّ لا يبعد إلَّا عدَّة أمتار عن الشَّارع العموميِّ، وفاتني في غمرة انشغالي أن ألحظ اسم الشَّارع. وأشار لنا السَّائق بكلِّ ما استطاعه من حركات أنَّ هذا هو المنزل الَّذي حمل إليه الرَّاكب الَّذي سألناه عنه.

ونزلنا من العربة، ونقد هولمز السَّائق أجره بعد شيء من الجدال قائلًا: "الاحتمال الأكبر أنَّنا دفعنا أكثر ممَّا ينبغي، ولكنَّ المسألة تستحقُّ"، وضحك، بينما انصرف السَّائق إلى حال سبيله. وتحوَّلنا إلى المنزل، وقرع هولمز الجرس، ولاحظت - بارتياح - وجود لافتة صغيرة تحمل اسم الرَّجل الَّذي أتينا لرؤيته.

بعد لحظة، فتحت لنا الباب خادمة جميلة، ولكنَّها جفلت عندما لاحظت وجود ذلك الكلب الغريب المنظر معنا. وأخبرها شرلوك هولمز بهويَّتنا، فأجابت بابتسامة، ودعتنا للدُّخول بلغة انجليزيَّة "مكسّرة".

وانحنينا وتبعناها إلى الدَّاخل. وجدنا أنفسنا في بهو صغير، ولكنَّه أنيق ذو أرضيَّة رخاميَّة بيضاء. كان المنزل أشبه بكعكة (فينواز)

شوكولاته مغطّاة بكلّ أفانين حلويّات وزخارف درسدن، وعلى أحد الجانبين سلّم صغير ذو درابزين أسود يؤدّي إلى بلكونة ظريفة المنظر تحيط بالبهو في شكل نصف دائرة فوق رؤوسنا.

- "تقدَّما من فضلكما". وأشارت الخادمة إلينا كي نتبعها، وهي ما زالت تبتسم. أدخلتنا مكتبة مكتظَّة يطلُّ بابها على الرُّدهة. وبعدما جلسنا عرضت علينا أن تأخذ توبي لتوفِّر له شيئًا من الطَّعام. ولكنَّ هولمز رفض ذلك على الفور، برسميَّة وبرود، ونظر إليَّ نظرة ذات معنى من خلف الفتاة، وكأنَّه يقول: "أيّ طعام نتوقَّعه لبطلنا توبي تحت هذا السَّقف"، ولكنّي قلت إنَّ البروفيسور لن يجرؤ على القيام بحيلة متهوِّرة كهذه.

"حسنًا، ربَّما كنت على حقٍّ"، وأخذ يقلِّب الأمر في رأسه، وهو يبتسم في برود إلى الخادمة المبتسمة، الَّتي ظلَّت واقفة في انتظار قرارنا. واستطعت أن ألاحظ أنَّ علامات التَّعب قد بدأت تظهر عليه مرَّة أخرى، وأنَّه في حاجة إلى "حقنة"، وشكرت الخادمة، وأسلمتها مقود توبي.

- "والآن يا واطسون... ماذا يعني كلّ هذا؟" وجَّه هولمز إليَّ السُّؤال بعد أن انصرفت الفتاة.

- بصراحة... لا أفهم شيئًا، ومَن قال لا أدري فقد أفتى".

وتركت له حرّيَّة تفسير الموقف بطريقته.

"ومع ذلك، فالأمر واضح بما فيه الكفاية"، ثمَّ صحَّح لنفسه... "ولكنَّه شيطانيٌّ بدرجة مفزعة". وأخذ يذرع الغرفة جيئة وذهابًا، وهو يتصفَّح الكتب الموجودة على الرُّفوف، والَّتي رغم أنَّها كانت

بالألمانيَّة، فقد كان من الواضح أنَّها ذات طبيعة طبّيَّة - على الأقلِّ في الجانب الَّذي كنت أشاهده.

وكنت على وشك أن أسأل هولمز عمَّا يعنيه بملاحظته تلك. عندما فتح الباب ودخل إلى الغرفة رجلٌ ملتحٍ، متوسِّط الطُّول ذو كتفين مائلتين إلى الأمام. وقدَّرت أنَّه في بداية الأربعينات من عمره - ولقد علمت فيما بعد أنَّه في الخامسة والثَّلاثين. ومن خلال ابتسامته الضَّئيلة رأيت تعبيراً عن حزن لا نهاية له، مقترنًا - كما بدا لي - بحكمة بالغة.

وكانت عيناه أبرز شيء في ملامح وجهه، لم تكونا واسعتين بشكل خاصٍّ، بل كانتا داكنتين وغائرتين، تظلِّلهما جبهة بارزة، وفيهما نظرة شديدة النَّفاذ. وكان يرتدي حلَّة غامقة، وتبدو من تحتها سلسلة ذهبيَّة مشبوكة في صدارة.

"صباح الخير يا هولمز". قالها بلكنة واضحة، ولكن بانجليزيَّة سليمة.

"لقد كنت أتوقَّع مجيئك، وأنا مسرور بحضورك"، وأضاف ملتفتًا إليَّ، وعلى وجهه ابتسامة مشجِّعة، ومدَّ يده مصافحًا: "ومسرور لحضورك أيضًا يا دكتور واطسون". أمَّا أنا، فكنت أنظر إلى هولمز، وعيناي لا تبرحان وجهه".

"تستطيع أن تزيل تلك اللحية المضحكة". قالها هولمز بذلك الصّوت المرتفع الَّذي سمعته منه يوم اندفع داخلًا إلى منزلي بشكل ميلودراميٍّ، ثمَّ سمعته في اليوم التَّالي عندما زرته في منزله... "من فضلك توقَّف عن استعمال تلك اللكنة السَّخيفة الَّتي تشبه الأوبرا كوميك". "ألَا تدرك أنَّه يجب عليك أن تعترف؟... فسوف تواجه موقفًا صعبًا. لقد انتهت اللعبة يا بروفيسور موريارتي". واستدار مضيفنا ببطء موجِّهًا إليه تلك النَّظرة النَّفَّاذة، وقال بصوت ناعم: "إنَّ اسمي هو سيجموند فرويد".

الفصل السّابع

تجربتان

انقضَتْ فترة طويلة من الصَّمت، أدَّى شيء ما في سلوك الطَّبيب بهولمز إلى أن يتوقَّف متمعِّنًا. ومع أنَّه كان مهتاجًا، إلَّا إنَّه سيطر على نفسه بمجهود واضح، واقترب من الطَّبيب، الَّذي كان قد استقرَّ بهدوء على مقعد خلف مكتبه "المكركب"، وأخذ ينظر إليه بثبات لعدَّة لحظات، ثمَّ أطلق تنهيدة، وقال: "لا لست البروفيسور موريارتي... ولكن... لقد كان موريارتي هنا... فأين هو الآن...؟".

أجاب الآخر وهو ما زال محتفظًا بجلسته: "في فندق على ما أعتقد": تلقَّى هولمز الصَّدمة، واستدار، وجلس على مقعد، بينما علت وجهه تعبيرات عن الهزيمة لا يمكن وصفها.

وتحوَّل إليَّ وقال: "وماذا بعد يا يهوذا الإسخريوطيّ، هنيئًا لك تسليمي إلى الأعداء، أرجو أن يجزلوا لك العطاء مقابل ما تكبَّدته من

مشاقّ لأجلهم". كان يتكلَّم بلهجة فاترة ذات عزم وتصميم، بحيث كادت تقنعني، لولا أنَّني أعلم علم اليقين أنَّه كان مخطئًا.

واحمرَّ وجهي غضبًا للصِّفة الَّتي ألصقها بي، وصحتُ فيه: "هذا لا يليق يا هولمز".

- "لا تقلب الآية يا واطسون، ومع ذلك، فلا داعي للشِّجار. لقد تعرَّفت على آثار أقدامك خارج منزل البروفيسور، وعندما رأيت حقيبة السَّفر، الَّتي حملتها، أدركت أنَّك تعرف أنَّنا ذاهبون في رحلة".

كما علمت من حجم ما حملته من أشياء أنَّك كنت تعرف مقدَّمًا الوقت الَّذي ستسغرقه الرِّحلة. إنَّك قد استعدَّيت لرحلة طويلة هي تلك الَّتي قطعناها بالضَّبط، وكلّ ما أريد معرفته الآن هو أن تخبرني بخطَّتك بعد أن وقعت في قبضتك".

وتدخَّل سيجموند فرويد بهدوء قائلًا: "لو سمحت لي بكلمة، أعتقد أنَّك تخطئ في حقِّ صديقك خطأ كبيرًا. إنَّه لم يحضرك إليَّ قاصدًا إيقاع أيّ أذى بك".

كان فرويد يتحدَّث بيسر واطمئنان وثقة، رغم أنَّه كان يتحدَّث بلسان أجنبيٍّ. فعاد هولمز إلى تركيز انتباهه عليه، واستطرد فرويد قائلًا: "أمَّا بالنِّسبة للبروفسور موريارتي، فقد دفع له أخوك والدُّكتور واطسون مبلغًا كبيرًا من المال؛ ليقطع هذه الرِّحلة على أمل أنَّك ستتبعه حتَّى باب منزلي".

- "ولماذا يفعلان ذلك؟".

- "لأنَّهما اعتقدا أنَّ هذه هي الوسيلة الوحيدة الَّتي تجبرك على رؤيتي".

- "ولماذا كانا يتلهَّفان على ذلك؟".

وأدركت أنَّ هولمز كان مضطربًا، ولكنَّه كان يخفي ذلك الاضطراب، فلم يكن بالرَّجل الَّذي يقع في نفس الخطأ مرَّتين.

- وواجهه الطَّبيب قائلًا: تُرى ماذا يخطر ببالك من أسباب؟

على أيِّ الأحوال، لقد قرأت الحالات الَّتي نشرتها، كما رأيت لتوِّي لمحة من مواهبك المدهشة. والآن فلتقل لي مَن أنا، ولماذا تلهَّف صديقاك على أن تقابلني؟".

ونظر إليه هولمز ببرود.

- لا أستطيع أن أخبرك بشيء زيادة على الحقائق التَّالية، فأنت طبيب يهوديٌّ لامع، وُلِدَ في المجر، ودرس لبعض الوقت في باريس. وقد أبعدتك بعض نظريَّاتك الرَّاديكاليَّة عن الوسط الطِّبِّيِّ بحيث دفعتك إلى قطع علاقاتك بمختلف المستشفيات والجمعيَّات الطِّبِّيَّة إضافة إلى أنَّك قد توقَّفت عن ممارسة الطِّبِّ؛ ونتيجة لذلك لا أستطيع أن أستنتج شيئًا آخر.

أنت متزوِّج وتقدِّر قيمة الشَّرف، وتحبُّ لعب الورق وقراءة شكسبير، ومؤلِّفٍ روسيٍّ آخر يصعب عليَّ نطق اسمه. ولا أرى مزيدًا يمكن إضافته إلى ذلك.

- وحملق فرويد في هولمز، وهو في شدَّة الذُّهول، ثمَّ فجأة أشرقت ابتسامة على وجهه كانت مفاجأة لي؛ إذْ كانت أشبه بتعبير طفوليٍّ من الدَّهشة والاستمتاع.

- "وصاح" هذا شيء مدهش!".

- أجابه هولمز: "هذا أمر عاديّ، وما زلت أنتظر تفسيرًا لهذه الخدعة الماكرة الَّتي لا تُطَاق، هذا إذا كانت خدعة على الإطلاق. ويستطيع الدُّكتور واطسون هنا أن يخبرك أنَّه من

الخطورة بمكان أن أترك لندن لفترة طويلة من الوقت؛ إذْ إنَّ ذلك سيخلق لدى فئات المجرمين نوعًا من النَّشاط الضَّارّ عندما يكتشفون غيابي.

- وأجابه فرويد وهو لا يزال مبتسمًا من الإعجاب: "ومع ذلك، أنا في شدَّة الشَّوق لمعرفة كيف تمكَّنت من تخمين تفاصيل حياتي بمثل هذه الدِّقَّة الرَّائعة".

وصحَّحه هولمز قائلًا: "أنا لا أخمِّن قطّ، فالتَّخمين عادة كريهة مدمِّرة للمنطق".

ونهض من مقعده، ولمحت في كلامه بداية ذوبان الثُّلوج رغم أنَّه حاول ألَّا يُظْهِر ذلك. فقد كان هولمز شديد الغرور والإعجاب بنفسه كفتاة صغيرة عندما يتعلَّق الأمر بمواهبه، ولم يكن هناك شيء من شبه النِّفاق، أو المنّ في إعجاب الطَّبيب النِّمساويِّ، وبدا على هولمز أنَّه مستعدٌّ أن ينسى الخَطَر الَّذي يفترض أنَّه متعرِّض له، وأن يستمتع حتَّى الثُّمالة بآخر دقيقة.

"إنَّ المكتب الخاصّ هو مكان مثاليٌّ لملاحظة جوانب طبع الإنسان، وهكذا بدأ هولمز حديثه بلهجة أليفة، ذكَّرتني بأستاذ التَّشريح، وهو يشرِّح دخائل وتفاصيل الهيكل العظميّ أمام طلبته، "هذا المكتب يخصُّك أنت تمامًا، هذا واضح من الغبار، فحتَّى الخادم لا يُسْمَحُ له بالدُّخول، وإلَّا ما كانت تُتْرَك الأمور تصل إلى هذا الوضع". ومرَّ بأصابعه على كعوب بعض الكتب المجاورة له مبيِّنًا أثر التُّراب على إصبعيه، وبدت على فرويد علامات الاغتباط، وهو يقول "استمرّ أرجوك".

"حسن، عندما يهتمُّ شخص بالدِّيانات، ويمتلك مكتبة عامرة، فإنَّه عادة ما يحتفظ بكلِّ الكتب الَّتي تتناول موضعًا بعينه في مكانٍ واحدٍ، ومع ذلك، فإنَّ القرآن والإنجيل وكتاب المورمون وغير ذلك من

الكتب المشابهة توجد متفرِّقة وبعيدة في الواقع عن النُّسخة المجلَّدة الفاخرة من التَّلمود والإنجيل العبريّ. وعلى هذا، فإنَّ هذين الكتابين لا يدخلان ضمن دراساتك فحسب، وإنَّما يحتلَّان مكانة خاصَّة، وما دلالة ذلك؟ إلَّا أن تكون أنت من أتباع الدِّيانة اليهوديَّة. ويؤكِّد ذلك الاستنتاج الشَّمعدان التّساعيّ على مكتبك، إنَّهم يسمُّونه المنارة... أليس كذلك؟".

أمَّا دراستك في فرنسا، فقد استنتجتها من العدد الكبير من الكتب الطِّبِّيَّة الفرنسيَّة بما في ذلك عدد من الكتب تأليف مَن يُدْعى "شاركوه". والطِّبُّ كما تعلم، موضوع معقَّد، ولا يدرسه الإنسان في لغة أخرى لمجرَّد المتعة. أضف إلى ذلك أنَّ مظهر هذه الكتب يدلُّ بوضوح على أنَّك قضيت ساعات طويلة في تصفُّحها. وأين يمكن لطالب ألمانيٍّ أن يقرأ كتبًا طبِّيَّة بالفرنسيَّة إلَّا في فرنسا؟ وإذا مضيت في استنتاجاتي بعيدًا، فإنَّ مظهر "شاركوه" بالٍ من كثرة الاستعمال (ويبدو اسمه مألوفًا لديَّ) ممَّا يجعلني أخاطر بالقول إنَّه كان مدرِّسك، أو أنَّ كتاباته لها جاذبيَّة خاصَّة لديك، وأعتقد أنَّ لها صلة بتطوير أو نموِّ أفكارك أنت. ويمكن التَّسليم بأنَّه لا يستطيع عقل فذٌّ أن يجوس خلال ألغاز الطِّبِّ في لغة أجنبيَّة، هذا إذا غضضنا الطَّرف عن الاهتمام بموضوعات متنوِّعة أراها متمثِّلة في الكتب الَّتي تمتلئ بها هذه المكتبة".

وأخذ يجول في أنحاء الغرفة، كما لو كان مختبرًا لا يلقي إلينا بالًا، بينما هو يتابع محاضرته.

وكان فرويد يلاحقه بنظراته، بينما دسَّ أصابعه في صديريته دون أن يكفَّ عن الابتسام.

أمَّا أنَّك قارئ لشكسبير، فقد استدللت عليه من واقع أنَّ الكتاب قد وُضِعَ على الرَّفِّ مقلوبًا بحيث يستحيل عليك أن تخطئه في وسط

هذ الكمِّ من الأدب الانجليزيِّ، إلَّا إنَّ وضعه مقلوبًا يجعلني أظنُّ أنَّك كنت تنوي بلا شكٍّ أن تعود إليه في القريب العاجل؛ ممَّا أدَّى بي إلى الاعتقاد أنَّك مغرمٌ بقراءته - أمَّا بالنّسبة للكاتب الرُّوسيِّ... - وقاطعه فرويد "ديستويفسكي" نعم، ديستويفسكي - إنَّ عدم وجود الغبار على كتبه... وبالمناسبة لا يوجد غبار أيضًا على كتب شكسبير... يفصح عن اهتمامك المستمرّ به.

أمَّا أنَّك طبيب، فهذا واضح لي من شهادة بكالوريوس الطِّبِّ المعلَّقة على ذلك الحائط. أمَّا أنَّك تمارس الطِّبَّ، فهذا واضح لي أيضًا لوجودك في المنزل في منتصف النَّهار دون أن يبدو عليك القلق بشأن مواعيدك. وقد وضح لي ابتعادك عن مختلف الجمعيَّات الطِّبِّيَّة من وجود فراغات بين الأشياء المعلَّقة على الحائط، والَّتي لا شكَّ أنَّها كانت مخصَّصة لشهادات أخرى، ويبدو دهان الحائط في هذه الأماكن باهتًا، كما يشير إطار من الغبار إلى الأمكنة الَّتي كانت تلك الشّهادات معلَّقة فيها.

والآن ما الَّذي يجبر رجلًا على إزالة مثل تلك الشّهادات الدَّالَّة على نجاحه؟ ولماذا توقَّف عن أن يربط نفسه بهذه الجمعيَّات والمستشفيات فقط. ولماذا يفعل ذلك بعد أن سعى لينضمَّ إليها؟ يحتمل أنَّ واحدة أو اثنتين منهما قد خيَّبت ظنَّك، ولكن ليس كلّها، وفي نفس الوقت؛ ولذلك فقد استنتجت أنَّ تلك الجمعيَّات والهيئات هي الَّتي لم تعد ترضى بك يا دكتور، وطلبت منك أن تستقيل من عضويَّتها. ولماذا يفعلون ذلك؟ فما زلت تعيش في نفس المدينة الَّتي حدث فيها كلّ ذلك؟ وهكذا فإنَّ موقفًا اتَّخذته - ومن الواضح أنَّه موقف مهنيٌّ - قد أسقطك من أعينهم. ومن ثَمَّ، فقد طلبوا منك جميعًا أن تتركهم. تُرَى ما هذا الموقف؟ ليست لديَّ أيُّ فكرة ولكنَّ مكتبتك، كما سبق أن لاحظت، تدلُّ على عقليَّة بعيدة المدى متطلِّعة وثاقبة. ولذلك؛ فقد أبحث لنفسي أن أعرض أنَّك أتيت بنظريَّة

راديكاليَّة، أكثر تقدُّمًا، أو صادمة بحيث لا تتقبَّلها عقليَّة الدَّوائر الطِّبِّيَّة المعاصرة بسهولة. وربَّما تتعلَّق تلك النَّظريَّة بأعمال السَّيِّد "شاركوه" الَّذي يبدو له تأثير كبير عليك. غير أنَّ هذا أمر غير مؤكَّد. أمَّا الشَّيء المؤكَّد، فهو أنَّك متزوِّج، كما هو واضح من الخاتم الموجود في يدك اليسرى، كما أنَّ لكنتك البلقانيَّة تشير إلى المجر أو مورافيا. ولا أعتقد أنَّني قد أغفلت أيَّ شيء مهمٍّ فيما أدليت به".

فقال فرويد: "لقد قلت إنَّ للشَّرف عندي منزلة كبيرة"، فأجابه هولمز: "إني آمل في ذلك، فقد استنتجته من حقيقة أنَّك كلَّفت نفسك عناء إزالة تلك الشَّهادات الَّتي أصدرتها تلك الجمعيَّات الَّتي توقَّفت عن الاعتراف بك. وقد كان من الممكن أن تبقيها داخل حجرتك الخصوصيَّة ومنزلك الخاصّ؛ لتستفيد منها، ولكنَّك أبيت ذلك".

"وماذا عن حبِّي للعب الورق؟".

"آه... هذه نقطة تحتاج إلى مهارة شديدة، ولكنّي لن أقلِّل من شأن ذكائك بأن أضيف لك كيف وصلت إليها. ولكنّي أحبُّ أن أتوجَّه إليك بكلِّ صراحة، وأسألك أن تخبرني عمَّا أتى بي إليك. أعتقد أنَّني لم آتِ إلى هنا لأعرض براعتي في الاستنتاج".

وأجابه فرويد ولا تزال الابتسامة على شفتيه، والإعجاب بهولمز مرسومًا على وجهه: "لقد سبق أن سألتك ما - في رأيك - الأسباب الَّتي أدَّت إلى الاحتيال عليك، وإحضارك إلى هنا".

وأجابه هولمز وفي صوته نوع من الحِدَّة: "ليست لديَّ أيّ فكرة، فإذا كنت واقعًا في مشكلة، فأخبرني، وسأفعل كلّ ما في جهدي لمساعدتك، ولكن ما الَّذي يجعلك تتكلَّف كلَّ هذا العناء لتأتي بي إليك بهذه الطَّريقة؟".

وقاطعه الطَّبيب قائلًا بلطف: "الآن أنت الَّذي أصبحت غير منطقيٍّ. فكما استنتجت باقتدار، لست أعاني من مشكلة بعينها،

اللهـمَّ إلَّا تلـك المشـكلة الهيّنـة الَّتـي أشرت إليهـا". وأومـأ بهـزَّة بسـيطة مـن رأسـه الكبـيرة في اتِّجـاه الشّـهادات المنزوعـة: "وكـما أشرت أنـت، فـإنَّ الطَّريقـة الَّتـي اتَّبعتهـا لإحضـارك إلى هنـا لم تكـن تقليديَّـة إلى أبعـد درجة. ومـن الواضـح إذن أنَّنـا لم نكـن نعتقـد أنَّـك كنـت سـتأتي إلى هنـا طواعيـة. ألَا يوحـي هـذا بـشيء إليـك؟".

وأجاب هولمز رغمًا عنه: "إنَّني لم أكن أرغب في المجيء".

بالضَّبـط "ولمـاذا؟ لـن يكـون ذلـك بسـبب أنَّك تخشـى أن نؤذيـك - قد أكـون أنـا عـدوّك، وقـد يكـون البروفيسـور موريـارتي كذلـك، بـل وحتَّـى الدُّكتـور واطسـون، ولكـن هـل مـن المحتمـل أن ينضـمَّ أخـوك إلى صفِّنـا؟ هـل مـن المحتمـل أن نكـون كلّنـا عصبـة ضـدّك؟ ولمـاذا؟ فـإذا لم نكـن ننـوي بـك شرًّا، فربَّمـا ننـوي بـك خـيرًا، هـل فكَّـرت في ذلـك؟".

- "وما ذلك الخير يا تُرى؟".
- "ألَا تستطيع أن تخمِّن؟".
- "أنا لا أُخمِّن قطّ، ولكنّي لا أستطيع أن أفكِّر في السَّبب".

مكتبة
t.me/soramnqraa

واضطجـع فرويـد في كرسـيّه وقـال: "لا تسـتطيع؟ إذن فأنـت لم تصـل إلى مسـتوى الصَّـراحة المطلـوب، أنـت يـا هولمـز تعـاني مـن إدمـان فظيـع، وقـد اتَّهمـت أصدقـاءك بالوقـوع في الخطأ، وهـم الَّذين تكاتفـت جهودهم لمسـاعدتك في التَّخلُّـص مـن هـذا البـلاء بـدلًا مـن أن تعـترف بأنَّـك مذنـب. لقـد خيَّبـت ظنِّـي فيـك يـا سـيّدي، أهـذا هـو هولمـز الَّـذي قـرأت عنـه؟ الرَّجـل الَّـذي أُعْجبـت بـه لا بسـبب ذكائـه الفـذّ فحسـب، وإنَّمـا لفروسـيَّته النَّبيلـة وحبِّـه للعـدل، وإحساسـه بمعانـاة المظلومـين؟ أنـا لا أصـدِّق أنَّـك قـد استسـلمت لسـلطان هـذا المخـدِّر، وأنَّـك في أعـماق نفسـك لا تعـترف بالمشـكلة الَّتـي تعانيهـا بالإضافـة إلى نفاقـك في إدانـة هـؤلاء الأصدقـاء

العظـام الَّذيـن لم يدفعهـم إلَّا حبّهـم لـك، واهتمامهـم بأمـرك ليتكلّفـوا مثـل هـذا العنـاء في معاونتـك".

حبسـت أنفـاسي في رهبـة، فلـم أسـمع قـطّ طيلـة حيـاتي مـع شرلـوك هولمـز شـخصًا يخاطبـه بتلـك الطَّريقـة، وخشـيت للحظـة أن ينفجـر غضبـه بعنـف، ولكنَّنـي لم أقـدِّره حـقّ قـدره، أمَّـا سـيجموند فرويـد فقـد أبـصر معدنـه.

وران الصَّمـت مـرَّة أخـرى لفـترة طويلـة. وجلـس هولمـز سـاكنًا، وقـد أحنـى رأسـه، ولم يرفـع الطَّبيـب عينيـه عنـه، وسـاد الغرفة سـكون كسـكون الموت.

وأخيرًا تكلَّم هولمز - بصوت خافت يكاد لا يُسْمَع:

"نعـم، أنـا مذنـب، ولا أدَّعـي أعـذارًا. أمَّـا بالنِّسـبة للمسـاعدة، فيجـب أن تنتزعوهـا مـن رؤوسـكم تمامًـا. لقـد وقعـتُ في قبضـة هـذا المـرض اللعـين، ولسـوف يقضـي عـليَّ. ولا تحاولـوا إدخـال الطّمأنينـة إلى نفسـي، يجـب ألَّا تفعلـوا ذلـك. لقـد اسـتخدمت كلّ مـا لـديَّ مـن إرادة وعـزم للقضـاء عـلى تلـك العـادة، ولم أسـتطع أن أفعـل حيالهـا شـيئًا. وإذا كنـت أنـا بـكلِّ عزمـي وتصميمـي، لم أنجـح، فهـل سـتكون لديكـم الفرصـة؟ إنَّ المـرء مـا أن يضـع قدمـه عـلى هـذا الطَّريـق، ويخطـو تلـك الخطـوة الخاطئـة، فإنَّـه لـن يسـتطيع أن يحـوِّل نفسـه عـن ذلـك المجـرى المـؤدِّي إلى دمـاره؟".

وأدركـت، وأنـا جالـس في ركـن الغرفـة أنَّ فمـي كان مفتوحًـا مـن الدَّهشـة، وأنَّ صـدري كان ينتفـض مـن الانفعـال، وتكهـرب الجـوّ، ولم أجـرؤ عـلى التَّدخُّـل إلَّا إنَّ الدّكتـور فرويـد قطـع الصَّمـت.

قال فرويد وهو يميل إلى الأمام بجدّيَّة شديدة، وقد لمعت عيناه:

"إنَّ قدمـاك لم توضعـا عـلى هـذا الطَّريـق بطريقـة لا رجعـة فيهـا"، فالمـرء يسـتطيع أن يسـتدير راجعًـا، ويـترك طريـق الدَّمـار. صحيـح أنَّـه سـيحتاج لبعـض المسـاعدة، ولكـنَّ طريـق المـوت هـذا يمكـن الرُّجـوع عنه.

وقال هولمز بصوت بائس مخنوق الأنين، بحيث مزَّق نياط قلبي:

"كلَّا... إنَّ هذا الطَّريق محتوم، فلم يفعل أحد قطّ ما تقول به".

وقال فرويد:

"لقد فعلت أنا ذلك".

"أنت؟".

وأومـأ فرويـد برأسـه: "لقـد تعاطيـت الكوكايـين، وتخلَّصـت منـه، وإذا سـمحت لي، فلسـوف أسـاعدك عـلى أن تتخلَّـص منـه أيضًـا".

وصـاح هولمـز بصـوت متقطِّـع: "لا أظـنُّ أنَّـك تسـتطيع ذلـك"، ورغـم احتجاجـه، وعـدم اقتناعـه، إلَّا إنَّ نغمـة صوتـه أخبرتنـي كـم يأمـل في ذلك.

- بلى "أستطيع".
- "كيف؟".
- "سيسـتغرق ذلـك وقتًـا "ونهـض واقفًـا" وخـلال تلـك الفـترة، لقـد رتَّبـت لكـما أن تعيشـا في منـزلي كضيـوف، هـل يناسـبكما ذلـك؟".
- ونهـض هولمـز بشـكل أوتوماتيـكيٍّ، وخطـا إلى الأمـام، ولكنَّـه فجـأة دار حـول نفسـه وطـرق جبينـه وصـاح: "لا فائـدة أنَّنـي أشـعر الآن بهزيمتـي أمـام ذلـك الإلحـاح القهـريّ".
- ونهضـت مـن مقعـدي، وأنـا أفكِّـر في محاولـة التَّسـرية عنـه بعبـارات التَّشـجيع، ولكنّـي توقَّفـت مـدركًا عبـث مـا سـأقوم بـه".

ودار فرويد ببطء حول مكتبه، ووضع يده الصَّغيرة بلطف على كتف صديقي، وقال: "سنستطيع إيقاف هذا الشُّعور القهريَّ، ولو لفترة، اجلس من فضلك"، وأشار إلى الكرسيِّ الَّذي كان هولمز قد نهض منه لتوِّه، بينما جلس هو على حافَّة المكتب. وأطاع هولمز في سكون، وجلس منتظرًا، وقد بانت عليه علامات التَّشاؤم والتَّعاسة.

وسأله فرويد: "هل تعرف شيئًا عن التَّنويم؟" وأجابه هولمز بملل: "هل ستجعلني أنبح كالكلب، أو أزحف على يديَّ وركبتيَّ؟".

- "إذا تعاونت معي ووثقت بي، سأستطيع تخفيض درجة الاشتياق للمخدِّر عندك لفترة. وعندما تظهر عليك مرَّة أخرى علامات الاشتياق، فسوف أنوِّمك مرَّة أخرى، وبهذه الطَّريقة المفتعلة ستنخفض درجة الإدمان لديك، وأترك لكيمياء جسمك إكمال المهمَّة". وكان فرويد يتكلَّم ببطء، وهو يبذل جهده للسَّيطرة على الهلع والفزع اللذين بدآ يظهران على هولمز".

وتفحَّصه هولمز لفترة من الوقت بعد أن فرغ من حديثه، ثمَّ هزَّ كتفيه مستسلمًا في كبرياء. وحبس الدُّكتور فرويد تنهيدة الارتياح في صدره، وكما بدا لي، تحرَّك نحو النَّافذة، وأسدل السَّتائر مغرقًا الحجرة في شبه ظلام.

وتحوَّل إلى هولمز، وأتى بمقعد وضعه قبالته، وقال له: "الآن... انظر بعينين ثابتتين في هذه". وأخرج من جيب صداره ساعة مدلَّاة من سلسلة، وأخذ يحرِّكها ببطء إلى الأمام وإلى الخلف أمام عينيه.

الفصل الثَّامن

إجازة في الجحيم

كانت معارضة البروفيسور موريارتي ونفوره من البداية من أن يأخذ توبي معه، ويعود به إلى لندن نوعًا من الموقف الكوميديِّ الَّذي يسرِّي عن النَّفس في نهاية أسبوع مزعج. فقد ألقى نظرة واحدة على الكلب عندما أحضرته إليه في فندقه ذلك اليوم - وأعلن أنَّه رغم أنَّه رجل طيّب (كما هو واضح من موافقته على السَّفر إلى فيينا) ولكنَّ هناك حدودًا لكلِّ شيء، وأنَّ كرمه يستحيل أن يصلَ إلى ذلك الحدِّ.

- وقال وهو ينظر من فوق عويناته إلى توبي، الَّذي بادله النَّظرات معبِّرًا عن رغبته وحماسه بطريقته الخاصَّة: "هذا يتعدَّى طاقتي، أنا رجل صبور يائس صحيح، ولكن صبور فقط يا دكتور واطسون، فلم أفتح فمي بكلمة بشأن خلاصة الفانيليا الَّتي أفسدت زوجًا جديدًا من الأحذية؟ ألم يحدث هذا؟ ولكن هذا كثير، أنا لن أنقل معي هذا الحيوان إلى لندن، كلَّا ثمَّ كلَّا".

- كنت في حالة مزاجيَّة لا تسمح لي بمناقشة توافه الأمور، وأخبرته بذلك، وأنَّ أقصى ما يمكنني السَّماح به هو أن يضع توبي مع العفش، أمَّا إعادة الكلب إلى شارع بينشن، فهذا أمرٌ محسوم. وأشرت إلى ما سيقوله مايكروفت هولمز. وتراجع موريارتي وهو ما زال يئنُّ ووافق بألفاظ وغمغمات غير مفهومة.

وكنت متعاطفًا مع شكواه، ولكن لم يكن بوسعي قبولها. فقد كانت أعصابي قد وصلت إلى درجة الانهيار، وكان الشَّيء الوحيد الَّذي هدَّأ روعي وصول برقيَّة من زوجتي تخبرني بأنَّ كلَّ شيء على ما يُرام، ولكن كان هذا أقلّ من المطلوب بكثير.

ربَّما كانت محاولة شرلوك هولمز لكسر قيود الكوكايين، الَّذي كان قد غاص في أوحاله، أشقّ مجهود بطوليٍّ شاهدته في حياتي، فلا أتذكَّر - سواء في حياتي المهنيَّة أم خبرتي الشَّخصيَّة، وسواء في حياتي العسكريَّة أم المدنيَّة أنَّني شاهدت شيئًا يقارب العذاب والألم الَّذي شاهدته.

كان اليوم الأوَّل للدُّكتور سيجموند فرويد ناجحًا. فقد تمكَّن من تنويم هولمز، ووضعه في سبات عميق في إحدى الغرف الَّتي وضعها تحت تصرُّفنا في الطَّابق الثَّاني من منزله. وما أن رقد هولمز على السَّرير حتَّى جذبني فرويد من كمِّي، وأمرني قائلًا: "هيَّا بسرعة، يجب أن نفتِّش أمتعته".

وأومأت برأسي، ولم تكن بي حاجة لأن أعرف ما الَّذي سنبحث عنه. وبدأنا - نحن الاثنين - في التَّنقيب في الحقيبة القماشيَّة الحمراء الخاصَّة بهولمز، وكذلك في جيوب سترته. وكان ذلك ضدّ مبادئي، فلم يسبق لي قطّ أن انتهكت حرمة خصوصيَّات صديقي. ولكنَّ الهدف كان ساميًا، والرّهان عاليًا. وقوَّيت قلبي وأنا أقوم بتلك المهمَّة.

ولم نجد أيَّ صعوبة في اكتشاف قنّينات الكوكايين. لقد جلب هولمز معه إلى فيينا كمّيّات هائلة من المخدِّر. وتعجَّبت وأنا أستخرجها من ثنايا حقيبته كيف لم أسمع رنينها، وهي تحتكُّ ببعضها أثناء الطَّريق، ولكنَّ هولمز كان قد احتاط لذلك بأن لفَّها في الغطاء المخمليِّ الأسود الَّذي يستعمله عادة ليغطِّي به الكمان (الاستراديفاريوس) في حقيبته. وكتمت ألمًا في صدري، وأنا أرى كيف أساء استخدام ذلك القماش، وتابعت اكتشاف القنّينات، وإعطاءها للدّكتور فرويد الَّذي كان قد فرغ لتوِّه من تفتيش دقيق لجيوب الملابس وعباءة السَّفر، حيث اكتشف بدوره قنّينتين أخرتين.

- وقال: "أعتقد أنَّنا قد حصلنا على كلِّ ما لديه".
- فقلت: "لا تكن متأكِّدًا هكذا، فنحن لا نتعامل مع مريض عاديٍّ؟". هزَّ كتفيه وهو يراقبني، وأنا أنزع غطاء إحدى القنّينات، وأبلّ إصبعي بالسَّائل الصَّافي الموجود بها، وأذوقها بطرف لساني.
- وصحت: "ماء".
- "أيمكن هذا؟". واختبر فرويد محتويات بقيَّة الزُّجاجات، ونظر إليَّ في دهشة بالغة، بينما كان هولمز يتقلَّب في فراشه خلفنا "أين خبَّأها إذن؟".

وأخذنا نقدح زناد أفكارنا، ونحن متوجِّسان خشية أن يستيقظ النَّائم، وتبدأ مشاكلنا الحقيقيَّة. لقد كان من المؤكَّد أن تكون هنا في مكانٍ ما. وأفرغنا كامل محتويات الحقيبة على السِّجَّادة الشَّرقيَّة الفاخرة، وفحصنا محتوياتها القليلة الَّتي جلبها هولمز معه إلى لندن. وفتَّشنا ملابسه الدَّاخليَّة، فلم نجد شيئًا، كما فتَّشنا علب وأدوات التَّنكُّر الَّتي يحملها معه في العادة. ولم يتبقَّ أمامنا إلَّا بعض العملات الانجليزيَّة. ومجموعة غلايينه المعتادة. فكان هناك الغليون الأسود

المصنوع من خشب الورد، والآخر المصنوع من الخزف، والثَّالث الطَّويل المصنوع من خشب الكرز، وكانت كلّها معروفة لي، ولم يكن بها مكان يمكن إخفاء شيء فيه، إلَّا إنَّه كان هناك غليون لم أرَه من قبل كبير الحجم نوعًا ما. وعندما تناولته، فوجئت بأنَّ وزنه أثقل ممَّا يوحي به شكله. فنزعت سدَّادته، وقلبت فوَّهته، فسقطت منها قنّينة صغيرة.

- "الآن أدركت ما تعنيه، ولكن أين البقيَّة؟ لا توجد غلايين أخرى". ونظرنا بعضنا إلى بعض. وفي نهاية الأمر مددنا أيدينا إلى جوف الحقيبة، وكان فرويد أسبق منِّي، فرفع الحقيبة بيده؛ ليجسّ ثقلها، وهو يهزُّ رأسه. وناولها لي وهو يهمهم: "إنَّها أثقل كثيرًا"، وطرقت بأصابعي على قاعها، فصدر عنها صوت أجوف مكتوم. وصحت مندهشًا "قاع مزيّف". وبدأت في نزع القاع الخشبيِّ، وتبدَّى لنا تحته كنز الكوكايين، حيث رقدت قوارير ملفوفة بأوراق الصُّحف، ومعها المحقن الَّذي لُفَّ بعناية في قماش مخمليٍّ أحمر داخل صندوق صغير أسود، ودون أن ننبس بكلمة، استولينا على الكنز بما في ذلك قوارير الماء. وأعدنا القاع الخشبيَّ إلى ما كان عليه، وكذلك محتويات الحقيبة، وخرجنا من الغرفة، حيث قادني فرويد إلى حمَّام صغير في الطَّابق الأوَّل، فأفرغنا كافَّة المحتويات السَّائلة الَّتي عثرنا عليها في الحوض. ووضع فرويد المحقن في جيبه، وصحبني إلى المطبخ، حيث كانت الخادمة باولا الَّتي أعطتني مقود الكلب توبي، وخرجت متَّجهة إلى الفندق الَّذي ينزل به موريارتي.

ولا بدَّ لي من وقفة هنا لأصف المدينة، الَّتي وجدتُ نفسي فيها، والَّتي قُدِّرَ لي أن أقضي بها بعض الوقت.

فيينا عام 1891، كانت العاصمة الإمبراطوريَّة في نهاية عصر ازدهار. وكانت مختلفة تمامًا عن لندن في نفس الفترة... اختلاف البحر عن الصَّحراء. فكانت لندن رطبة يلفُّها الضَّباب، تتصاعد منها روائح كريهة، ويقطنها على الأغلب ناس يتكلَّمون لغةً واحدة، ولم يكن بها أيُّ شبه بمركز إمبراطوريَّة آل هابسبورج الآيل إلى الزَّوال.

فبدلًا من وجود لسان واحد. كان المواطنون يتخاطبون بلغات متعدِّدة مستمدَّة من كافَّة أرجاء المملكة النِّمساويَّة - الهنغاريَّة - ورغم أنَّ هذه القوميَّات المتنوِّعة كانت تميل إلى العيش في أحياء خاصَّة بها، إلَّا إنَّ المناطق متداخلة. ومن المعتاد أن ترى الباعة المتجوِّلين في السُّلوفاك ينادون على مشغولاتهم اليدويَّة في الأحياء الرَّاقية. بينما تسير سريَّة من المشاة البوسنيين في طريقها إلى استعراض عسكريٍّ، وباعة الليمون من مونت نيجرو (الجبل الأسود)، وسنَّاني السَّكاكين من الصِّرب، هذا إلى جانب أهل التِّيرول وموارفيا وكرواتيا، واليهود والهنغاريين والمجرمين البوهيميين، كلّ يسعى لما جاء من أجله.

أمَّا المدينة نفسها، فكانت تنمو في دوائر مركزها كاتدرائيَّة سانت أسطيفان. وفي هذا المركز توجد أقدم (وأشيك) أحياء المدينة. وفي شارع جارين أشدّ الشَّوارع ازدحامًا وامتلاءً بالمقاهي والمحلَّات، وإلى الشَّمال منه يقع شارع برجاس الَّذي يقطن في 19 منه الدُّكتور فرويد، إلى يساره تقع قصور هوفبورج والمتاحف، والحدائق الجميلة الَّتي يُعْتَنَى بها أشدّ الاعتناء. وخارج تلك الدَّائرة الدَّاخليَّة ينتهي قلب المدينة. أمَّا الأسوار الَّتي كانت تحيط بالمدينة للدِّفاع عن فيينا العصور الوسطى، فقد تهدَّمت وسقطت من زمن بعيد، وامتدَّت المدينة إلى ما بعدها بكثير، ولكنَّ آثارها باقية في شكل شارع عريض يخترق المدينة كلَّها، وله في كلّ منطقة اسم مختلف، ولكنَّه يُعْرَف عمومًا بالطَّريق الدَّائريِّ، وينتهي عند نهر الدَّانوب شمال شرق كاتدرائيَّة أسطيفان.

وكانت المدينة - كما لاحظت - قد تخطَّت حدود العصور الوسطى بكثير، المتمثِّلة في الطَّريق الدَّائريِّ. وفي عام 1861 كانت قد تخطَّت أيضًا "جورتل"، وهو شارع واسع عريض آخر كانت أجزاء منه لا تزال تحت الإعداد عندما كنت هناك. وكان الـ"جورتل" يوازي بدرجة أو بأخرى الطَّريق الدَّائريّ، وكانت نهايته الجنوبيَّة الغربيَّة تقع تقريبًا في منتصف المسافة بين كاتدرائيَّة سانت أسطيفان وقصر شونبرون، وقصر الإمبراطورة ماريا تريزا المقابل "الهابسبورجي" لفرساي.

وإلى شمال قصر شونبرون، وإلى الشَّرق قليلًا في الزّقاق الخامس عشر تقع "بانهوف" محطَّة السِّكك الحديديَّة، الَّتي نزلنا فيها أنا وهولمز عند وصولنا إلى فيينا. وتوجد محطَّة أخرى أكبر وأضخم إلى الشَّمال الشَّرقيِّ من المدينة في الزُّقاق الثَّاني عبر نهر الدَّانوب، وتقع في وسط حيٍّ يقطنه اليهود تُسَمَّى محطَّة ليوبولد (ليوبولد شتادت). وفي هذا الحيِّ تربَّى فرويد وهو صغير - كما أخبرني - عندما سكنه آل فرويد عند نزوحهم أوَّل مرَّة إلى المدينة.

أمَّا المنزل الَّذي يقطنه فرويد حاليًّا، فهو أكثر ملاءمة من النَّاحية المهنيَّة (لقد أخطأ هولمز في أحد استنتاجاته؛ إذْ كان فرويد لا يزال يمارس الطِّبَّ) إذْ كان قريبًا من مستشفى كراكنهاوس، أعظم مستشفى تعليميٍّ في فيينا، والَّذي كان يعمل به من قبل؛ إذْ كان يعمل في قسم الطِّبِّ النَّفسيِّ تحت رئاسة الدُّكتور ثيودور مايرنت "الَّذي كان يكنُّ له إعجابًا شديدًا.

وكان مايرنت - شأنه شأن فرويد - يهوديًّا، ولم يكن هذا أمرًا لافتًا للنَّظر في الدَّوائر الطِّبِّيَّة في فيينا، والَّتي كانت - كما أخبرني فرويد - مليئة باليهود. وبدا أنَّهم يسيطرون على جانب كبير من الحياة الثَّقافيَّة والعقليَّة في المدينة. ولم أكن قد قابلت في حياتي كثيرًا من اليهود. ومن ثَمَّ، فلا أعرف الكثير عنهم، إلَّا أنّي أستطيع القول

بصراحة إنَّني لا أحمل في نفسي تحيُّزًا ضدّهم، ذلك التَّحيُّز الَّذي ينشأ عادة عن الجهل. ولم يكن فرويد - كما اكتشفت فيما بعد - شخصًا ذكيًّا لمّاحًا ومثقَّفًا فحسب، إنَّما كان أيضًا رجلًا طيّب القلب. وفيما يتعلَّق بي (رغم أنّي كنت لا أوافق على بعض بظريَّاته الَّتي وجدتها - صراحة - صادمة) كانت تلك الفضائل أكثر وزنًا بكثير من عقيدته، الَّتي كانت - بالمناسبة- موضع شكٍّ منه.

إنَّني أدرك أنَّني قد شطحت بالقارئ، وخرجت عن وصف المدينة. ولذلك لا بدَّ من العودة إلى قصَّتي. وعلى أي حال، فأنا لم أعرف فيينا دفعة واحدة، وإنَّما على أجزاء. أمَّا عن الأماكن الأجزاء الَّتي جذبت انتباهي خلال إقامتي، فلسوف نتطرَّق إليها في حينها.

بعد أن تركت توبي مع راعيه المتأفِّف، انطلقت في طريقي إلى "الجارين" - حيث يوجد مقهى "جرين شتيدل" - والَّتي كانت تحتل موقعًا متميّزًا في منتصف الشَّارع، وكنت على موعد مع الدُّكتور فرويد، في حالة بقاء صديقي هولمز نائمًا.

والحقّ أنَّ وصف "جرين شتيدل" بالمقهى لا يفيها حقّها أبدًا؛ لأنَّها لا تشبه بأيِّ حال ما نعنيه نحن الانجليز بهذه الكلمة. فالمقاهي في فيينا أقرب إلى نوادي لندن. إذْ إنَّها مركز التَّبادل الثَّقافيّ والعقليّ، حيث يمكن للمرء أن يقضي فيها يومًا طيّبًا، ولا يذوق رشفة من القهوة. وكانت "جرين شتيدل" تعجُّ بمناضد البلياردو ومجالس الشّطرنج ورفوف الصُّحف والكتب. أمَّا "الجرسونات"، فكانوا في غاية الكفاءة يغيّرون كلّ ساعة كوب الماء الموضوع أمامك على الطَّاولة، سواء أطلبت أم لم تطلب. وكانت المقاهي هي المكان الَّذي يلتقي فيه الرِّجال ليتبادلوا الحديث والأفكار، أو ليقرؤوا أو ينفردوا بأنفسهم، كما كانت أيضًا مكانًا يزيد فيه وزن الإنسان؛ إذْ إنَّ قائمة الطَّعام كانت

تشمل أفخم الفطائر والحلوى، ويحتاج الأمر إلى عزيمة قويَّة لمقاومة روائحها الزَّكيَّة.

وكان فرويد موجودًا في "جرين شتيدل" عندما وصلت - ويُزعم أنَّ هذا المقهى بالمناسبة، هو المؤسَّسة الثَّقافيَّة الوحيدة من نوعها في المدينة - وقادني الخادم إلى منضدته، وقدَّم لي قدحًا من البيرة، وأصغيتُ إليه، فأخبرني بأنَّ هولمز ما زال نائمًا، ولو أنَّه من الضَّروريّ ألَّا تطيل المكوث، ونذهب إلى المنزل سريعًا. ولم تبدُ على أيٍّ منَّا الرَّغبة في الدُّخول مباشرة إلى القضايا والموضوعات المختلفة الَّتي تحتاج إلى حلول إذا كان لنا أن نصل إلى شفاء هولمز. وعندئذٍ أخبرني فرويد بجزء من تاريخه، وبالطَّبيعة الحاليَّة لعمله. ولقد كان الكوكايين موضوعًا جانبيًّا بدرجة أو بأخرى، ولا يرتبط مباشرة بأبحاثه الحاليَّة. لقد اهتمَّ هو واثنان من الأطبَّاء بهذا العقار عندما اكتشفوا فائدته الثَّمينة كمخدِّر في عمليَّات جراحة العين.

وكان فرويد قد تدرَّب في مجال علم الأمراض العصبيِّ (النّيوروبيولوجيا). وكانت لديه معرفة بالتَّشخيص الموضعيِّ والمآل الكهربائيِّ، وهي مصطلحات لا قِبَل لممارس عامٍّ مثلي بها.

- وابتسم وقال: "نعم، لقد قطعت شوطًا طويلًا، ومررتُ بدروب متعرِّجة، ابتداءً من رسم الجهاز العصبيِّ حتَّى وصلت إلى ما أنا فيه الآن".
- "أنت مغترب إذن".
- هزَّ كتفيه وقال: "الحقيقة أنَّه لا يوجد وصف رسميٌّ لما أنا عليه الآن، فكما استنتج الهر هولمز، أنا مهتمٌّ بالحالات العصابيَّة، وهم يأتون إليَّ في معظم الأحوال، وأذهب أنا أحيانًا لرؤيتهم في منازلهم. أمَّا إلى أين ستؤدِّي بي دراستي؟

فهذا أمر لستُ متأكِّدًا منه، إلَّا أنّي قد حصَّلت الكثير من العلم بشأن مرضى الهستيريا الَّذين أدعوهم عصابيين".

وكنت على وشك أن أسأله ماذا يعني بهذا المصطلح الأخير، وعمَّا إذا كان استنتاج هولمز صحيحًا بشأن أنَّ بعض نظريَّاته لم ترُق في عيون الدَّوائر الطِّبِّيَّة، عندما توقَّف فجأة، واقترح أن نعود إلى المنزل؛ لنرى مريضنا. وبينما كنَّا نشقُّ طريقنا بين المناضد وجماعات المتناقشين في الفنِّ والأدب، اقترح عليَّ أن أصحبه في إحدى جولاته، بحيث أرى الأشخاص الَّذين يعالجهم، وأعراضهم بنفسي، وقبلت بكلِّ سرور. وبدأنا السَّير خلال "الجارين" المزدحم، وامتطينا عربة يجرُّها حصان، وتجري على قضبان مثل التِّرام.

وسألته بعد أن جلسنا : "هل تعرف طبيبًا انجليزيًّا اسمه "كونان دويل"؟ فضمَّ شفتيه في محاولة للتَّذكُّر. ثمَّ سألني بعد هنيهة: "أكان من الضَّروريّ أن أعرفه؟".

- "ربَّما، فقد درس لبعض الوقت في فيينا، وتخصَّص في طبِّ العيون مثل زميليك".
- "كونجشتاين كولر؟".
- أجل... "ربَّما تكون قد تعرَّفت عليه عندما كان يدرس هنا".

فقال باقتضاب: "ربَّما"، ولم تحمل إجابته أيّ عرض من جانبه أنْ يسأل زميليه إذا كانا قد عرفا دويل. وربَّما كانا من بين زملائه الَّذين قاطعوه.

- وسألني: "وما علاقتك بالدُّكتور دويل؟". قالها وكأنَّه يحاول إزالة انطباع الاقتضاب الَّذي خلقته إجابته.

- "الحقيقة أنَّ اهتمامي به ليس طبّيًا؛ فهو يكتب كتبًا أكثر من ممارسة الطِّبِّ هذه الأيَّام؛ ونتيجة لنفوذه لدى بعض المجلَّات الأدبيَّة بانجلترا، أُدِيْنُ له بالفضل في جعل تلك المجلَّات تنشر مذكِّراتي المتواضعة لمغامرات شرلوك هولمز؟". وتركنا عربة التِّرام عند تقاطع فارنجر وبرجاس، وتوجَّهنا مشيًا على الأقدام إلى منزل فرويد.

وما أن تخطَّينا عتبة الدَّار حتَّى سمِعنا جلبة فظيعة في الطَّابق الأعلى. واندفعنا مارِّين في طريقنا بالخادمة باولا وامرأة أخرى قُدِّمتْ لي فيما بعد على أنَّها "فراو فرويد". ولاحظت بالكاد فتاة صغيرة تقارب الخامسة، وهي تمسك بأعمدة السّلّم في فزع. وقد أصبحنا صديقين فيما بعد أنا وأنا فرويد، ولكن في تلك اللحظة لم يكن هناك وقت للتَّعارف؛ فقد اندفعنا أنا وفرويد إلى الغرفة، حيث كان هولمز ينثر محتويات الحقيبة في جنون، وصدره مفتوح، وشعره منفوش، بالإضافة إلى تقلُّصات جسمه وعضلاته بطريقة بدا منها أنَّه فَقَدَ السَّيطرة عليها.

عند دخولنا إلى الغرفة، استدار إلينا وعيناه تقدحان شررًا.

وصرخ: "أين هي؟ ماذا فعلتما بها؟".

وتطلَّبَ الأمر جهودًا مضنية من جانبنا لتهدئته وإخضاعه، وكنَّا كمَن يخطو برجليه إلى أعماق الجحيم.

كان التَّنويم ينفع أحيانًا، ولا ينفع أحيانًا أخرى. وكان يمكن إحداثه أحيانًا عن طريق إعطاء مهدِّئات مسبقًا إلى هولمز، ولكنَّ فرويد كان ينفر من ذلك إذا كانت هناك فرصة للنَّجاح من دونه.

وفسَّر لي ونحن نتناول وجبة خفيفة في مكتبه قائلًا: "يجب ألَّا يبدأ في الاعتماد على المهدِّئات".

وكان من الضَّروريّ بالطَّبع أن يظلَّ أحدنا قائمًا بحراسته حتَّى يحميه من إيذاء نفسه أو إيذاء الآخرين، وذلك أثناء الفترات الَّتي لا يمكن اعتباره فيها مسؤولًا عن تصرُّفاته. وشيئًا فشيئًا بدأ هولمز يكره رؤيتنا، وكذلك رؤية الخادمة باولا الَّتي كانت رغم خوفها منه تستمرُّ في أداء عملها بعزم وتصميم مبديةً الاهتمام وحسن النِّيَّة.

وكان دكتور فرويد وعائلته يفهمون ثورات الغضب عند هولمز، ولا يعبؤون بها، رغم سفالتها وانحطاطها، ولكنَّني تأثَّرت أعظم التَّأثُّر لتلك الشَّتائم والإهانات، فلم أكن أظنّه قادرًا على التَّلفُّظ بمثل هذه القبائح. وكنت عندما أدخل عليه الغرفة لمؤانسته وملاحظته يصبُّ عليَّ من الشَّتائم ما يؤلمني، ولا يزال كما تذكَّرته اليوم. فكان يصفني بالغباء، ويلعن نفسه لاحتماله صحبتي، وأنا المتخلِّف العقل والأحمق المأفون.

ومن الطَّبيعيِّ أن تتصوَّروا مدى ما كنت أعاني؛ لأتحمَّل تلك الإهانات والشَّتائم والبذاءات، ولكن حزَّ في نفسي أنَّه في اليوم الثَّالث حاول أن يدفعني ويخرج إلى الممرِّ، وكنت مضطرًا أن أمنعه بضربة قويَّة على أمِّ رأسه، وأعترف أنَّ السَّبب لضربي له بهذه الشِّدَّة هو ذلك الغضب الَّذي كان يعتمل في نفسي، فقد كانت الضَّربة من الشِّدَّة بحيث أُغْمِيَ عليه... الأمر الَّذي أفزعني، وصحتُ في طلب النَّجدة، وأنا أدقُّ على صدري لفشلي في التَّحكُّم في أعصابي.

وقال فرويد، وهو يربِّت على كتفي بعد أن حملنا هولمز إلى فراشه:

"لا يحزنك الأمر يا دكتور واطسون، فكلُّ ساعة يقضيها غائبًا عن الوعي تزيد من فرصتنا. لقد أنقذتني من جلسة تنويم، ويبدو ممَّا وصفته لي أنَّ جلسات التَّنويم لن تصبح مجدية بعد ذلك".

وفي تلك الليلة استيقظ هولمز، وقد ارتفعت درجة حرارته، وأخذ يهذي، وجلسنا أنا وفرويد بجانبه على السّرير نحاول التَّحكُّم في حركاته العصبيَّة، وهو يهذي عن كيف أنَّ المحار البحريّ سوف يغزو العالم، وما شابه ذلك من خرافات. بينما فرويد ينصت إلى هذيانه بانتباه كامل. وسألني خلال إحدى فترات السُّكون: "هل هو مغرم بالمحار؟". فهززت كتفيَّ في حيرة لا أدري كيف أجيب[1].

وخلال ملاحظته في الليل كنَّا نتناوب مع باولا، كما حظينا بليلة سهرتْ فيها فراو فرويد، وكانت امرأة جذَّابة، لها - مثل زوجها - عينان سوداوان حزينتان لا تخلوان من دعابة، وفم رقيق ينمُّ عن الحزم، وقوَّة الشَّكيمة، وفي إحدى المرَّات، اعتذرت لها عمَّا نسبِّبه لها - أنا وصديقي - من إزعاج.

فقال ببساطة: "لقد قرأت أنا أيضًا رواياتك عن قضايا الهر هولمز، ومن المعروف أنَّ صديقك شخص فائق الشَّجاعة عظيم القدر، وهو يحتاج إلى مساعدتنا الآن مثلما احتاج إليها صديقنا السَّابق - وافترضت أنَّها تشير إلى صديق فرويد التَّعيس الَّذي ذكره في مقالته الَّتي نُشِرَتْ بمجلَّة "لانست" - "وأعتقد أنَّنا لن نفشل هذه المرَّة".

---

(1) يؤدِّي المحار دورًا كبيرًا في لا شعور هولمز؛ إذْ إنَّه تصنَّع الهذيان في مغامرة "وفاة المخبر السّرّيّ". كان يهذي بفكرة أنَّ العالم سيغزوه المحار، ومن المعروف أنَّه يحبُّ تناول المحار. فهل كان هذا الهذيان محاولة منه للسَّيطرة على مخاوفه؟ هذا أمر متروك للمتخصِّصين في علم النَّفس كي يدرسوه (نيكولاس مايير).

استمرَّت الحمَّى والهذيان عند هولمز ثلاثة أيَّام متتالية أخرى، كان من المستحيل خلالها أن ندخل إلى جوفه أيّ غذاء. وكان البقاء بجانبه جهدًا مضنيًا - حتَّى ولو نلنا قسطًا من الرَّاحة - فقد وصلت تشنُّجاته وهذيانه، بعد أن استمرَّت لمدَّة ستِّ ساعات في الليلة الثَّالثة - وصلت درجة أزعجتني بحيث اعتقدت أنَّه على وشك الإصابة بحمَّى في المخِّ. وعندما عبَّرت عن رأيي هذا لسيجموند فرويد، هزَّ رأسه، بالنَّفي وقال: "الأعراض متشابهة جدًّا، ولكنّي أعتقد أنَّنا لا نخشى حدوث حمَّى في المخِّ. إنَّ ما نراه هو الخلجات الأخيرة لسيطرة المخدِّر عليه، إنَّ التَّعوُّد على المخدِّر ينتزع انتزاعًا من جسمه. فإذا مرَّت تلك الأزمة بسلام، أي إذا عاش، فإنَّنا سنكون قد وصلنا إلى نقطة التَّحوُّل في طريق التَّعافي".

- "إذا عاش؟".

- "نعم، النَّاس يموتون في مثل هذه الأزمات".

وجلست بجانب سريره أراقبه، وأنا عديم الحيلة. بينما تنتابه التَّشنُّجات، ويستمرُّ صراخه بلا هوادة إلَّا من فترات قليلة كانت كلّ وظيفتها فيما أرى هي زيادة قدرته على الصّراخ. وحوالي منتصف الليل أصرَّ الدُّكتور فرويد على أن أذهب إلى سريري؛ لأنال قسطًا من الرَّاحة، مشيرًا إلى ضرورة استجماع قوَّتي حتَّى أكون ذا نفع لصديقي في محنته الكبرى. وذهبت إلى غرفتي على كرهٍ منِّي.

كان النّوم مستحيلًا، حتَّى لو استطعت ألَّا أسمع صرخات هولمز وأنينه اللذين كانا يخترقان الحوائط، فإنَّ مجرَّد معرفتي بالعذاب الَّذي يمرُّ به كان كافيًا ليقضي مضجعي. فهل يا تُرَى كان الأمر يستحقُّ كلَّ ذلك العناء؟ ألَا توجد وسيلة أخرى لإنقاذه دون المرور بهذا العذاب الأليم، الَّذي قد يؤدِّي إلى موته؟ ورغم أنَّني لم أكن من

معتادي الصَّلاة، ومع إدراكي أنَّ ما أقوم به هو نوع من النِّفاق. فلم أستطع أن أمنع نفسي من الرُّكوع والتَّضرُّع إلى الخالق العظيم بمنتهى الخشوع والخضوع أن ينقذ صديقي. ولم أكن متأكِّدًا من نتيجة صلاتي، ولكنَّها على الأقلِّ دفعتني إلى النّوم العميق.

وفي اليوم الرَّابع منذ بدأت الحمَّى والهذيان، استيقظ شرلوك هولمز تبدو عليه السَّكينة، وحرارته طبيعيَّة.

وعندما دخلت غرفته لأحلَّ محلَّ باولا، نظر إلى نظرة حزينة، وسأل بصوتٍ ضعيفٍ كان يستحيل عليَّ التَّعرُّف عليه: "أهذا أنت يا واطسون؟". فأجبته بالإيجاب، وسحبت مقعدًا لأجلس إلى جانب سريره، وفحصته، وأخبرته أنَّ الحمَّى قد انقشعت.

وأجابني بلا مبالاة: "حقًّا".

- " نعم، أنت في طريقك إلى الشِّفاء يا صديقي العزيز".
- "حقًّا".

واستمرَّ يحملق فيَّ، أو بالأحرى فيما ورائي، وقد امتلأ وجهه بتعبير يدلُّ على الخواء، ولا تبدو عليه أيّ معرفة بالمكان، ولا أيّ فضول بشأن ما أتى به إلى هنا.

ولم يعترض عندما جسست نبضه، وكان ضعيفًا جدًّا، ولكنَّه منتظم، كما لم يقاوم تناول الطَّعام الَّذي أتت به فراو فرويد بنفسها على صينيَّة. وتناول كمّيَّة ضئيلة من الطَّعام تحت الإلحاح والتَّشجيع. وكانت تبدو عليه الرَّغبة في تناول الطَّعام، إلَّا إنَّه كان يجب تذكيره بأنَّ الطَّعام موجود أمامه، وكان هذا التَّحوُّل إلى الهمود بعد ما سبقه من هبَّات عنيفة، وهذيان وحمَّى من أغرب ما مرَّ بي في تلك الحالة.

ولم يرضَ فوريد عن ذلك الوضع أيضًا عندما عاد من جولته لعيادة مرضاه، وفحص المريض المقيم لديه، وعبس وجهه، وسار إلى النَّافذة

الَّتي كان يرى من خلالها النِّهايات المدبَّبة لأبراج كاتدرائيَّة سانت أسطيفان - وهو منظر بالمناسبة يكرهه أشدّ الكره. وربَّت على يد هولمز، وانضممت إلى فرويد عند النَّافذة.

- "ماذا ترى؟".

- "يبدو أنَّه قد عبر منتصف الطَّريق في التَّخلُّص من الإدمان. ويمكن بالطَّبع أن ينتكس في أيِّ لحظة، هذه هي لعنة الاعتماد على المخدِّرات".

وأضاف بلهجة يبدو فيها عدم الاهتمام: "سيكون من المهمِّ أن أعرف كيف تعرَّف على الكوكايين".

وأجبته بصدق: "لقد وجدته في مسكنه منذ أن تعرَّفت عليه. ويقول إنَّه يتعاطاه بسبب الملل وقلَّة النَّشاط".

وتحوَّل فرويد إليَّ مبتسمًا، وقد بدت على ملامحه علامات العطف والحكمة الَّتي لاحظتها فيه منذ أن وقعت عيناي عليه:

"هذا ليس سببًا كافيًا ليسير المرء في طريق الدَّمار... على أيّ حال".

وسألته محاولًا إخفاء القلق في صوتي: "ماذا يقلقك؟ لقد قلت إنَّنا قد تمكَّنَّا من انتزاعه من براثن المخدِّر الشَّيطانيِّ".

- مؤقَّتًا، ولكن يبدو أنَّنا انتزعنا منه أيضًا روحه المعنويَّة. وهناك حكمة قديمة تقول إنَّ الشِّفاء قد يكون أحيانًا أمرّ من المرض".

- "وماذا نفعل إذن؟ هل نسمح له بقتل نفسه بهذا السّمِّ؟".

وتحوَّل فرويد إليَّ، وقد وضع إصبعه على شفتيه، وربَّت على كتفي، وقال: "صبرًا"، وسار إلى سرير هولمز، وسأله بلطف وهو يبتسم: "كيف حالك؟".

ورماه هولمز بنظرة، ولكنَّ عينيه كانتا تسبحان في اللا نهاية: "لست في حالة حسنة".

- "هل تتذكَّر الدُّكتور موريارتي؟".

- "العبقريّ الشِّرِّير؟". ولاح على شفتيه شبح ابتسامة:

- "ماذا بشأنه؟".

- "أعلم ماذا تريدني أن أقول يا دكتور، حسنًا، سأرضيك، إنَّ المرَّة الوحيدة الَّتي شغل فيها البروفيسور موريارتي دور العبقريِّ الشِّرِّير في حياتي كانت عندما استغرق منه الأمر ثلاثة أسابيع؛ ليشرح لي غوامض وألغاز حساب التَّفاضل والتَّكامل". وأجابه فرويد بهدوء: "ما يهمّني ليس قولك إيَّاها، وإنَّما إدراكك لها كحقيقة واقعة".

وسادت فترة صمت.

- "أنا أفهم ذلك" همس هولمز بتلك العبارة الَّتي كانت تحمل منتهى الذُّلّ والمعاناة اللتين يمكن لكائن إنسانيٍّ أن يمرَّ بهما"، وحتَّى فرويد الذَّكيّ كان عناده لا يقلُّ عن عناد هولمز، كره أن يقطع ذلك الصَّمت الطَّويل الَّذي تلا الاعتراف الرَّهيب.

وكان هولمز نفسه هو الَّذي قطع حبل الصَّمت، ودار ببصره في الحجرة، ورآني، ودبَّ في ملامحه نبض الحياة.

- "واطسون؟ اقتربْ منِّي يا صديقي العزيز". أنت صديقي القديم. أليس كذلك؟".

- "أنت تعلم ذلك جيِّدًا".

- "أجل... أجل" واضطجع على الوسادة الَّتي وضعها خلف رأسه، ونظر إليَّ، وقد بدا الانزعاج على ملامحه وقال: " أنا لا

أذكر الكثير ممَّا دار خلال الأيَّام القليلة الماضية...". وقاطعته بإشارة من يدي:

- "لقد ذهب الماضي إلى غير رجعة، فلا تستعده "لقد انتهى الأمر".

- فأصرَّ على متابعة كلامه: "أقول إنَّني لا أذكر الكثير، ولكنّي أتذكَّر أنَّني صرخت في وجهك، وانهلت عليك بكافَّة أنواع الشَّتائم"، وابتسم ابتسامة مَن يقلِّل من شأن نفسه، وقال: "هل فعلت ذلك حقًّا يا واطسون؟ أم أنَّني أتخيَّل ذلك؟".

- "أنت تتخيَّله فعلًا يا صديقي العزيز. والآن ارقد واسترح".

واستمرَّ في الحديث: "وإذا كنت قد فعلت ذلك، فأرجو أن تعلم أنَّني لم أقصده. هل تسمعني يا عزيزي؟ إنّي أتذكَّر بوضوح أنَّني وصفتك بيهوذا، أرجو أن تصفح عنِّي لهذا القول الشَّنيع، هلَّا صفحت عنِّي".

- "أرجوك يا هولمز...".

وتدخَّل فرويد: "من الأفضل أن نتركه الآن. إنَّه سيخلد إلى النّوم". ونهضت، وأسرعت خارجًا من الغرفة وعيناي مليئتان بالدُّموع".

الفصل التّاسع

الكمان ولعبة التّنس

حـذَّرني سـيجموند فرويـد ألَّا نفقـد صبرنـا في مراقبـة هولمـز. فرغـم أنَّـه قـد بـدا عليـه أنَّـه فقـد اشـتياقه للكوكايـين، فـإنَّ اليقظـة فيـما يتعلَّـق بالمخـدِّر وطـرق الحصـول عليـه يجـب أن تظـلَّ صارمـة كـما كانـت. كانـت قـد راودتنـي فكـرة العـودة إلى انجلـترا، باعتبـار أنَّ أسـوأ الفـترات قـد مـرَّت، وهـو الأمـر الَّـذي أكَّـده لي فرويـد، ولكنَّـه رجـاني أن أبقـى؛ إذْ مـا زالـت معنويَّـات هولمـز منخفضـة بشـكل مزعـج، فـكان مـن الصَّعـب إقناعـه بتنـاول الطَّعـام، كـما كان مـن المسـتحيل أن نعيـده إلى عالمـه. لقـد كان في أمـسِّ الحاجـة إلى صديـق، وهكـذا وافقـت عـلى البقـاء لفـترة.

وتبادلـت البرقيَّـات مـع زوجتـي، أوجـزت فيهـا الموقـف، ورجوتهـا أن تصـبر عـليَّ، واسـتجابت هـي بـكلِّ عطـفٍ وتشـجيع، وأخبرتنـي أنَّ دكتـور كولينجـوورث يراعـي العيـادة، وأنَّهـا سـتخبر مايكروفـت هولمـز بأنبـاء تقـدّم أخيـه.

وكان تقدُّم هولمز بطيئًا جدًّا. وإذا كان قد فقد اهتمامه بالمخدِّر، فلم تبدُ عليه علامات الاهتمام بأيّ شيء آخر. وكنّا نرغمه على تناول الطَّعام، ونلحُّ عليه حتَّى يرضى أن يتمشَّى في الحدائق بجوار هولبورج. وفي تلك المناسبات الَّتي كان يتنزَّه فيها معنا في الحديقة، كان يظلُّ شاخصًا إلى الأرض، ولا ينظر في أيّ اتِّجاه آخر. ولم أدرِ... هل أحزن أم أفرح بهذا التَّقدُّم، وكنت أعلم النَّاس بطباع هولمز، وأدرك أنَّه نادرًا ما كان يلقي بالًا إلى المناظر الطَّبيعيَّة، وكان يفضِّل دراسة آثار الأقدام. ولكن كلَّما حاولت أن أجرّه إلى الحديث عن الموضع، وأسأله ماذا أستنتج من ملاحظة الأرض، كان يستجيب بلهجة متعبة طالبًا منِّي أن أكفَّ عن رعايته، ثمَّ يصمت.

وأصبح الآن يتناول وجباته مع بقيَّة الأسرة صامتًا، رغم كلّ المحاولات الَّتي نبذلها لجرِّه إلى الحديث، ولا يتناول من الطَّعام إلَّا أقلّه. وكانت مناقشات الدُّكتور فرويد لحالات مرضاه لا تجذب انتباهه أيضًا، وأخشى أنَّني أيضًا نادرًا ما كنت أسمع شيئًا من حالات الدُّكتور بسبب انشغالي بهولمز وحالته. إلَّا أنّي أتذكَّر بشكل دائم أنَّه أشار إلى تلك الحالات بأسماء غريبة. فأحيانًا يشير إلى الرَّجل الفأر، أو الرَّجل الذِّئب. وأحيانًا كان يشير إلى شخص أطلق عليه "Anna O" "آنا أو". وقد أدركت أنَّه يخفي شخصيَّات هؤلاء النَّاس بسبب الأمانة المهنيَّة، إلَّا إنَّ اختياره لتلك الأسماء المستعارة ينمُّ عن روح فكاهيَّة كامنة، أو على الأقلّ، عن موهبة في تشبيه الصِّفات الإنسانيَّة. كثيرًا، عندما كان يغلبني النّوم، وتحلِّق أفكاري هنا وهناك، كنت أتذكَّر تلك اللمحات من الحديث على مائدة فرويد، وأبتسم، وأنا أفكِّر في الرَّجل الَّذي يشبه الفأر، والآخر الَّذي يشبه الذِّئب. أمَّا "آنا أو"، فهل يا ترى كانت مستديرة أم بيضاويَّة الشَّكل؟".

ومن الغريب أنَّ العضو الوحيد في الأسرة الَّذي بدا أنَّه يستثير إجابة من هولمز هو "آنا" أخرى، ابنة فرويد الصَّغيرة، وكانت

طفلة رائعة - ولست عادة من الّذين يحبُّون الأطفال -[1] تلفت النّظر. وبعد اليوم الأوّل، لم تعد نوبات هولمز تثير خوفها، وأصبحت تعامله بحرّيّة. ولعلّ غريزتها هدتها إلى أن تتعامل معه بهدوء، ففي ذات يوم بعد العشاء، عرضت عليه أن تريه عرائسها، وقبلَ هولمز بطريقة جادّة مفرطة في الأدب، واتّجهت إلى الصُّندوق الّذي تحتفظ فيه بعرائسها، وكنت على وشك النُّهوض من مقعدي لأتبعها، عندما أشار إليّ فرويد بيده أن أبقى في مكاني. وقال مبتسمًا: "يجب ألّا نكتم أنفاسه برعايتنا له"، وأضافت فراو فرويد: "وكذلك آنا"، وطلبت لنا مزيدًا من القهوة.

وفي الصّباح التّالي، كنت راقدًا في سريري، أفرك النّوم من عيني عندما تناهت إليّ أصوات صادرة من الحجرة المجاورة، ونظرت في ساعتي، وتأكّدت أنّ الوقت لم يقارب الثّامنة بعد، كما تناهت إليّ أصوات من الطّابق الأرضيّ، أدركت منها أنّ باولا لا تزال في المطبخ، وأنّ بقيّة الأسرة لا تزال نائمة، فما الأمر يا ترى؟

وتسلّلت بهدوء متّجهًا إلى الباب المشترك بين غرفتينا، ونظرت من ثقب الباب، وإذا بهولمز يجلس على السّرير في هدوء مع آنا الصّغيرة، وكانت جالسة في نهاية السّرير. ولم أستطع أن أسمع ما يدور بينهما، ولكن بدا لي أنّه حديث ممتع، فكانت الطِّفلة تلقي أسئلة على هولمز، وهو يحاول جهده أن يجيب عليها. وسمعته يضحك، وانسحبت بهدوء بعيدًا عن الباب حتّى لا تُفْسِد أيّ حركة منّي التّجاوب الّذي كان يدور بينهما.

---

(1) هل يعني هذا التّصريح أنّ ذلك ربّما كان سببًا في أنّ واطسون لا يذكر أطفاله أبدًا، بل لا يذكر أنّه أنجب؟

وبعد تناول الإفطار، اختار هولمز أن يبقى في المكتبة بهدف قراءة بعض أعمال ديستويفسكي بدلًا من أن يصاحبنا إلى مومبرج، نادي فرويد الخاصّ الَّذي يمارس فيه لعبة التِّنس في الصَّالة المغلقة.

وحاولنا إغراءه بالانضمام إلينا ونحن على وشك المغادرة، فقال متوجِّهًا بالحديث لفرويد: "سيؤكِّد لك واطسون أنَّني لا أهتمُّ البتة بالرِّياضة من أجل الرِّياضة، ويجب ألَّا تعزو تخلُّفي إلى أيِّ دوافع أخرى خاصَّة بمرضي".

وقرَّر فرويد ألَّا يضغط عليه، وتركناه في رعاية السَّيِّدات - فراو فرويد وباولا والصَّغيرة آنا - وانطلقنا.

كان نادي مومبرج الَّذي يقع جنوب هوفبرج يختلف عن أندية لندن الَّتي أعرفها. فقد كان مكانًا مخصَّصًا للرِّياضة، بينما كانت المقاهي تكمل الجانب الاجتماعيَّ والثَّقافيَّ الَّذي ينقصه.

وكان النَّادي يحتوي، طبعًا، مطعمًا وبارًا، ولكنَّ فرويد لم يكن معتادًا على ارتيادها، أو على إقامة علاقات اجتماعيَّة مع الأعضاء. وأخبرني أنَّه يستمتع بلعبة التِّنس، ولا يستخدم من مزايا النَّادي سوى ملاعب التِّنس بقصد التَّرويح، لا أكثر ولا أقلّ. ولم أكن أنا نفسي أمارس هذه اللعبة، ولكنّي رغبت في أن أشاهد النَّادي، وأهرب لفترة من التَّأثير المملّ لمعركة هولمز الَّتي تجعلني دائم اليقظة والاكتئاب، ويبدو أنَّ فرويد قد أحسَّ بذلك، ومن هنا كانت دعوته لي.

وكانت ملاعب التِّنس تقع داخل هيكل كبير من الحديد أشبه بالصُّوبة، سقفها مغطّى بالزُّجاج؛ ليسمح لضوء الشَّمس بالدُّخول، وفي الدَّاخل كانت هناك مدافئ لتدفِّئ المكان في الأشهر الباردة. أمَّا أرضيَّة الملاعب، فكانت من الخشب المصقول اللامع ترنُّ فيه أصوات الكرات أثناء ارتطامها به.

ودخلنا غرفة الملابس، حيث كان فرويد يحتفظ بملابس اللعب، ومررنا بجماعة من الشَّباب يحتسون البيرة في أكواب من الزُّجاج الرَّقيق. وقد مدّوا أرجلهم على المقاعد، ووضعوا المناشف على رقابهم، وعندما مررنا بهم سمعت واحدًا منهم يغصُّ بشرابه، ويضحك ضحكة مكتومة وهو يقول: "يهوديٌّ في المومبرج. لقد أصبح هذا المكان مأوى للكلاب منذ أن زرته لآخر مرَّة".

وكان فرويد يسير أمامي، فتوقَّفَ وواجه الشَّابَّ الَّذي تظاهر بأنَّه منهمك في الحديث مع زميل له - ولو أنَّهما هما الاثنان لم يكفَّا عن الضّحك - وعندما استدار إلينا، وعلى وجهه علامة الاستفهام، دُهِشْتُ لمرأى ملامحه. كانت تقاطيع وجهه جميلة، وكان مظهره الخارجيّ باردًا، زاد من بشاعته ندبة لضربة سيف قبيحة على خدِّه الأيسر. والواقع أنَّ وجهه كلّه بدا بتأثير هذا الجرح المخيف غاية في البشاعة، بينما كانت عيناه الباردتان اللتان لا تطرفان، تعطيانه مظهر الطُّيور الجارحة. ولم يكن يتعدَّى الثَّلاثين إلَّا إنَّ الخبث الَّذي في وجهه يرجع إلى آلاف السِّنين.

- وسأله فرويد بهدوء وهو يخطو نحوه: "هل كنت تعنيني؟".
- أرجو المعذرة، وتحوَّل إلى شخص يسيل براءة وعذوبة، بينما فمه القاسي يمتلئ بالابتسام، إلَّا إنَّ عينيه ظلَّتا بلا تعبير.

وقال فرويد: "قد يهمُّك أن تعلم يا سيّدي، أنَّه منذ أن وطئت قدماك هذا المكان آخر مرَّة - ويبدو لي أنَّك لم تطأه قطُّ أو تبدو جاهلًا تمامًا بطبيعة تكوين هذا النَّادي، وكذلك بآداب السُّلوك فيه - أنَّ أكثر من ثلث أعضاء النَّادي من اليهود".

ودار على عقبيه منصرفًا تاركًا خلفه عاصفة من الضّحك. وتحوَّل لون الشَّابّ ذي النُّدبة إلى لون أحمر قانٍ، بينما أحنى رأسه ليستمع

إلى بعض الهمسات من زملائه وهم يتتبَّعون بأعينهم شخص فرويد، وهو يتحرَّك منصرفًا.

وصاح الشَّابُّ فجأة من خلفه: "أنت الدُّكتور فرويد؟ أظنّك نفس الشَّخص الَّذي طلب منه مستشفى كرانكنهاوس أن يستقيل من عضويَّته بسبب تأكيده "الظَّريف" أنَّ الأطفال الصِّغار يضاجعون أمّهاتهم؟ وبالمناسبة يا دكتور هل ضاجعت أمّك؟".

وتجمَّد الدُّكتور في مكانه، ثمَّ التفت إلى محدِّثه، وقد امتقع وجهه امتقاعًا شديدًا:

- "أنت شخص سخيف"، وتحوَّل مرَّة أخرى لينصرف بعد أن ردَّ الإهانة، ولكنَّ ذلك الشَّخصَ نهض على قدميه، وألقى بكأسه على الأرض لتتحطَّم، وصاح في غضب: "هل لك أن تبارزني يا سيّدي؟ سأرسل لك شاهدين". ونظر فرويد إليه، من الأعلى للأسفل، وارتسمت على شفتيه شبه ابتسامة، وقال: "وبعدين معاك؟ أنت تعلم أنَّ السَّادة لا يتبارزون مع اليهود. أم أنَّك لا تعرف قواعد الإتيكيت؟".
- "أنت ترفض إذن؟ هل تعرف مَن أنا؟".
- "لا أعلم مَن أنت، ولا أهتمُّ بذلك. اسمع، سأطرح عليك بديلًا: أراهنك على أن أهزمك في مباراة التِّنس، هل يرضيك هذا؟".

وعند هذه اللحظة، تدخَّل بعض أصدقاء الشَّابّ، ولكنَّه دفعهم بيده بقوَّة دون أن يحوِّل ناظريه عن فرويد الَّذي جلس بهدوء يستبدل حذاءه، ويتناول مضربه للتِّنس:

- "حسنًا يا دكتور، سوف أقابلك في الملعب".

وأجاب فرويد دون أن يهتمَّ بالنَّظر إليه: "سأوافيك حالًا".

وسرعان ما انتشرت قصَّة المباراة خلال النَّادي حتَّى إنَّنا عندما وصلنا إلى الملعب، كان حشد من النَّاس قد اجتمع، والتفَّ حول الشَّابِّ ذي النُّدبة عددٌ من زملائه، وأخذ بعضهم يفحص كرات التِّنس، كما لو كانت رصاصات.

وحاولت أن أحذِّر فرويد، ونحن نرتقي السّلّم: "ألَا تجد هذا الأمر سخيفًا؟".

- فأجاب دون تردُّد: "إنَّني أجده سخيفًا أشدَّ السَّخافة، ولكنَّه على كلِّ حال لا يبلغ في سخافته مبلغ محاولة قتل بعضنا بعضًا".
- "ألَا تخشى أن تُهْزَمَ في المباراة؟".
- "يا عزيزي الدُّكتور، إنَّها ليست إلَّا لعبة".

ربَّما بدا الأمر لعبةً في نظر فرويد. أمَّا خصمه، فقد كان يأخذ الأمر بجدِّيَّة شديدة. واتَّضح ذلك من اللحظة الأولى في الملعب. كان أكبر جسمًا، وأقوى وأكثر تدريبًا من الطَّبيب، وكان الاثنان يعلمان ذلك. وكان الشَّابُّ يضرب كراته في العمق وبدقَّة كبيرة، وكان فرويد يحاول صدّها بأقصى ما يستطيع، ولكن لم تكن تبدو عليه مظاهر الإحباط عندما كان يفشل في صدِّها. وبهذا الشَّكل، فَقَدَ أوَّل شوطين في المباراة؛ إذْ لم يحرز فيهما إلَّا نقطة أو نقطتين.

وفي الشّوط الثَّالث تحسَّن قليلًا، ووصل إلى التَّعادل قبل أن يُهْزَمَ فيه. وقمت بإحضار بعض الماء للدُّكتور خلال الفترة الَّتي يتمُّ فيها تبادل الأماكن، وقلت له مشجِّعًا وأنا أناوله الإسفنجة: "لقد تحسَّن أداؤك في الشّوط الأخير".

- "وما زلت آمل في أن أتحسَّن أكثر". قالها فرويد وهو يمسح بالإسفنجة حول رقبته. إنَّ طريقة لعبه هجوميَّة فقط، كما أنَّه لا يستخدم ظاهر اليد. ألم تلحظ ذلك؟

وهززت رأسي بالنَّفي:

- "ولكن هذا هو الواقع، فكلُّ نقطة كسبتها منه كانت موجَّهة إلى ظاهر اليدِّ، لاحظ اللعب".

وأخذت ألاحظ الشّوط شأني شأن المائتين[1] من المتفرِّجين المتحمِّسين، وتحوَّل المدّ الآن ببطء، ولكن بعزم. وبدأ فرويد يكسب نقطة بعد نقطة من خصمه الشَّابّ، وفي البداية لم يستوعب خصمه ماذا كان يحدث، ولم يدرك استراتيجيَّة فرويد المتعمَّدة إلَّا بعد الشّوط الثَّالث، وأدرك نقطة ضعفه، وأخذ يقف في شمال الملعب محاولًا مواجهة تكتيكات الدُّكتور. واستطاع بذلك أن يكسب نقطة أو نقطتين، إلَّا إنَّ فرويد أدرك مقصده، فأخذ يوجه ضرباته إلى الجانب الأيسر بعيدًا عن موقف خصمه. ولكن لمَّا سارع الخصم بصدِّ تلك الكرات اليمينيَّة، كان يكشف نقطة ضعفه، فيردّ فرويد يتوجيه الكرة إلى اليسار مرَّة أخرى. ولم يكن اللعب سهلًا، ولكنَّ الشَّابَّ ذا النُّدبة وُضِعَ في موقفٍ لا يُحْسَد عليه، فقد أُجْبِرَ على أن يتَّخذَ موقفًا دفاعيًّا، وأخذ فرويد يدفعه إلى الجري من اليمين إلى اليسار، بينما وقف هو في موضع ثابت، واستولى الغضب على الشَّابّ الشَّرس؛ ممَّا أوقعه في أخطاء لم تكن لتحدث لو كان متمالكًا لأعصابه، وأخيرًا انتهت المباراة بعد أن استمرَّت ما يقرب من ساعة. وكانت النَّتيجة ستَّة أشواط لفرويد مقابل ثلاثة لخصمه.

---

(1) يبدو أنَّ ذاكرة واطسون قد خانته، فبمراجعة مساحة صالة المومبرج، اتَّضح لي أنَّها لا تستوعب أكثر من مائة، وعلى أيِّ حال، فإنَّ هذه الواقعة غير معروفة في حياة فرويد، ولم يدوِّنها إرنست جولز مؤرِّخُ فرويد.

واقترب فرويد من الشَّبكة بهدوء، واستفسر من خصمه قائلًا: "هل سلمَ الشَّرف الرَّفيع من الأذى؟"، وأعتقد أنَّ الشَّابَّ كان على وشك الإمساك بخناق فرويد، لولا أن تدخَّل أصدقاؤه وحالوا بينهما بالقوَّة.

وفي غرفة الملابس، استحمَّ فرويد، وبدَّل ملابسه دون أن ينبس بأيّ كلمة، اللهمَّ إلَّا الشُّكر على تشجيعي له. وانطلقنا عائدين إلى 19 شارع برجاس.

ونادى فرويد على عربة وهو يقول: "على الأقلِّ، لقد حصلت على مباراة التِّنس، ولم أنتظر حتَّى أجد ملعبًا خاليًا".

وسألته بعد أن جلسنا في العربة، وبعد تردُّد: "وماذا عن التَّعليق الَّذي ذكره ذلك الرَّجل...؟ أتزعم فعلًا أنَّ الأولاد...؟". وابتسم لي، بينما سادَ وجهه ذلك التَّعبير الحزين الَّذي أصبحت أعرفه جيّدًا.

"فليهدأ بالك يا دكتور، أنا لا أزعم ذلك على الإطلاق". واستندت بظهري إلى مساند العربة، وأنا أتنهَّد ارتياحًا. وعندما رجعنا إلى المنزل، نبَّهني ألَّا أذكر شيئًا عن مبارزة التِّنس لهولمز. فلم يكن يرغب في تشتيت انتباه صديقي بهذه الواقعة، ووافقته على ذلك.

ووجدنا المخبر السِّرِّيَّ الشَّهير، حيث تركناه، منكبًّا على بعض الكتب في غرفة المكتب غير مبالٍ إلى الحديث. وكانت رؤيته مهتمًّا بشيءٍ ما علامة مشجِّعة لي. فانسحبت إلى غرفتي، وجلست أستعيد تلك الوقائع الغريبة الَّتي حدثت في مومبرج. ولم تتحْ لنا قطّ معرفة اسم "الرَّذيل" إلَّا إنَّ وجهه، ذلك الوجه اللئيم، الَّذي تشقَّه تلك النّدبة القبيحة، ظلَّ يراود مخيِّلتي طوال ما بقي من اليوم.

وخلال العشاء بدا أنَّ هولمز قد عاد سيرته الأولى، فرغم جهودنا لجرِّه إلى الحديث، كانت إجاباته كلمات قصيرة ومبتسرة. ونظرت إلى فرويد في قلقٍ، ولكنَّه تجاهل نظراتي، وأخذ يثرثر كأنَّ شيئًا لم يكن.

وبعد العشاء نهض فرويد، واستأذن، ثمَّ عاد بعد لحظات يحمل طردًا بين يديه:

- "هر هولمز، معي شيء هنا أعتقد أنَّك ستستمتع به، وناوله الطَّرد البيضاويَّ الشَّكل. وتناول هولمز الطَّرد، وتركه في حجره، ولا يدري ماذا يفعل به. واستطرد فرويد، وهو يأخذ مقعده ثانية: "لقد أبرقت إلى انجلترا طلبًا لهذا"، وظلَّ هولمز ساكنًا ينظر إلى الصُّندوق.

وتطوَّعت آنا: "هل أساعدك في فتحه"، ومدَّتْ يديها لتفكَّ خيوط الطَّرد. وأجاب هولمز: "ساعديني من فضلك" وناولها الصُّندوق.

وانضمَّ إليها أبوها، بينما أصابعها الصَّغيرة تحاول فكَّ العقدة، وقدَّم لها مطواة جيب صغيرة قطع بها الخيوط، بينما أزاحت آنا أوراق التَّغليف، وأخرجت الصُّندوق، وحبست أنفاسي رغمًا عنّي عندما رأيت ما بداخله. وصاحت آنا: "هناك صندوق آخر".

وقالت فراو فرويد: "فلندع هر هولمز يفتح هذا الصُّندوق بنفسه".

وشجَّعته آنا قائلة: "هيَّا افتح الصُّندوق".

ودون أن يجيب، استخرج هولمز من الحشو الَّذي يملأ الصُّندوق، ببطء، ولكن بطريقة أوتوماتيكيَّة، صندوقًا آخر، وأعمل يديه في الأقفال، واستخرج الكمان "الاستراديفاريوس". ثمَّ نظر إلى الطَّبيب النِّمساويِّ، وقال بتلك اللهجة الَّتي تخيفني: "هذا كرم وعطف منك"، وصفَّقت آنا الصَّغيرة بيديها، وهي مبتهجة، وصاحت: "إنَّها كمان... هل تستطيع أن تعزف عليها؟ أرجوك... هلَّا عزفت عليها من فضلك".

ونظر هولمز إليها، وعاد ببصره إلى الآلة في يديه، وكانت تلمع في ضوء المصباح الغازيِّ، وجذب الأوتار بأطراف أصابعه، وعيناه ترمشان عند سماع الصَّوت، ثمَّ أحكم وضع الكمان تحت ذقنه، وهو يحرِّك

عنقه ارتفاعًا وانخفاضًا حتَّى يضع الكمان في مكانها الملائم، ثمَّ بدأ يضبط الأوتار. وما أن انتهى من ذلك، ونحن جميعًا نشاهده، وقد توقَّفت أنفاسنا - كما لو كنَّا نشاهد تلك الحركة الَّتي يقفز فيها لاعب السِّيرك من ارتفاع عالٍ، والنَّاس جميعًا تترقَّب - واستخرج القوس، ومرَّ على شعيراته بقطعة من الشَّمع الرَّاتنجيِّ، وهو يشدُّ خيوطه المصنوعة من ذيول الخيل.

وبدأ العزف بشكل تجريبيٍّ أوَّلًا، ولم تكن تلك طريقته المعتادة، وشيئًا فشيئًا ارتسمت ابتسامة على ملامحه، لعلَّها أوَّل تعبير سعيد صادق رأيته على وجهه منذ أمدٍ بعيدٍ.

ثمَّ بدأ في العزف بشكل جادٍّ.

ولقد سبق لي أنْ أشرت - في كتابات أخرى - إلى مواهب صديقي الموسيقيَّة، ولكنّي لم أره يتفوَّق على نفسه، ويسحر سامعيه بمثل ما رأيته في تلك الليلة.

لقد حدثت معجزة أمام أعيننا، ونحن نرى تلك الآلة تنطق بالحياة، وتبعث في صاحبها حياة أخرى.

ونهض هولمز - دون وعي كما يبدو - وأزاح مقعده إلى الخلف مستمرًّا في العزف. وقد صار أكثر حيويَّة وأكثر اندماجًا. لقد نسيت أسماء الألحان الَّتي بدأ بها - فكما يعلم قرَّائي... لستُ ذا دراية كبيرة بالموسيقا - ولكنّي أظنُّ أنَّها كانت بعض التَّدريبات والتَّأليفات المرتجلة.

إلَّا أنّي عرفت فورًا المقطوعات الموسيقيَّة الَّتي بدأ يعزفها بعد ذلك. وكما تعلمون، لقد كان لهولمز بعض الاتِّجاهات الدِّراميَّة، كما كان مدركًا لوضعه في تلك اللحظة.

وبدأ في عزف فالسات شتراوس... ويا للروعة، إيقاع مرح وصاخب ثريّ، يحرّك جوارح الإنسان، وسرعان ما نهض الدُّكتور فرويد، ووضع يده حول خصر زوجته، وبدأ يرقص معها الفالس في أنحاء غرفة الجلوس، وتبعناهما... هولمز يعزف، وأنا وباولا معي، ولقد أخذتنا النَّشوة، ونحن نرى ذلك المنظر، وأنا أرمق صديقي من طرفٍ خفيٍّ. لم تفارق البسمة وجهه. وبعد لحظات أحسست بيد صغيرة تجذب كمَّ سترتي، ونظرت إلى أسفل، ورأيت آنا وهي تمدُّ يديها نحوي تطلب مراقصتي.

لم أكن طيلة حياتي من النّوع المحبِّ للرَّقص، فإذا أضفنا إلى ذلك العرج الخفيف في ساقي، فلا شكَّ أنَّني كنت أبعد النَّاس عن ذلك الفنِّ، ولكنّي رقصت، وأعتقد أنَّه لم يكن رقصًا رشيقًا، ولكنّي كنت ممتلئًا حيويَّة وحسن نيَّة. وتتالت ألحان شتراوس: "قصص من غابات فيينا" و"الدَّانوب الأزرق" و"الخمر والنِّساء والأغاني"، عزفها هولمز جميعًا، بينما نحن الأربعة ندور في أرجاء الغرفة نضجُّ بالضّحك والمتعة. وبعد فترة تبادلنا - أنا وفرويد - فرقصت مع فراو فرويد، بينما رقص الدُّكتور مع آنا الصَّغيرة. بل لقد بلغت بنا المتعة أقصاها حتَّى وجدت نفسي أجذب باولا أراقصها، والجميع يضجُّ بالضّحك إزاء احتجاجاتها.

وعندما انتهى الأمر في النِّهاية. ارتمينا على المقاعد تتلاحق أنفاسنا، ونتبادل الضّحك والابتسامات رغم أن الموسيقا الَّتي بعثتها كانت قد توقَّفت. وأزاح هولمز الكمان من تحت ذقنه، وأخذ يحملق فيها لفترة طويلة، ثمَّ حوَّل ناظريه عبر الغرفة إلى فرويد.

فقال له الطَّبيب: "لقد فاقت مواهبك كلّ ما لديَّ من دهشة".

وردَّ عليه هولمز: "أمَّا أنا، فقد بدأت أندهش من مواهبك". ولاحظت - وأنا قرير العين - عودة لمعة الحياة والحيويَّة إلى عينيه.

أويت إلى سريري تلك الليلة، وأنا أعجب لسلطان الموسيقا. وأظنّ أنَّ شكسبير قد أشار في موقع ما من "يوليوس قيصر" إلى أنَّ للموسيقا القدرة على تهدئة العواطف الجيَّاشة، ومواساة الرُّوح القلقة، ولكن لم تتح لي قطّ مشاهدة تلك الظَّاهرة إلَّا في تلك الليلة.

ولقد استمرَّت تلك الظَّاهرة بعد أن هجع أهل المنزل ولاذوا بالنّوم، أمَّا أنا فقد تناهت إلى مسامعي، من خلال الحاجز الرَّقيق الَّذي يفصل بين غرفة هولمز وغرفتي، ألحان الكمان إلى ساعة متأخِّرة من الليل. فعندما اختلى هولمز بنفسه لجأ إلى عزف تلك الألحان الحالمة الممتلئة بالشَّجن، والَّتي كان يرتجلها ارتجالًا. وكانت ألحان حزينة بائسة، حملتني على أجنحتها إلى عالم النّوم العميق، وأنا أتساءل... هل ستستمرّ تلك الشَّرارة الَّتي أشعلناها في أعماق روح صديقي الباردة؟ أم أنَّها ستخمد وتموت مع طلوع النَّهار؟!

لقد بيّنت لي هذه الواقعة أنَّ روحه لم تفقد بعد تلك الجذوة، وأنَّه يمكن إشعال النَّار فيها من جديد. أمَّا هل ستكفي الموسيقا في حدِّ ذاتها للقيام بتلك المهمَّة؟ فهذا هو ما كنت أشكُّ فيه. وخلال نومي المتقطِّع، كنت أرى في أحلامي ذلك الوجه الشَّيطانيَّ الَّذي يحمل آثار جرح على وجنته، كنت أراه يتمشَّى في أحلامي.

الفصل العاشر

دراسة في الهستيريا

جلس هولمز إلى مائدة الإفطار في اليوم التَّالي ساكنًا تمامًا. ولم تتَّضح عليه أيّ آثار فيما يتعلَّق بالواقعة الموسيقيَّة في الليلة الماضية. وهل وضعته فعلًا على بداية طريق التَّعافي؟ وظلَّ وجه الدُّكتور فرويد جامدًا لا يمكن استكشاف كنهه في مواجهة السُّلوك المحايد لمريضه. وسأل، بطريقة طبيعيَّة كالمعتاد كيف كان نوم هولمز، وما إذا كان يريد قدحًا من القهوة.

وقد منعني ما حدث بعد ذلك - وإلى الأبد - من التَّأكُّد هل كان للكمان وحدها الدّور الحاسم في استعادة صديقي لنفسه. فقد دقَّ جرس الباب. ومن لحظتها دخلنا في مغامرة جنونيَّة ما كانت لتحدث لولاه، ومع ذلك، ورغم ما تلا ذلك من أحداث، فقد كنت سعيدًا عندما وصل رسول يحمل رسالة إلى الدُّكتور فرويد. وأعتقد أنَّه لولا ذلك لكان صديقي قد انتكس، بالكمان أو بدونها.

كان الرَّسول مبعوثًا من مستشفى كرانكنهاوس، المستشفى التَّعليميّ الَّذي كان فرويد عضوًا به، ومعه رسالة من أحد الأطبَّاء، يسأل فيها - في الليلة الماضية - هل يتكرَّم الدّكتور فرويد ويأتي ليرى مريضة داخل المستشفى؟ وقرأ فرويد الرِّسالة علينا:

"سأكون شاكرًا إذا سمح وقتكم وتبادلتهم معي المشورة بشأن حالة غاية في الغرابة، فالمريضة لا تستطيع، أو لا ترغب في الكلام، ورغم هزالها البادي، فإنَّها تبدو في تمام الصِّحَّة، فهل لديك لحظات للمرور علينا، وتفحّصها ولو بسرعة. أنا أعلم أنَّ طرقك غير تقليديَّة، ولكنّي أحترمها دائمًا".

"التَّوقيع سولتز".

- قال فرويد وهو يبتسم ويطوي الورقة: "أتريدان أن تعرفا إلى أيِّ حدٍّ أنا منبوذ؟- هل تحبَّان مصاحبتي يا سادة لرؤية تلك المرأة الممتنعة؟".
- وردَّ هولمز بنشاط: "سيكون هذا من دواعي اهتمامي"، وأخذ يطوي فوطة المائدة. واستعددت أنا أيضًا. وسألته بمرح أنَّني لم أعرف عنه الاهتمام بمثل تلك الحالات.
- وضحك هولمز قائلًا: "آه... أنا لا أهتمُّ بالمريضة، ولكنّي مهتمٌّ بالدُّكتور شولتز، ألَا يبدو لك شبيهًا بصديقنا القديم لستراد[1]؟ لقد قرَّرت الذّهاب تعاطفًا مع الدُّكتور فرويد".

لم يكن المستشفى بعيدًا عن المنزل. وعندما وصلنا أُخْبِرْنَا بأنَّ الدُّكتور شولتز موجود مع مريضته في جناح الطِّبِّ النَّفسيِّ. ووجدناه

(1) يشير هولمز إلى مفتِّش بوليس سكوتلانديارد ج. لستراد الَّذي كان مغرمًا، شأنه شأن عدد آخر من ضبَّاط البوليس - بالتَّهوين من شأن هولمز، وأساليبه ونظريَّاته، والَّذي كان يضطرّ في نهاية الأمر إلى طلب معونته عندما تستعصي إحدى القضايا على فهمه السَّاذج.

في الفناء الخارجيّ للجناح، وهو فناء لا يوجد له إلَّا مدخل واحد، وفيه يسمح للمرضى بالتَّنزُّه والجلوس - تحت إشراف - والتَّريُّض في الشَّمس. كما كانت هناك بعض الألعاب الرِّياضيَّة، وكان بعض المرضى يلعبون الكروكيت. ولو أنَّهم كانوا يلعبونها بجنون، وسط الصِّياح والهرج والمرج ومراقبة الممرِّضين.

وكان الدُّكتور شولتز شخصًا بدينًا (مربَّع الجسم) يضفي على نفسه سمات الأهمِّيَّة. يقارب الخمسين من العمر، له شارب رفيع، وعارضان كثيفان لا يتناسقان معه. وسلَّمَ على فرويد بشكل رسميٍّ متحفِّظ، وعليَّ أنا وهولمز دون اعتناء. ولمَّا كان المستشفى تعليميًّا إلى جانب قيامه بعلاج الجمهور، فإنَّه لم يمانع عندما طلب منه فرويد أن نصاحبه. وأعتقد أنَّه استشف أنَّني طبيب، وافترض أنَّ لدينا أسبابًا تدعونا لرؤية المريضة.

وأوضح شولتز الأمر، ونحن نسير بجانبه قائلًا: "الحقيقة أنَّ المسألة ليست من اختصاصي، ولكنَّنا يجب أن نفعل شيئًا من أجل هذه المريضة. فقد أمسك بها بعض النَّاس وهي تحاول إلقاء نفسها من على جسر أوجارتن في النَّهر، ولكنَّها غافلتهم، وأفلتت، وألقت بنفسها في الماء، ربَّما تعاني من سوء تغذية". واستطرد قائلًا بعد تفكير: "ولكن عندما أحضرتها الشُّرطة، أكلت شيئًا طفيفًا، والمسألة الآن هي أنَّنا نريد معرفة شخصيَّتها، فإذا ساعدتنا على معرفة ذلك، أو أيّ شيء عنها سيكون ذلك دينًا في عنقي لا أنساه".

ولم ينمّ صوته عن أنَّه سيهتمُّ بأن يكون في عنقه دين لفرويد. ونظر إليه فرويد مبتسمًا بدلًا من أن يردَّ عليه. وقد شُدِهْتُ - مثلما شُدِهَ هولمز لرسالته - للشَّبه الواضح بين نغمة صوت طبيب محترف، وبين نغمة صوت لستراد مفتِّش بوليس سكوتلانديارد المحقِّق المحترف.

ومهما كانت نظريَّات فرويد، فإنَّها كانت تشبه نظريَّات هولمز من حيث ما تثيره من شكٍّ في الأوساط الرَّسميَّة والفكر المحافظ.

- "ها هي تحت تصرُّفكم. واعذرني، فأنا مطلوب في قسم الجراحة، من فضلك، اترك ملاحظاتك في مكتبي إذا تكرَّمت، وسأنظر في أمر المريضة مرَّة أخرى غدًا".

وغادرنا شولتز في طريقه إلى قسم الجراحة، تاركًا أمامنا امرأة شابَّة تجلس على مقعد من القشِّ، تنظر إلى الحديقة بعينين زرقاوين مفتوحتين لا تطرفان رغم ضوء الشَّمس السَّاطع، وكانت أمارات الهزال بادية عليها، بينما كانت بشرتها ذات لون أزرق خفيف، خاصَّة حول العينين. وربَّما بدا وجهها متميِّزًا لولا أنَّ صروف الزَّمان تركت آثارها عليها. وبدت لي مجهدةً منهكة، لولا أنَّ شكل جلستها كان ينبئ أنَّها واقعة تحت ضغوط شديدة.

ودار فرويد حولها ببطء، بينما نراقبه أنا وهولمز. ومرَّ بيده أمام عينيها، ولكنَّها لم تستجب، ولم تقاوم عندما أمسك برسغها ليقيس النَّبض، وعندما ترك يدها سقطت على حجرها، كما لو كانت شيئًا ميِّتًا. وكان وجهها نحيفًا. بل أنحف ممَّا كان يُفترض فيه إذا حكمنا من هيئة تركيبها العظميِّ. ولم نستطع تقدير وزنها؛ نظرًا لأنَّها كانت ترتدي رداء المستشفى الفضفاض. وبدا على هولمز شيء من الاهتمام بالمرأة، ووقف يشاهد بانتباه الفحص الَّذي يجريه فرويد.

- وقال فرويد بهدوء: "هذا هو السَّبب الَّذي استدعوني من أجله... إنَّهم لا يدرون كيف يتصرَّفون مع الحالة. لا يمكنهم تحويلها إلى أيِّ مكان آخر؛ نظرًا لتعاسة الحالة الَّتي هي عليها".

- فسألت: "وما الَّذي جعلها هستيريَّة؟".

- "ليس من الصَّعب استنتاج السَّبب، الفقر واليأس وفقدان الأحبَّة، ولمَّا وصلت بها الفاقة إلى منتهاها، قرَّرت إنهاء حياتها، ولكنَّها حُرِمَتْ ذلك أيضًا، فنكصت إلى الحالة الَّتي نشاهدها عليها الآن".

وأخذ فرويد يبحث في حقيبته السَّوداء حتَّى أخرج في النِّهاية قنِّينة ومحقنًا، بينما جلس هولمز بجانبه، وسأل "ماذا تفعل؟"، بينما لم يحوِّل عينيه عن المرأة التَّعيسة الَّتي جلست أمامه.

- "سأفعل ما أستطيع"، ورفع كمَّ الرِّداء عن ساعد المرأة، بينما طهَّر بقعة من الجلد بقليل من الكحول وقال: "سأحاول تنويمها. ولكي أتمكَّن من ذلك، لابدَّ من إعطائها شيئًا يجعلها تسترخي، ويساعدني على جذب انتباهها".

وهزَّ هولمز رأسه، ونهض على قدميه، بينما غرس فرويد الحقنة في ذراع المرأة.

وبدأ يهزُّ ساعته ممسكًا بسلسلتها جيئة وذهابًا متحدِّثًا بصوته القويِّ الحاني - الَّذي سمعته كثيرًا قبل ذلك - وألقيت نظرة سريعة على هولمز. متسائلًا بيني وبين نفسي عن التَّداعيات الَّتي يجلبها هذا المنظر إلى عقله، ولكنَّه كان مستغرقًا في ملاحظة استجابات المرأة للسَّاعة ولصوت فرويد.

وأشار إلينا الطَّبيب بيده الأخرى أن نبتعد قليلًا إلى الخلف خارج دائرة نظر المريضة، واستمرَّ في الحديث إليها بهدوء، يطلب منها أن تنصت إليه، وأن تسترخي، وأن تدرك أنَّها بين أصدقاء وهكذا.

في البداية كنت واعيًا بلعبة الكروكيت الَّتي تجري في الملعب وأصوات اللاعبين، ولكن مع استمرار فرويد في الحديث اختفت

الأصوات، شيئًا فشيئًا، وكان صوته ليِّنًا موحيًا حتَّى خُيِّل إليَّ أنَّنا نجلس في غرفة مكتبه بشارع برجاس رقم 19.

وبدأت عينا المريضة ترمشان بشكل لا يكاد يُلَاحَظُ، ثمَّ تتابعان حركة السَّاعة، وكانتا في البداية لا تكادان تلحظانها.

ولمح فرويد ذلك التَّغيُّر، فغيَّر من حديثه، وأمرها بنفس النَّغمة أن تسترخي وتنام.

وتردَّدت الفتاة لحظة، ورمشت عيناها مرَّة أخرى، ثمَّ استجابت، وأغمضت عينيها.

- وسألها فرويد: "لا تزالين تسمعين صوتي... أليس كذلك؟ هزِّي رأسك إذا كنت تسمعينني"، هزَّت الفتاة رأسها بتباطؤ، بينما انخفضت كتفاها.

- فقال لها فرويد: "ستستطيعين الكلام الآن، وستجيبين على بعض أسئلة بسيطة، هل أنت مستعدَّة؟ إذا كنتِ مستعدَّة، هزِّي رأسك من فضلك، فهزَّت الفتاة رأسها.

- "ما اسمك؟".

مضت لحظة صمت طويلة. وتحرَّكت شفتاها، ولكن لم يصدر عنهما صوت.

- "من فضلك تحدَّثي بوضوح أكثر. سأسألك مرَّة أخرى، وسوف تجيبين بوضوح... ما اسمك؟".

- اسمي نانسي.

أجابت بالانجليزيَّة.

وعبس فرويد قليلًا مندهشًا، وتبادل نظرة لا إراديَّة خاطفة معي، ثمَّ تحوَّل انتباهه إلى الفتاة مرَّة أخرى. وصدرت عنه نحنحة بسيطة، ثمَّ سأل الفتاة باللغة الانجليزيَّة: "والآن يا نانسي، ما اسمك بالكامل؟".

- "لي اسمان".

- "اسمان! ما هما؟".

سلاتر، نانسي سلاتر. نانسي أوسبورن سلاتر فون لينسدورف.

- "حسنًا، يا نانسي سلاتر... استرخي أنتِ في أمان... أخبريني من أين أنتِ؟".

- "بروفيدانس".

ونظر فرويد إلينا، متحيِّرًا، وأعترف أنَّني أحسست أنَّنا وقعنا ضحيَّة لمزحة عمليَّة أو "مقلب"... أم أنَّ خيال المريضة قد حلَّق بها في سماء الأوهام الميتافيزيقيَّة.

وحلَّ لنا هولمز المشكلة. لقد كان يقف وراء كرسيّ المريضة، وتحدَّث إلينا بهدوء بحيث لا يسمعه سوانا: "ربَّما تشير إلى بروفيدانس عاصمة رود أيلاند، الَّتي هي على ما أعتقد أصغر ولايات أمريكا".

وهزَّ فرويد رأسه موافقًا، ثمَّ هزَّ كتفيه معبِّرًا عن استغرابه، ثمَّ انحنى أمام الفتاة مرَّة أخرى، وكرَّر العبارة: "من بروفيدانس رود أيلاند؟"، واستطرد قائلًا:

"وماذا تفعلين هنا؟".

- "لقد قضيت شهر العسل في سقيفة".

كانت ضروسها تمضغ بشدَّة وبشكل تشنُّجيٍّ، وعندما تكلَّمت، كانت كأنَّ بها إعاقة في النُّطق لم تسمح لنا بفهم ما تقول. ولقد

حيَّرتني حالتها وعدم قدرتها على النُّطق، ومال قلبي إليها، هذه التَّعيسة، التَّائهة.

- "حسنًا... حسنًا. استرخي الآن".

ونهض فرويد وواجهنا "ليس لهذا أيّ معنى".

- وردَّ عليه هولمز بهدوء: "اسألها بعض الأسئلة الأخرى، وكانت عيناه تختفيان خلف حاجبيه الكثيفتين مثل رأس الكوبرا، ولكنّي كنت أعلم علم اليقين أنَّه أبعد ما يكون عن النّوم، لقد كان مظهره الحالم هذا ينمُّ عن رضى تامٍّ. بينما كان دخان الغليون هو الدَّليل الوحيد على وعيه التَّامّ بما يجري... وحثَّ هولمز فرويد مرَّة أخرى: "وجِّه إليها مزيدًا من الأسئلة... اسألها أين تزوَّجت؟".

- فردَّد فرويد عليها السُّؤال.

- "في مجزر"، كانت إعاقتها الكلاميَّة تجعل من الصَّعب علينا فهم ما تقول.

- "مجزر"!

فهزَّت رأسها. ونظر فرويد من فوق كتفها إلينا في حيرة، فأشار إليه هولمز أن يستمرَّ في السُّؤال.

- "قلتِ لي إنَّ اسمك فون لينسدورف... فمَن هو فون لينسدورف؟ أهو زوجك؟".

- "نعم".

- "البارون كارل فون لينسدورف" لم يستطع فرويد أن يخفي نبرة التَّحدِّي في صوته.

- "نعـــــم".

- فقـال لهـا: "لقـد مـات البـارون"، ولكنَّـه لم يكمـل كلامـه، فقـد نهضـت المـرأة - الَّتـي تُسَـمِّي نفسـها نانسـي - فجـأة بحركـة عنيفـة، ومـا زالـت عيناهـا مغلقتـين، ولكنَّهـا تجاهـد لتفتحهـما، وصاحـت: "لا".

- "اجلـسي يـا نانـسي... اجلـسي... هـذا أفضـل... اسـترخي ثانيـة... اسـترخي".

- ونهـض فرويـد مـرَّة أخـرى، وواجهنـا: "هـذا مـن أغـرب مـا يكـون. مـن الواضـح أنَّ ضلالاتهـا مسـتمرَّة حتَّـى وهـي تحـت تأثـير التَّنويـم - وهـو أمـر غـير معتـاد".

فقـال هولمـز وهـو يفتـح عينيـه "ضـلالات"... ومـا الَّـذي يجعلـك تسـتنتج أنَّهـا ضـلالات.

- "لأنَّه لا معنى لها".

- "هذان أمران مختلفان... مَن هو البارون فون لينسدورف؟".

- "إنَّـه أحـد أمـراء المقاطعـة، عـمّ الإمبراطـور عـلى مـا أعتقـد. ولقـد مـات منـذ عـدَّة أسـابيع".

- "هل كان متزوِّجًا؟".

- "ليسـت لـديَّ فكـرة، وأعـترف أنَّنـي في حـيرة مـن أمـري. لقـد حاولـت التَّواصـل معهـا، ولكـن مـا قالتـه لا يفيدنـا في مسـألة مـاذا نعمـل بشـأنها؟".

وأخـذ فرويـد يفـرك قبضتيـه في حـيرة، بينـما نحـن ننظـر إلى المريضـة الغريبـة، والَّتـي بـدأ فمهـا يتحـرَّك، ويتلـوَّى مـرَّة أخـرى.

- "هل تسمح لي بسؤالها سؤالًا أو اثنين؟" وأومأ هولمز إلى المريضة.
- وصاح فرويد مندهشًا "أنت"، وبدا عليه أنَّه أكثر اندهاشا ممَّا وشى به صوته.
- "إذا لم يكن لديك مانع، فربَّما أستطيع أن ألقي قليلًا من الضَّوء على هذا الظَّلام الَّذي يحيط بنا".

فكَّر فرويد في الأمر، وهو يتمعَّن في هولمز. الَّذي كان ينتظر إجابته، وقد أحاط نفسه بمظهر اللامبالاة، إلَّا أنِّي عرفت من مئات العلامات الَّتي لا يعرفها سواي كيف أنَّه كان يتحرَّق شوقًا لموافقة الدُّكتور على طلبه.

وتدخَّلت في الحديث قائلًا: "لن يكون هناك ضرر، خاصَّة أنَّ الأمر غامض كما اعترفت، ومن ثَمَّ، فلا ضير هناك من بعض المساعدة. وأنا خير العارفين بما يمكن أن يستخرجه صديقي من المعاني في مواقف أقلّ وضوحًا بكثير.

وتردَّد فرويد قليلًا. وأعتقد أنَّه لم يكن مستعدًّا للاعتراف بالهزيمة أو الإقرار بحاجته إلى العون. ولكنَّه محتاج للعون. وأظنُّ أنَّه قد استشفَّ ما يعنيه ذلك لهولمز، الَّذي لم تظهرْ عليه هو الآخر علامات الحيويَّة إلَّا مؤخَّرًا.

- "حسنًا، ولكن أسرع، فإنَّ آثار المنوِّم تزول، وسوف نفقد السَّيطرة مرَّة أخرى"، ولمعت عينا هولمز لحظة من فرط الاستثارة، ولكنَّه سرعان ما أسدل جفنيه، وتبع فرويد فورًا ووقف أمام المريضة.
- "هناك مَن يريد التَّحدُّث إليكِ يا نانسس. ويمكنك التَّحدُّث بحرّيَّة إليه كما فعلتِ معي. هل أنتِ مستعدَّة؟".

- "نعـــــم".

وأومـأ فرويـد إلى هولمـز الَّـذي يجلـس عـلى الحشـائش عنـد قوائـم الكـرسيِّ، ونظـر إليهـا مـن أسـفل. وكانـت يـداه تسـترخيان عـلى حجـره، ولكـنَّ أطـراف أناملـه كانـت تضغـط عـلى بعضهـا بطريقتـه المعتـادة حـين يصغـي إلى تقريـر مـن أحـد زبائنـه.

- "نانـسي... قـولي لي مَـن الَّـذي قيَّـد رسـغيك وسـاقيك". ولم تكـن بـه حاجـة إلى صـوت فرويـد الهـادئ، إلَّا أنِّي لاحظـت - لدهشـتي- أن صـوت هولمـز عندمـا كان يـواسي مرضـاه، ويطيِّـب خاطرهـم في منزلنـا بشـارع بيكـر، لم يكـن صوتـه يفـترق عـن صـوت فرويـد.

- "لا أعلم".

ولأوَّل مـرَّة لاحظـت أنـا وفرويـد الآثـار الزَّرقـاء عـلى رسـغ وسـاق المريضـة.

- "لقد استخدموا رباطًا من الجلد، أليس كذلك؟".

- "نعـــــم".

- "ووضعوكِ في سقيفة".

- "نعـــم".

- "كم لبثتِ في ذلك المكان؟".

- "أنا... أيّ...".

ورفع فرويد إصبعه محذِّرًا هولمز، وأومأ الأخير برأسه.

- "حسـنًا يـا نانـسي، دعـكِ مـن هـذا السُّـؤال، وأخبرينـي... كيـف هربـتِ؟ كيـف غـادرتِ تلـك السَّـقيفة".

- "كسرت النَّافذة".

- "برجليكِ".

- "نعـــم".

ولاحظتُ في تلك اللحظة آثار الجروح في بطن ساق الفتاة.

- "ثمَّ استخدمتِ قطع الزُّجاج المكسور لقطع قيودكِ؟".

- "نعـــم".

- "ثمَّ تسلَّقت المواسير؟".

وفحـص يديهـا بلطـف. ولفـت هولمـز نظرنـا إلى الأظافـر المكسـورة، وآثـار الجلـد المجلـوط في راحـة اليـد. وكانـت يداهـا في غايـة الجـمال، طويلتـين، رشـيقتين، جميلتـي التَّكويـن.

- "ثمَّ سقطتِ... أليس كذلك؟".

- " نعـــم" وطغـى عـلى صوتهـا نـبرة انفعـال، وأخـذت شـفتاها تدميـان مـن ضغـط الأسـنان عليهـا.

ووقـف هولمـز وقـال: "انظـروا هنـا أيضًـا أيُّهـا السَّـادة"، وأزاح بيـده إلى الخلـف خصلـة مـن شـعرها الكسـتنائيِّ، فبانـت لنـا كدمـة زرقـاء قاتمـة.

وخطـا فرويـد إلى الأمـام، وأشـار إلى هولمـز أن يتوقَّـف عـن اسـتجوابها، فانسـحب إلى الخلـف، وهـو ينفـض التَّبـغ مـن غليونـه.

وقـال فرويـد للفتـاة: "والآن يـا نانـسي... اسـترخي ونامـي... نامـي"، واسـتجابت الفتـاة وغرقـت في النَّـوم.

الفصل الحادي عشر

زيارة إلى الأوبـــرا

جلسنا في مقهى صغير في سنسان جاس، يقع إلى شمال المستشفى ومعهد الباثولوجيا، وأخذنا نحتسي قهوة فيينا اللذيذة، ونحن نتدبَّر مشكلات تلك المرأة الَّتي تُسَمِّي نفسها نانسي سلاتر فون لنسدورف. وقال فرويد: "ماذا يعني هذا كلّه؟". فأجاب هولمز بهدوء: "يعني الشَّرّ والخبث... نحن لا نعلم إلى أيِّ حدٍّ هي صادقة في روايتها، ولكنَّ الَّذي لا شكَّ فيه أنَّ تلك السَّيّدة قد **أُوْثِقَتْ أطرافُها، وتُرِكَتْ جائعة في** غرفة تواجه بناية أخرى في حارة ضيِّقة. وأنَّها قد هربت بطريقة لا تختلف عمَّا وصفته لنا. ومن المؤسف أنَّ المستشفى قد تخلَّص من ملابسها. وإلَّا كنَّا قد علمنا الكثير عن حالتها الأصليّة".

واختلستُ نظرة إلى فرويد، مؤمِّلًا ألَّا يأخذ كلام هولمز على محمل الغلظة. لقد أدرك المخبر السِّرِّيّ بجانب من عقله ضرورة العناية بالمرأة، والاهتمام بها، وأنَّها غارقة حتَّى أذنيها، وتحتاج للعون والمساعدة. ولكنَّ الجانب الآخر بشكل أوتوماتيكيٍّ يصنّف البشر باعتبارهم أجزاء

مـن مشـكلة. وفي هـذه اللحظـة، فـإنَّ إشـارته إليهـم - أمـام هـؤلاء الَّذيـن لا يعرفـون طريقتـه - سـتبدو غايـة في الغرابـة.

إلَّا إنَّ الدُّكتـور فرويـد، عـلى أيّ حـال، كان مشـغولًا بمتابعـة فكـره هـو نفسـه.

- "... والأدهـى مـن ذلـك أنَّنـي كنـت عـلى وشـك أن أحـرِّر شـهادة باعتبارهـا مجنونـة... وأنَّنـي لم أرَ...".
- وقاطعـه هولمـز: "لا... لقـد رأيـت، ولكنَّـك لم تلحـظ، والفـرق شاسـع بـين الاثنـين، وأحيانًـا يكـون عامـلًا حاسـمًا".
- "ولكـن مَـن هـي؟ هـل هـي فعـلًا مـن بروفيدانـس؟ رود أيلانـد. أم أنَّ ذلـك مـن وحـي خيالهـا".

فقـال هولمـز: "مـن أكـبر الأخطـاء أن نضـع النَّظريَّـة قبـل تمعُّـن الواقـع، فـلا شـكَّ أنَّ ذلـك سـيجعل حكمنـا منحـازًا".

وأشـعل هولمـز غليونـه، بينـما أخـذ فرويـد يحملـق في فنجانـه. لقـد انقلـب وضـع الرَّجلـين خـلال السَّـاعتين الماضيتـين. فمـن قبـل كان الطَّبيـب هـو المعلِّـم والمرشـد، أمَّـا الآن فقـد اتَّخـذ هولمـز هـذا المقـام - وهـو دور أسـهل عليـه، وأكـثر ألفـة مـن دور المريـض العاجـز. ورغـم أنَّ ملامحـه ظلَّـت مسـتغلقة عـلى الفهـم، فقـد أدركـت كيـف ابتهـج وانـشرح لعودتـه إلى ذاتـه المألوفـة القديمـة، بينـما فرويـد - والحـقّ يُقـال - لم يكـن نافـرًا مـن القيـام بـدور التِّلميـذ.

- وسأل: "ما العمل الآن؟ هل نبلغ الشُّرطة؟".
- "لقـد كانـت في يـد الشُّرطـة عندمـا اكتشـفت الحادثـة... فـإذا لم يكونـوا قـد فعلـوا لهـا شـيئًا عندئـذٍ، فـما الَّـذي يدفعهـم إلى ذلـك الآن؟ ومـا الَّـذي سـنخبرهم بـه؟ نحـن لا نعلـم إلَّا أقـلّ القليـل، ولـن يجديهـم ذلـك - وأضـاف - ولـو أنَّ ذلـك قـد ينفـع في لندن.

وفضلًا عن ذلك، إذا كان هناك لأمير ضلع في الموضوع، فقد لا يحبُّون التَّعمُّق فيه".

- "ماذا تقترح إذن؟".

اضطجع هولمز إلى الخلف في مقعده، واتَّخذ مظهر مَن يتأمَّل نقوش السَّقف.

- "هل لديك مانع أن تتولَّى الأمر بنفسك؟".

- "أنا!". وبذل هولمز قصارى جهده؛ لتبدو عليه الدَّهشة، ولكنَّ الدّور كان "مفصَّلًا عليه"، وأظنُّ أنَّه في هذه المرَّة قد بالغ في دهشته. وقال: "ولكنَّ حالتي لا...".

- "من الواضح أنَّ حالتك لم تؤثِّر على قدرتك- قالها فرويد بنفاد صبر- فضلًا عن أنَّ العمل هو بالضَّبط ما تحتاج إليه".

وتخلَّى هولمز عن المناورة، وجلس في مقعده منتصب القامة، وقال: "حسنًا أوَّل شيء نفعله هو أن نتحرَّى عن البارون فون لينسدورف، مَن هو؟ وما الَّذي سبَّب موته؟ ومتى... إلخ. وبالطَّبع هل كان متزوِّجًا؟ وإذا كان... فما جنسيَّة الزّوجة؟ ولمَّا كانت مريضتنا لا تستطيع الإجابة على تلك الأسئلة؛ فعلينا أن نتناول القضيَّة من طرفها الثَّاني".

- وسألته: "ما الَّذي جعلك تقول إنَّ الغرفة الضَّيِّقة الَّتي حُبِسَتْ بها المرأة كانت تواجه بناية أخرى، وبينهما حارة ضيِّقة؟".

- "هذا بديهيٌّ يا واطسون... فقد كانت بَشَرَةُ المريضة بيضاء مثل بطن السَّمكة، إلَّا أنَّنا نعرف ممَّا قالته أنَّه كانت توجد نافذة في هذا السِّجن، وأنَّها كانت كبيرة بما فيه الكفاية لتسمح بهروبها. والنَّتيجة: أنَّه رغم وجود النَّافذة، كان هناك

شيء ما يحول دون دخول كمّيَّة كبيرة من أشعَّة الشَّمس؛ لأنَّه إذا كانت الشَّمس تدخل، فلن تصبح المريضة بهذا اللون الأبيض الممتقع، وما الَّذي يفعل ذلك سوى بناية كبيرة أخرى؟ ودعنا نذهب إلى أبعد من ذلك، ونقول إنَّ تلك البناية أحدث من تلك الَّتي وُجِدَتْ بها مريضتنا؛ لأنَّ المهندسين لا يفتحون النَّوافذ عادة أمام الحوائط".

- وصاح فرويد "ممتاز"، وبدأ عليه الرِّضى والأمل من كلمات هولمز، ومن طريقته الهادئة المطمئنَّة.

- إنَّها مسألة الرَّبط بين الاحتمالات بطريقة منطقيَّة. انظر مثلًا إلى مسرحيَّة العاصفة لشكسبير حين حطّمت العاصفة سفينة الدّوق، وألقت به وبزملائه إلى شاطئ جزيرة بروسبيرو دون أن تبتلَّ ملابسهم. لقد ظلَّ النُّقَّاد والمفسِّرون يتجادلون لسنين طويلة حول تلك العاصفة الغريبة. فمن قائل إنَّها عاصفة ميتافيزيقيَّة، ومن قائل إنَّها عاصفة رمزيَّة، وغير ذلك من التَّفسيرات الرَّامية إلى تفسير كيف تُغْرِق العاصفة رجال البحر دون أن تبتلَّ ملابسهم. ولكن لو نظر هؤلاء إلى أنَّ الملابس كانت هي الجانب الأغلى ثمنًا في تقاليد المسرح الأليزابيثي، وأن إدارة المسرح لم تكن لتستطيع تحمُّل المخاطرة بتعفُّن الملابس في كلِّ مرَّة تعرض فيها المسرحيَّة، دعك من احتمال إصابة الممثِّلين بالالتهاب الرِّئويِّ؛ لأدركوا السَّبب في أنَّ العاصفة لم تبلِّل ملابس الدّوق. ومن السَّهل أن نتصوَّر- متى ما عرفنا هذه الحقيقة - أنَّ أصحاب المسرح قد طلبوا من المؤلِّف أن يشير إلى جفاف الملابس بعد هذه العاصفة. وغالبًا ما سيكون هناك مقابل نمساويّ لأصحاب شكسبير- وربَّما استفدنا من عصر هذا اليوم إذا حاولت يا دكتور فرويد أن

تبحث عن بعض التَّفاصيل الخاصَّة بالمرحوم البارون فون لينسدورف".

واستدار هولمز إليَّ، بعد أن انصرف فرويد ليقوم بالتَّحرِّي عن حياة البارون، وقال: "دعني أستخدمك يا عزيزي واطسون مرآة لي، فعليَّ أن أخطو بحذر- لا بسبب أنَّنا نواجه لغزًا غامضًا - ولكن لأنَّني أشعر كالملَّاح الَّذي قضى وقتًا طويلًا على الشَّاطئ، وعليه أن يستعيد مهارة امتطاء ظهر السَّفينة، وبهذه المناسبة ما رأيك في أن نتريَّض قليلًا".

دفعنا الحساب، واتَّخذنا طريقنا إلى فارينجر ستراس، حيث اتَّجهنا يمينًا. وكان هولمز قد حشا غليونه مرَّة أخرى، وتوقَّفنا لحظة ريثما يشعله في وجه النَّسيم، وقال:

- "هناك احتمالان يا واطسون، الأوَّل أن تكون هذه المرأة هي فعلًا مَن تدَّعي، والثَّاني أنَّها تعيش في أوهام، أو حريصة على أن تضلِّلنا، ولا تنظر إليَّ نظرة الاندهاش يا عزيزي، نحن لا نستطيع أن نستبعد هذا الاحتمال في هذه المرحلة. فربَّما كان تصنُّعها لمصلحتنا. وعلى أيِّ حال سنترك مسألة هويَّتها هذه، حتَّى نحصل على معلومات جديدة. أمَّا بقيَّة عناصر القضيَّة، فمن حقِّنا أن نخمِّن... فلماذا حبست تلك المرأة في سقيفة، مقيَّدة الأطراف؟ وسواء أكانت أميرة أم متسوِّلة. فهناك احتمالان فقط، إمَّا أنَّ خاطفيها يرغبون أن تقوم بعمل ما. وإمَّا يرغبون في منعها من القيام بعمل ما".

فجازفت بالقول: "طالما هي مقيَّدة اليدين والرِّجلين، فإنَّ الاحتمال الأخير هو الأرجح".

ونظر هولمز إليَّ وهو يبتسم:

مكتبة
t.me/soramnqraa

- محتمَل، يا واطسون محتمل. ولكن إذا افترضنا أنَّها متسوِّلة، متسوِّلة تتكلَّم الانجليزيَّة بلكنة أمريكيَّة، فما الَّذي يمكنها أن تفعله، وتجاه مَن - بحيث - يخشونها؟ وإذا كانوا يخشونها، ويرغبون في منعها من القيام بأيِّ شيء، فلماذا تركوها حيَّة على الإطلاق؟ لماذا...؟".

- وقاطعته: "ولكن يا هولمز، فلنفترض أنَّ هؤلاء النَّاس- أيًّا كانوا- رغبوا فعلًا في التَّخلُّص منها- ألا يحتمل أنَّهم دفعوها عمدًا لارتكاب محاولة الانتحار في النَّهر؟".

- "تعني أنَّهم سمحوا لها بالهرب؟ لا أظنُّ ذلك يا واطسون، فلقد كان هروبها جريئًا ومبتكرًا، بحيث لم يتوقَّعه خاطفوها، وتذكَّر أنَّها انزلقت على مواسير المجاري، بحيث هشَّمت رأسها".

ومشينا بعض الوقت في صمت. ولاحظت أنَّنا تجاوزنا منزل الدُّكتور فرويد في شارع البرجاس، واتَّجهنا ببطء صوب النَّهر، وسألته:

- "هل تنوي الذَّهاب إلى مكان الحادث على جسر أوجارتن؟".

- فأجابني بنفاد صبر: "وما الَّذي سنستفيده من الجسر الآن؟ نحن نعلم أنَّ الشُّرطة وجدتها هناك، وفشلت في منعها من إلقاء نفسها من فوقه. كلَّا... الأفضل أن أحاول البحث عن المبنى الَّذي حُبِسَتْ فيه، إنَّه شيء يثير الغيظ عندما يكون عميلك غير قادر على الكلام".

- "وما الَّذي يجعلك تظنُّ أنَّه سيكون بوسعك العثور على المبنى؟ قد يوجد في أيّ مكان في فيينا".

- "كلَّا يا عزيزي واطسون، إنَّه ليس في أيِّ مكان في فيينا. تذكَّر أنَّ هذه السَّيِّدة، وهي في حالتها الواهنة تلك لم تكن

لتستطيع المشي مسافة كبيرة. لقد استنتجنا أنَّه موجود في حارة، ألا توجد حَوَارٍ عادة قرب الشَّواطئ؟ ربَّما في مخزن تقابلة من النَّاحية الأخرى مسلخ أو ما شابه. على أيِّ حال، أنا لا أتوقَّع أن أجد البناية، وإنَّما أحاول ببساطة أن أكوِّن فكرة عن مكان الأحداث بشكل عامٍّ.

وخلد إلى السُّكون. تاركًا إيَّاي لأفكاري، الَّتي كانت مشوَّشة تمامًا. ولم أشأ أن أقطع عليه تأمُّلاته، ولكن كلَّما زاد تفكيري في الأمر، زادت دهشتي وحيرتي.

- "ولكن يا هولمز... لماذا تجشِّم المرأة نفسها كلّ هذا العناء للهرب، ثمَّ تلقي نفسها في النَّهر عند أوَّل فرصة؟".
- "سؤال معقول يا واطسون، بل سؤال فاتح للشَّهيَّة، ولعلَّه أكثر الأسئلة حسمًا لقضيَّتنا، ولو أنَّه يوجد حاليًّا عدد لا نهائيٌّ من الدَّوافع، وكلُّها تعتمد، فيما أظنُّ، على تحديد شخصيَّة عميلتنا".
- "ربَّما نحن نجعل، من الحبَّة قبَّة". خاطرت بقولي هذا؛ لأنَّني ورغم رغبتي في ألَّا أحرم صديقي من العلاج الَّذي تتضمَّنه القضيَّة، كنت لا أريد بناء آمال زائفة، وتابعت قولي: "ربَّما كانت ضحيَّة تعيسة لشخص ما، عاشق مختلّ أو...".
- فقاطعني هولمز ضاحكًا: "لا ينفع هذا الكلام يا واطسون، فأوَّلًا المرأة غريبة عن هذه البلاد، وتحت تأثير التَّنويم كانت تجيب عن الأسئلة بانجليزيَّة أمريكيَّة. ثانيًا جاء ذكر البارون فون لينسدورف، وهو شخصيَّة كبيرة كما يبدو. وأخيرًا "وفيها إيه يعني". فحتَّى لو كانت القضيَّة بسيطة وصغيرة، فلها طعمها الخاصّ، ولا يوجد سبب يجعلنا لا نقدِّم

لتلك المرأة حقَّها مثلما تستحقّه أيُّ أنثى أخرى ذات جاه ومال".

ولم أنبس ببنت شفة، وإنَّما سرت بجانبه في صمت حتَّى دخلنا قطاعًا من المدينة، كان من الواضح أنَّه أقلُّ شأنًا من الأحياء الَّتي صادفناها حتَّى الآن.

كانت المنازل منخفضة، لا يزيد علوُّ الواحد منها عن طابقين، مبنيَّة من الخشب لا من الحجر، تبدو عليها القذارة، ويحتاج معظمها إلى طلاء. وجميع أزقَّتها تنحدر نحو الشَّاطئ، حيث تنتهي المنازل قريبًا من حافَّة المياه. وهناك على الشَّاطئ الصَّخريّ تنتشر قوارب صيد رثَّة متداعية، كأنَّها حيتان صغيرة ممدَّدة، وامتدَّت أعمدة التِّلّغراف القصيرة، وأسلاكها متدلِّية؛ لتكمل الصُّورة الموحشة الكئيبة. أمَّا القناة نفسها فكانت ثالثة الأثافيِّ، شاطئها موحل، ومياهها راكدة، ومحتشدة بسفن قبيحة المنظر _ إذْ إنَّ فيينا تستقبل كافَّة احتياجاتها عن طريق البحر- كان المنظر يذكِّرني بأجزاء من نهر التَّايمز أكثر ممَّا يذكِّرني بنهر الدَّانوب الجميل الَّذي كان يقع على بُعْدِ عدَّة أميال إلى الشَّرق. خارج مرمى النَّظر.

وهنا وهناك كانت تتناثر مستودعات، ثمَّ رصيف قصير يحاذي الامتداد اللا متناهي للمساكن والبنايات. وتتصاعد بين الحين والآخر موجات من الصَّخب والضَّحك وأصوات الأكورديون؛ ممَّا ينبئ بوجود حانات وملاهٍ في الجوار، وشتَّان ما بينها وبين فخامة مقهى جرينشيتدل. وعلى بُعد مسافة ربع ميل تقريبًا إلى اليمين يقع جسر أوجارتن حيث تمَّت الواقعة.

وعلَّق هولمز وهو يمسح المكان بناظريه: "هذه جيرة مقبضة، إنَّ أيَّ بناية من تلك البنايات تفي بمواصفات السِّجن الَّذي وُضِعَت به نانسي سلاتر".

- نانسي سلاتر؟

- "نعم، يا واطسون، سنستخدم هذا الاسم مؤقَّتًا. وأنا لست طبيبًا؛ ولذلك لا أستطيع الإشارة إليها بوصفها مريضة، كما أنَّ كلمة "زبونة" لا تبدو ملائمة في الظُّروف الحاليَّة. فهي ليست في وضع يمكِّنها من الحديث إلينا. فضلًا عن أن تستأجر خدماتنا. هلَّا عدنا أدراجنا؟ أعتقد أنَّ الدُّكتور فرويد قد رتَّب لنا الليلة حضور الأوبرا. وأنا أتشوَّق لسماع فيتللي، رغم ما يُقال من أنَّه "راحت عليه". وفي كلّ الأحوال لا بدَّ لي من التَّأكُّد من أنَّ ملابس السَّهرة الَّتي اشتريتها لي تلائمني".

غادرنا ذلك المكان الكئيب، وعُدنا أدراجنا. ولم يقلْ هولمز شيئًا ونحن في طريق العودة، ولو أنَّه توقَّف عند مكتب تلغراف، حيث أرسل برقيَّة. ولمَّا كنت أعرفه معرفة جيّدة، فلم أحاول أن أقتحم عليه أفكاره، وإنَّما شغلت نفسي بالمشكلة الَّتي تواجهنا، محاولًا، دون أيّ نجاح، أن أمنع نفسي عن الاستنتاج والتَّوقيع متخطِّيًا الوقائع. ولكنَّه كان جهدًا ضائعًا، وسرعان ما انصرفت عنه. لقد كان عقلي غير مرتّب، وغير منطقيٍّ، مثله مثل عقل صديقي، فقد كان يسرح في شطحات خياليَّة، مبتكرًا حلولًا لا منطقيَّة تمامًا، حتَّى أنّي لا أجد الشَّجاعة لذكرها.

ولكنّي نجحت تمامًا في مهمَّة أخرى، وهي شراء ملابس السَّهرة لهولمز، فقد كنت أعرف مقاساته، وعدّلتُ قليلًا فيها لتناسب ما طرأ عليه من هزال، وطلبتها من محلَّات هورني الخيَّاط الأنيق المعروف في ميدان ستيفان (ستيفان بلاتز). وكانت لائقة عليه بشكل رائع.

كان الدُّكتور فرويد في المنزل عندما وصلنا، ومعه المعلومات الَّتي كان هولمز نفسه يحصل عليها لو كان ذا معرفة بالمدينة واللغة. ولقد استغرقت منه تلك المعلومات بحثًا ليس بالقصير. ومع ذلك، فقد

بقي لديه من الوقت ما يكفي ليقابل مريضًا بعد الظُّهر، الرَّجل الذِّئب، أو الرَّجل الفأر، لا أدري.

كان البارون كارل هلموت ولفجانج فون لينسدورف (كما أخبرنا فرويد) خالًا ثانيًا للإمبراطور فرانز جوزيف. وهو ينحدر من مقاطعة بافاريا، وليس النِّمسا، وكانت معظم ممتلكاتهم - الَّتي تشمل عدَّة مصانع لصناعة الذَّخيرة والأسلحة - تقع في وادي الرّور في ألمانيا.

وكان نجمًا من نجوم مجتمع فيينا - رغم انعزاليَّته - ومن كبار عشَّاق المسرح، وقد تزوَّج مرَّتين، الأوْلى من إحدى أميرات بيت هابسبورج الأقلّ شأنًا، والَّتي تُوفِّيَتْ من حوالي عشرين عامًا، وتركت ولدًا واحدًا هو الوارث الوحيد.

أمَّا البارون الشَّابّ مانفريد جوتفريد - كارل وولفانج فون لينسدورف، فيتمتَّع بسمعه أقلّ احترامًا؛ ممَّا كان يتمتَّع بها والده المتوفَّى. فكان مبذِّرًا مِتلافًا. وبلغت ديونه في القمار مبالغ طائلة. وكانت طباعه - خاصَّة فيما يتعلَّق بالنِّساء - لا تتورَّع عن إتيان أيِّ فعل. وقد التحق بجامعة هيدلبرج لمدَّة ثلاث سنوات، ولكنَّه تركها في ظروف مريبة. أمَّا آراؤه السِّياسيَّة، فمحافظة جدًّا، ويحبِّذ العودة إلى...

- وقاطعه هولمز بهدوء: "وماذا عن زواجه الثَّاني؟".
- "ثمَّ تمَّت زيجة أخرى قبل شهرين من وفاته، وأثناء رحلة لأمريكا. فقد تعرَّف على وارثه لأحد مصانع النَّسيج في بروفيدانس، وهي نانسي أوسبون سلاتر، وتزوَّجا على الفور".
- وتعجَّب هولمز قائلًا: "وفِيْمَ كانت العجلة؟ مثل هؤلاء النَّاس من ذوي الثَّروة والجاه، عادة ما يطيلون فترة الخطبة والزَّواج حتَّى يستمتعوا بمباهجها وحفلاتها".

- فأجاب فرويد وهو يهزُّ كتفيه: "لقد كان البارون يناهز السَّبعين، ربَّما - بالنَّظر إلى وفاته الَّتي أعقبت الزَّواج مباشرة - ربَّما أحسَّ بدنوِّ أجله".

- علَّق هولمز: "صحيح... صحيح وأغرب فأغرب". واضطجع على كرسيِّه مرتديًا ملابس السَّهرة، وقد مدَّ رجليه الطَّويلتين نحو المدفأة في مكتب فرويد، وعيناه تلمعان تحت جفونه شبه المغلقة. وكانت أطراف أنامله تتشابك كما كانت عادته عندما يرغب في التَّركيز.

- واستمرَّ فرويد في حديثه: "ثمَّ عاد إلى أوروبا على ظهر السَّفينة "آليسيا" في حوالي منتصف مارس. وذهبا مباشرة إلى فيلَّا البارون في بافاريا - وهو مكان منعزل فعلًا يصعب الوصول إليه كما قيل لي - وهناك تُوفِّي البارون منذ حوالي ثلاثة أسابيع".

- وتمعَّن هولمز في الأمر: "أكثر قليلًا من شهرين"، ثمَّ فتح عينيه وسأل: "هل استطعت أن تحدِّد سبب الوفاة؟".

- وهزَّ فرويد رأسه بالنَّفي: "لم يَعُدْ شابًّا كما قلت لك".

- "ولكنَّه كان في صحَّة جيِّدة".

- "هذا صحيح في حدود ما علمته".

- "هذا أمر مثير للاهتمام".

- فتدخَّلت قائلًا: "ولكنَّه لا يؤدِّي إلى شيء"، فعندما يتزوَّج رجل عجوز حتَّى ولو كان متمتِّعًا بالصِّحَّة - من امرأة عمرها أقلّ من نصف عمره...".

- وأجاب هولمز: "هذه نقطة وضعتها في اعتباري"، ثمَّ استدار إلى فرويد: "وما الَّذي حدث لأرملته؟".

- وتردَّد فرويد، ثمَّ قال: "لم أستطع أن أعلم شيئًا عنها، ويبدو أنَّها تعيش هنا في فيينا، كما يبدو أنَّها أشدّ انعزاليَّة من زوجها الرَّاحل".

فقلت: "ممَّا قد يعني أنَّها لا توجد هنا إطلاقًا".

وساد صمت، كان هولمز خلاله يتدبَّر تلك المعلومات، ويخزِّنها في المكان الملائم في عقله الجبَّار. ثمَّ قال: "ربَّما لمثل هذا الانعزال ما يبرِّره، فهي في حالة حداد. ولا تعرف إلَّا عددًا قليلًا من النَّاس في هذا البلد، ما لم تكن جاءت هنا من قبل - ولا تتكلَّم الألمانيَّة... وبالتَّأكيد أنَّها لم تزر فيينا".

ثمَّ وقف، ونظر في ساعته وقال: "يا دكتور هل السّيّدة زوجتك مستعدَّة لمرافقتنا؟ أعتقد أنَّك ذكرت أنَّ السِّتار يُرفَع في الثَّامنة والنِّصف".

لقد كتب الكثير عن دار أوبرا فيينا الأسطوريَّة، وبأفلام أبرع من فلمي بكثير؛ ممَّا يثنيني عن محاولة وصف تلك الدَّار الخرافيَّة. ومع ذلك، فإنَّ زيارتي لها، وهي في أوجِّ مجدها ورشاقتها، وفيينا في قمَّة ثرائها وعزِّها، تجعلني أقول إنَّني لم أشاهد الفخامة في أجلى صورها مثلما رأيت في تلك الليلة. كانت الثُّريَّات المتدلِّية المتلألئة لا يضاهيها إلَّا الجواهر اللامعة على صدور الفاتنات اللاتي تزيَّنَّ بأبهى الحلل. وكم تمنَّيت لو كانت ماري إلى جانبي! كانت الماسَّات تلمع على الدَّانتيلا والمخمل والأجسام الحريريَّة، بحيث كان النَّظَّارة - بحقٍّ- لا يقلّون بهاءً عن المنظر.

وكانت الأوبرا المقدَّمة في تلك الليلة من أعمال فاجنر، ولكنّي لا أتذكَّر اسمها الآن. وكان هولمز يعبد موسيقا فاجنر. ويقول إنَّها تساعده على التَّأمُّل، ولو أنَّني لا أستطيع أن أفهم كيف يحدث ذلك. وكنت أكره تلك الموسيقا من أعماقي. لم يكن بوسعي إلَّا أن أفتح عينيَّ،

وأسدّ أذنيَّ وأنا أجاهد حتَّى تمرّ تلك الليلة الَّتي لا تلوح لها نهاية. أمَّا هولمز، الجالس على يميني، فقد انسجم مع الموسيقا منذ لحظة بدايتها. ولم يتكلَّم إلَّا مرَّة واحدة؛ ليلفت انتباهي إلى فيتللي العظيم، وكان شخصًا قصير القامة على رأسه "باروكة" شقراء فظيعة النَّظر، ذا ساقين سمينتين، وظهر في الجزء الأوسط من الأوبرا. وأستطيع أن أقرِّر بكلِّ تأكيد أنَّ رجليه كانتا سمينتين؛ لأنَّ جلد الكاب الَّذي كان يرتديه كان يعرِّيهما تمامًا، لقد ولَّى زمنه بكلِّ تأكيد.

- وعلَّق هولمز فيما بعد: "ما كان يجب عليه أن يقدِّم فاجنر" "لا تليق به"، وسواء أكانت تليق به أم لا، فقد مضى زمنه. ومهما كان الأمر، فإنَّ هولمز قضى ساعتين بالتَّمام والكمال في عالم آخر غير عالمنا هذا. وكانت عيناه مغلقتين معظم الوقت، ويداه "تنقران" على ساقيه مع الموسيقا، بينما راحت عيناي تجوبان الدَّار بحثًا عن شيء أتسلَّى به من هذا الملل المميت.

وإذا كان هناك شخص آخر أسقمته الأوبرا سواي، فلم يكن سوى فرويد، كانت عيناه مغلقتين لا بدافع التَّركيز، وإنَّما بسبب النَّوم. الأمر الَّذي حسدته عليه.

وبين الفينة والفينة، كان شخيره يتصاعد، ولكنَّ فراو فرويد كانت تلكزه، فيستيقظ مذعورًا ينظر حوله في دهشة. ولم يكن اهتمامه بالموسيقا يتعدَّى الفانس وبضعة أشياء أخرى. وكانت رغبة هولمز في حضور الأوبرا هي الَّتي دفعته لدعوتنا. ولا شكَّ أنَّه رغب في تشجيع أوَّل بادرة تبدو من مريضة، وتنمُّ عن اهتمامه بالعالم الخارجيِّ. ولكنَّه - أيّ فرويد- ما أن وصل إلى الأوبرا حتَّى وجد أنَّه غير قادر على الاستجابة للغناء أو المؤثِّرات المسرحيَّة. وكان بعضها مسلِّيًا جدًّا. وأخذ يشاهد في تبلُّد تنِّينًا ظهر على المسرح، وقد أُحْكِمَ صُنْعُه

وتحرّكه آليّات ماهرة. وبينما كان فيتللي العظيم يستعدُّ لذبحه[1] بدأ التِّنّين في الغناء؛ ممَّا دفع بفرويد إلى أحضان النّوم ثانية، ولابدَّ أنَّني استسلمت للنّوم كذلك. إذْ لم أدرِ إلَّا والأنوار تُضَاء، والنَّاس ينهضون من مقاعدهم.

كانت هذه الاستراحة الأولى. وقدّمت ذراعي لفراو فرويد، وخرجنا نحن الأربعة إلى الرُّدهة بحثًا عن المشروبات. وعندما مررنا بقرب المقاصير في الطَّابق الأوَّل، توقَّف هولمز وتطلَّع إليها، ثمَّ قال بهدوء: "ألم يكن البارون فون لينسدورف راعيًا للأوبرا؟ إذن سيكون هناك مقصورة باسمه بالتَّأكيد" مشيرًا بطرف عينيه إلى المقصورات دون أن يميل برأسه.

فوافقه فرويد وهو يغالب التَّثاؤب: "بالتَّأكيد. ولكنّي لم أحصل على معلومات مؤكَّدة بشأن هذا الموضوع".

واقترح هولمز: "فلنحاول معرفة ذلك"، وتحرَّك صوب الدِّهليز.

كانت الأسر الأرستقراطيَّة والعائلات الثَّريَّة لها حظّ اقتناء مقصورة في الأوبرا. ولم يكن بها حاجة إلى التَّدافع للحصول على ما تريده من مشروبات، فقد كان هناك الخدم ذوو الملابس المزركشة يحملون إليهم في مقصوراتهم ما يحتاجونه. أمَّا بقيَّة النَّاس، فكان عليهم أن يتَّبعوا أساليب بهلوانيَّة ليشقُّوا طريقهم من خلال حلقة من السّيّدات حتَّى يصلوا إلى الدَّائرة الضَّيّقة المحيطة بالبار.

وتركت فرويد وزوجته يتجاذبان أطراف الحديث، وغامرنا - أنا وهولمز - بالمرور في ذلك الزِّحام، ورجعنا منتصرين، ولو أنَّني سكبت نصف كأسي تقريبًا عندما انحرفت لأتفادى شابًّا مندفعًا في الطَّريق المضادّ.

---

(1) أغلب الظَّنّ أنَّها كانت أوبرا سجيفريد (نيكولاس ماير).

ووجدنا فرويد يتحادث مع سيّد طويل القامة في ثياب أنيقة يبدو لدى النَّظرة الأولى شابًّا، ولكنَّه لا يبدو كذلك لدى النَّظرة الثَّانية. وينظر إلى العالم من خلال نظَّارات أنفيَّة سميكة، لا أظنُّ أنّي رأيت أسمكَ منها في حياتي. وكانت ملامحه وسيمة متناسقة وشديدة الجدّيَّة، ولو أنَّه ابتسم ابتسامة خفيفة عندما قدَّمنا فرويد إليه:

- "دعوني أقدِّم لكم هوجو فون هوفمانستال. هذه زوجتي الَّتي تعرفها، وهؤلاء السَّادة ضيوفي هر هولمز ودكتور واطسون".

وبدت على فون هوفمانستال الدّهشة:

- "أنتما هر شرلوك هولمز ودكتور جون واطسون بعينهما؟... هذا شرف عظيم!".

- وأجاب هولمز بلطف: "لا يقلُّ عن تشرُّفنا بك - ومال برأسه قليلًا - إذا كنت أنت مؤلِّف "جسترن".

- وانحنى الرَّجل انحناءة كبيرة، بينما اندفعت حمرة الخجل حتَّى قمَّة رأسه. وكانت استجابة إحراج مشوب بالسُّرور. لم أكن أتوقَّعها منه. ولم تكن لديَّ فكرة عن "جسترن" الَّتي أشار إليها هولمز. ولهذا لذتُ بالصَّمت.

ووقفنا معًا عدَّة دقائق نحتسي الشَّمبانيا، بينما دخل هولمز مع فون هوفمانستال في مناقشة حامية عن أوبراته، وسأله عن زميله الَّذي يتعاون معه في تلك الأوبرا، وهو مَن يُدْعَى ريتشارد شتراوس. والَّذي لم أستطع إيجاد صلة بينه وبين شتراوس صاحب الفالسات الذَّائعة الصّيت[1]. وكان صاحبنا الجديد يحاول الإجابة عن أسئلة

(1) يبيّن اهتمام هولمز بفون هوفمانستال ومعرفته بالتّعاون بينه وبين شتراوس بأنّه كان على ألفة بالمحاولات الفنّيّة المجدِّدة. وقد اكتسح هذان الرَّجلان - بعد عدَّة عقود - العالم

هولمز بقدر ما يمكنه بلغة انجليزيَّة "مكسّرة" متجاهلًا الأسئلة الأكثر صعوبة الَّتي وجَّهها هولمز بشأن الإيقاع الشِّعريِّ الَّذي يفضِّله في كوميديَّاته. ثمَّ سأل عن السَّبب في وجودنا في فيينا.

- "هل السَّبب أنَّك تبحث قضيَّة جديدة؟". تساءل في دهشة وعيناه تلمعان بفضول التِّلميذ.
- وأجابه هولمز "نعم ولا"، ثمَّ استطرد قبل أن يتابع الآخر الحديث: "هل البارون فون لينسدورف الجديد، له نفس الاهتمام الَّذي كان لوالده بالأوبرا؟".
- وكان السُّؤال مفاجئًا حتَّى إنَّ فون هوفمانستال ذُهِلَ للحظة، وظلَّ يحملق في صديقي ببساطة. ولكنّي فهمت المنطق الكامن وراء السُّؤال. إذْ لمَّا كان فون هوفمانستال من نجوم الحياة الفنِّيَّة الأوبراليَّة في فيينا، فلابدَّ أنَّ معرفته بمن يرعونها ستكون وثيقة بلا شكٍّ.
- وأجابه الشَّاعر ببطء، وهو يدير ساق كأسه في يده سارح البال: "إنَّ سؤالك هذا من أغرب الأمور".
- فسأله فوريد الَّذي كان يتابع الحديث باهتمام: "وما وجه الغرابة؟". فردَّ فون هوفمانستال بسرعة وبلغة ألمانيَّة فصيحة: "لأنَّه حتَّى هذه الليلة كانت إجابتي ستكون لا... فلم أعرف عنه قطّ أنَّ له أيّ اهتمامات بالأوبرا. وبصراحة، لقد خشيت أنَّ الموسيقا بوفاة البارون الكبير قد فقدت واحدًا من أقوى أنصارها".
- وقال هولمز: "والآن؟".
- "والآن" ردَّ عليه الشَّاعر بالانجليزيَّة: "إنَّه اليوم في الأوبرا".

عندما قدَّما أوبرا "الفارس الورديّ" (نيكولاس ماير).

- "البارون هنا الليلة؟".

فهزَّ فون هوفمانستال رأسه وهو في حيرة من أمره، ويشتمُّ رائحة قضيَّة جديدة، وقال: "تعالَ... سأريك إيَّاه".

كان جمهور الرُّوَّاد يعود عندئذٍ إلى الدَّاخل بعد أن رنَّ الجرس المؤذِن ببدء الفصل التَّالي. وقادنا فون هوفمانستال إلى مقاعدنا في الصَّالة - رغم أنَّ مقعده لم يكن معنا - (وكان في الحقيقة قد ذهب إلى "البوفيه" ليحضر شمبانيا لمن معه، ولكنَّه لم يوصلها قطّ؛ لأنَّ فرويد استوقفه)، ثمَّ التفت إلى الخلف نحو المقاصير متظاهرًا بأنَّه يبحث عن شخص ما، ولكنَّ هولمز إلى جواره قال: "هناك المقصورة الثَّالثة إلى اليسار".

ونظرنا إلى حيث قال، فرأينا مقصورة يجلس فيها شخصان. ولاحت لنا للوهلة الأولى سيِّدة تلبس ملابس فاخرة، بينما تلمع حليٌّ من الزُّمرُّد في شعرها الدَّاكن المصفَّف. وكانت تجلس بلا حراك إلى جانب سيِّد وسيم يطالع جمهور الرُّوَّاد بقلق من خلال منظار الأوبرا الَّذي يحمله، وكانت تزيِّن وجهه لحية منمَّقة تحيط بذقن قويَّة وشفاه رقيقة، وكان بوجهه شيء، وتصوَّرت للحظة أنَّ الشَّخص ينظر إلينا، فقد كانت محاولة فون هوفمانستال للتَّخفي مليئة بالزَّهو والتَّفاخر.

لقد كان مؤلِّفًا للدِّراما، وكان يعتقد أنَّه يؤدِّي خدمة إلى هولمز في بحثٍ جنائيٍّ ما (وهذا صحيح) إلَّا إنَّ الموقف جعله يتصرَّف بشكل ميلودراميٍّ. ولو أنَّه كان حسن النِّيَّة بالطَّبع.

وفجأة أنزل الرَّجل في المقصورة منظار الأوبرا عن عينيه، وشهقت أنا وفرويد. لقد كان ذلك الشَّخص الشِّرِّير ذو النَّدبة، الَّذي هزمه فرويد شرَّ هزيمة في ملاعب التِّنس في مومبرج. وعلى أيِّ حال، فلم يبدُ عليه أنَّه تعرَّف علينا - إذا كان قد رآنا - وكذلك لم يبدُ شرلوك هولمز - إذا كان قد لاحظ استجابتنا - أيّ تغيُّر.

وسأل هولمز: "مَن هذه السَّيِّدة؟".

- "آه... هـذه زوجـة أبيـه عـلى مـا أعتقـد... الوارثـة الأمريكيَّـة نانـسي أوسـبورن سـلاتر فـون ليسـندورف، وكنـت لا أزال أحملـق في ذلـك الجـمال الباهـر عندمـا أُطْفِئَـتْ أنـوار الصَّالة، وأحسسـت بهولمـز يجذبنـي مـن كـمِّ سـترتي حتَّـى أعتـدل في جلسـتي، وأذعنـت، ولكنّـي لم أسـتطع منـع نفـسي مـن أن ألقـي نظـرة أخـرى عـلى ذلـك الثُّنـائيِّ الغريـب - البـارون الوسـيم ورفيقتـه السَّـاكنة كأنَّهـا تمثـال - بينـما تلمـع ماسَّـاتها في الظَّـلام، والسِّـتار يُرْفَـعُ عـن الفصـل الثَّـاني.

الفصل الثَّاني عشر

كشف السِّرِّ

لا يحتاج الأمر إلى القول إنَّ ما صرَّح به هوجو فون هوفمانستال قد أطاح بأيِّ متعة كنت أتوقَّعها من مشاهدة الجزء الثَّاني من الأوبرا. إذن فقد كانت المرأة الجالسة في مقصورة البارون فون لينسدورف هي أرملته؟! ودار عقلي في محاولة استيعاب تلك المعلومة وفهم مغزاها. أمَّا هولمز، فلم يكن منه رجاء على الإطلاق، وحاولت أن أهمس في أذنه خلال العرض، إلَّا إنَّه أسكتني واضعًا إصبعه بوقار على شفتيه، واستسلم للموسيقا تاركًا إيَّاي غارقًا في تأمُّلاتي.

لقد نشأت مجموعة أخرى من الاحتمالات. فالمرأة الجالسة أمامنا، إمَّا أنْ تكون الأرملة الأسطوريَّة لملك السِّلاح والذَّخيرة، وإمَّا أن تكون مدَّعية. فإذا كانت هي مَن تدَّعي - ولم يكن هناك بُدٌّ من الاعتراف بأنَّها تبدو كذلك - فمَن بحقِّ السَّماء تكون المرأة الأخرى. عميلتنا الَّتي كان لديها تلك المعلومات الحميمة، والَّتي تمَّ اختطافها نتيجة لذلك؟

واختلست نظرة إلى فرويد، ورأيت أنَّه كان هو أيضًا غارقًا في تأمُّلاته. وبدا للوهلة الأولى أنَّه مهتمٌّ بمشكلة المغنِّي الَّذي يرتدي فراء الدّبِّ، ولكنَّ اختلاجات جفنيه دلَّتْ على أنَّ أفكاره تسرح بعيدًا.

وفي العربة الَّتي أقلَّتنا بعد ذلك إلى المنزل، كان هولمز لا يزال سابحًا في ملكوته رافضًا أن يناقش أيَّ أمرٍ، ومقتصرًا على بعض الملاحظات عن العرض.

وعندما استقرَّ بنا المقام أخيرًا في مكتبة فرويد 19 شارع برجاس. ودَّعَ زوجته متمنِّيًا لها نومًا هنيئًا، ودعانا إلى تناول البراندي وتدخين السِّيجار. وقبلت الاثنين. أمَّا هولمز، فقد اكتفى بوضع قطعة من السُّكَّر في فمه، التقطها من الإناء الصِّينيِّ الأبيض المدوّر في المطبخ، وجلسنا في مقاعدنا مستعدِّين لمناقشة خطواتنا التَّالية، عندما هَمْهَمَ هولمز يعتذر قائلًا إنَّه سيعود حالًا. وعبس وجه فرويد عندما غادر هولمز الغرفة، وزمَّ شفتيه، ونظر إليَّ في حزن. ثمَّ قال: "اسمح لي يا دكتور أنا الآخر، أو ربَّما كان الأفضل أن تأتي معي"، وتبعته وأنا في حيرة من أمري، بينما انطلق في خطوات سريعة خارج المكتب، واندفع يقفز فوق الدّرج، ودون استئذان دفع باب غرفة هولمز بقوَّة. ورأيناه جالسًا يحملق في "حقنة" وقنِّينة صغيرة، أدركت أنَّ بها كوكايين، موضوعتين على المنضدة، ولم تبدُ عليه الدَّهشة لرؤيتنا، ولكنّي انزعجت للمنظر لدرجة أنَّنيْ فتحت فمي من الدَّهشة. وظلَّ فرويد بلا حراك. وتبادل هو وهولمز النَّظرات كأنَّ بينهما تواصلًا صامتًا. وأخيرًا قطع هولمز الصَّمت، وعلى شفتيه ابتسامة حزينة: "لقد كنت أفكِّر بالأمر".

- "هذا ما توقَّعته عندما رأيتك تتناول السُّكَّر. إنَّ بعض أساليبك لها صلة بالملاحظة الطِّبِّيَّة، كما تعرف. وعلى أيِّ حال، عليك أن تتدبَّر الموقف بعناية: فلن تستطيع أن تساعد

السَّيِّدَة الَّتي أخذت على عاتقك مساعدتها هذا الصَّباح في المستشفى أن عدت إلى سيرتك الأولى".

- "أعلم ذلك".

ونظر هولمز مرَّة أخرى إلى القنِّينة على المنضدة، بينما استندت ذقنه إلى راحتيه. وبدا الكوكايين والحقنة، كما لو أنَّهما قرابين على مذبح أحد الآلهة. وارتعدتُ وأنا أفكِّر كيف أنَّ الكثيرين من هؤلاء التُّعساء يجبرهم الإدمان على أن يَعُدُّوا المخدِّرات عقيدتهم وإلههم، وأدركت عندما قام هولمز وأدار ظهره للحقنة أنَّه لم يعد ينتمي إلى تلك الزُّمرة.

وجمع الحقنة والقنِّينة في يده، وأعطاهما إلى فرويد (ولم أعلم قطُّ كيف حصل عليهما) وتناول غليونه الأسود، وتبعنا ونحن نخرج من الغرفة، وأغلق بابها بحرصٍ.

عدنا إلى مقاعدنا في مكتب فرويد، الَّذي امتنع عن التَّعليق على الواقعة. وبدلًا من ذلك قصَّ على هولمز مقابلتنا للبارون الشَّابّ في مومبرج، بينما أنصت البوليس السِّرِّيّ دون تعليق، اللهمَّ إلَّا ملاحظة واحدة: "لا يستطيع أن يستخدم ظاهر اليد؟ هذا مثير للاهتمام... وكيف كانت رمية الإرسال لديه؟".

وقاطعت هولمز، وسألته إن كان قد وصل إلى أيِّ استنتاجات.

فقال: "لقد وصلت إلى الأشياء الواضحة فقط، وهي مؤقَّتة في انتظار المزيد من المعلومات والبراهين".

- فقال فرويد "وكيف نميّزها؟".

- "أخشى أنَّها لن تثبت إلَّا في المحكمة، فقد نصل إلى أيِّ استنتاجات نشاء، ولكن ما لم نبرهن عليها، فالأفضل لنا أن نظلَّ في أسرتنا"، وضحك وهو يصبُّ لنفسه قدحًا من البراندي

الَّذي كان قد رفضه قبل ذلك "لقد كانوا شديدي المهارة، بل إنَّ مهارتهم شيطانيَّة. وحيثما لم تساعدهم مهارتهم، أتت الطَّبيعة لنجدتهم بأن قدَّمت لنا شاهدة قليلة القيمة، بل ومشكوكًا فيها إن لم تكن غير صالحة على الإطلاق لتقديمها في المحكمة".

وجلس يفكِّر في صمت، وينفث دخان غليونه بين الفينة والفينة، بينما نحن نراقبه دون أن نجرؤ على قطع حبل تأمُّلاته.

- وتنهَّد أخيرًا وقال: أخشى أنَّ معرفتي بالسِّياسة الأوروبيَّة ليست بالعمق اللازم، فهل لك أن تساعدني يا دكتور فرويد؟

- "وكيف أساعدك؟".

- "أريد بعض المعلومات العامَّة... ألا يزال الأمير أوتوفون بسمارك حيًّا"؟.

- "أعتقد ذلك".

- "ولكنَّه لم يعد مستشار ألمانيا".

- ونظر إليه فرويد مندهشًا، وقال: "كلًّا بالتَّأكيد... منذ ما يقرب من عام الآن".

- "آه". وعاد إلى صمته العميق مرَّة أخرى، بينما تبادلنا - أنا وفرويد - النَّظرات في حيرة.

- وصاح فرويد: "ولكن يا هر هولمز... أيّ علاقة لفون بسمارك بذلك؟".

- "ألَا يمكنك أن ترى العلاقة؟ ونهض واقفًا، وأخذ يذرع الغرفة: "كلَّا... لا أظنُّك تستطيع أن ترى..."، ثمَّ عاد إلى مقعده وقال: "هناك حرب أوروبيَّة يُعَدُّ لها... هذا واضح تمامًا".

ونظرنا إليه مصعوقين.

وشهقت قائلًا: "حرب أوروبيَّة؟" فأومأ برأسه، وهو يفتِّش جيوبَه بحثًا عن ثقاب... "وذات أبعاد مخيفة أيضًا إذا صدق حدسي".

- "ولكن كيف استنتجت ذلك ممَّا رأيته اليوم؟". وكانت لهجة فرويد توحي بأنَّ هناك شكوكًا تدور في رأسه بشأن حالة هولمز العقليَّة.

- "من التَّجاوب بين البارونة فون لينسدورف وابن زوجها".

- "ولكنّي لم ألحظ أيَّ تجاوب".

- "طبعًا، فلم يكن هناك شيء من ذلك".

ووضع كأسه على المنضدة، ونظر إلينا بعينيه الرَّماديَّتين متمعِّنًا: "يا دكتور فرويد، أيوجد هنا مكتب لتسجيل الوصايا؟".

- "الوصايا... آه... نعم... هناك مكتب بالتَّأكيد".

- "إذن... سأكون شاكرًا لك إذا استطعت غدًا صباحًا أن تتنازل عن شيء من وقتك لتبحثَ لي في ذلك المكتب عمَّن يتولَّى إدارة شؤون أملاك البارون فون لينسدورف".

وردَّ فرويد محتجًّا: "لديَّ مريض في العاشرة صباحًا". ولكنَّ هولمز ابتسم، ورفع يده قائلًا:

"هل تصدِّقني إذا قلت لك إنَّ هذه المهمَّة تتوقَّف عليها حياة الملايين، لا حياة شخص واحد؟".

- "حسنًا... سأفعل ما تريد، وماذا ستفعل أنت؟".

- "سأبحث، بمساعدة صديقي الدُّكتور واطسون، عن شقٍّ في جدار الأعداء"، ونفض رماد غليونه، ثمَّ سأل: "هل تستطيع مريضتنا أن تسافر غدًا؟".

- "تسافر؟! أين؟ وما طول المسافة".

- "ليس لمسافة بعيدة، داخل المدينة فحسب، أريدها أن تقابل شخصًا ما. تمعَّن فرويد الأمرَ للحظة، ثمَّ قال بلهجة متشكِّكة، لا بأس... إنَّها تبدو لي في صحَّة جيِّدة بصرف النَّظر عن حالتها، والضَّعف النَّاشئ عن سوء التَّغذية، وأعتقد أنَّ هذا الوضع قد تحسَّن الآن".

ونهض هولمز وهو يتثاءب ويغطِّي فمه بظاهر يده قائلًا: "لقد كان يومنا طويلًا، وتبدو لي الأيَّام المقبلة أكثر طولًا. ولذلك فهيَّا إلى النَّوم". وانحنى لنا، وغادر الغرفة.

وتساءلت بصوتٍ عالٍ: "ما الَّذي يراه هولمز في ذلك الأمر؟".

وردَّ فرويد: "ليست لديَّ أيّ فكرة. وعلى أيِّ حال، لقد حان وقت النَّوم، لا أذكر أنَّني أُجهدت كما أُجهدت الليلة".

وكنت أنا أيضًا قد بلغ بي الإجهاد مداه. ولكنَّ عقلي ظلَّ يقظًا يضرب أخماسًا في أسداس، حتَّى بعد أن غرقت في النَّوم، محاولًا أن أفكَّ طلاسم هذا اللغز الَّذي صادفناه على غير توقُّع خلال زيارتنا لهذه المدينة الجميلة، ولكن بالغة الغرابة. حرب أوروبية (وملايين الأرواح) صحيح أنَّني كنت دائمًا مشدوهًا بالقوى العقليَّة الخارقة لصديقي، ولكنِّي لم أشاهده قطّ يستنتج شيئًا بمثل هذه الضَّخامة من معلومات بالغة الضَّآلة...

ويا للهول! ماذا إذا صحَّتْ أقواله؟ لم أدرِ كيف قضى فرويد ليلته، ولكنَّ أحلامي كانت أكثر فزعًا من مخاوف يقظتي. ولم تَعُدْ مدينة

شتراوس الممتعة البهيجة ترقص على ألحان فالساته البديعة، ولكنَّها كانت تفور وتمور على صرخات كابوس فظيع.

وتناولنا إفطارًا سريعًا في صباح اليوم التَّالي قبل أن ينطلق كلٌّ منَّا إلى مهمَّته. وأكل هولمز بشهيَّة كبيرة بيَّنت أنَّه استعاد صحَّته.... أمام فرويد... فقد أكل بنوع من الحسم، ولكنَّه لم يكن ميَّالًا إلى الحديث، وبيَّنتْ تعبيرات وجهه القلقة أنَّه قضى - مثلي- ليلة ليلاء.

كنَّا على وشك الافتراق عند الباب الأماميِّ، عندما وصل رسول يحمل برقيَّة إلى شرلوك هولمز، فتناولها، وفتح المظروفَ، وقرأها بشغف قبل أن يدسَّها في جيب معطفه، بدون تعليق، وأشار إلى الرَّسول بالانصراف، فلم يكن هناك ردّ، والتفتَ إلينا قائلًا: "ما زالت خططنا كما هي"، وانحنى لفرويد متجاهلًا نظرات الفضول الواضح في أعيننا. وانصرف الطَّبيب مستاءً متجهِّمًا، واستدار هولمز إليَّ: "والآن يا عزيزي واطسون، فلننصرف إلى مهمَّتنا نحن أيضًا".

استأجرنا عربة اتَّجهت بنا إلى المستشفى، وهناك أبرزنا مذكِّرة كتبها لنا فرويد بخطٍّ يده، مكَّنتنا من اصطحاب المريضة. وبدت متحسِّنة من النَّاحية الجسميَّة، ولو أنَّها كانت لا تزال شديدة النَّحافة، ولم تنبس ببنت شفة. ومضت معنا دون مقاومة، وركبت العربة الَّتي كانت في انتظارنا بالخارج. وانطلقت العربة، وكان هولمز قد كتب العنوان على أسورة قميصه، وسارت بنا العربة إلى غايتنا الغامضة. ولم يكن هولمز على استعداد للإفصاح عن شيءٍ أمام الرَّاكبة الجالسة معنا، وقال لي: "كلُّ شيء بأوان يا واطسون... كلُّ شيءٍ بأوان".

وأصررت على المضيِّ في محاولتي، فسألته: "ماذا تتوقَّع أن يجد دكتور فرويد في السِّجلَّات؟".

- "سيجد ما أعرف أنَّه سيجده".

وتحوَّل إلى عميلتنا، وابتسم لها مطمئنًا، ولكنَّها كانت تنظر أمامها، ولم يبدُ عليها أيّ وعي بإيماءاته، وكانت عيناها الزَّرقاوان الرَّماديَّتان خاليتين من أيِّ تعبير.

وعبرت العربة قناة الدَّانوب، ودخل إلى قطاع من المدينة، تحتلّه منازل، بل قصور، واسعة. وكانت كلُّها تحيط بها أسوار عالية الشّجيرات، كما كانت المنازل نفسها بعيدة عن الطَّريق لا تكاد تلمح منها إلَّا أطراف أبراجها وحدائقها الفخمة المهيبة.

وتوقَّفنا أخيرًا في شارع فالنشتاين، ودارت العربة إلى مدخل واسع يؤدِّي إلى منزل قبيح المنظر يقع على ربوة مرتفعة قليلًا. وكانت المساحة الَّتي تقع أمامه مباشرة تحتلُّها حديقة واسعة حسنة التَّنظيم.

وكانت هناك عربة أخرى تقف أمام المدخل المسقوف للبناية، بينما نحن نساعد عميلتنا على النُّزول، فتح بوَّابة المنزل، وخرج منها سيّد متوسِّط الطُّول مشدود الظَّهر شديد الاستقامة. مع أنَّه كان يرتدي معطفًا وملابس مدنيَّة، فإنَّ حركاته كانت تنمُّ عن النِّظام والدِّقَّة المشهود بهما للعسكريين عامَّة، وللتَّدريب البروسيِّ الشَّاقِّ بخاصَّة. إلَّا إنَّ ملامحه لم تكن بروسيَّة. وذكَّرني وجهه، الَّذي بدا مألوفًا لي بشكل غامض، بالمنظر المعروف للكتبة أو الموظَّفين الإنجيليين. وكانت على عينيه نظَّارة أنيقة، وبدت سوالفه مشذَّبة بأناقة، وبدا مشغولَ البال كأنَّه لا يعرف بالضَّبط أين هو.

وانحنى لنا، أو على وجه الدِّقَّة للسَّيّدة الَّتي كانت تستند إلى ذراعي، ولمس قبَّعته بأصابعه في تحيَّة كريمة، واختفى داخل العربة الَّتي انطلقت فورًا دون أيِّ إذن منه، أو على الأقلِّ لم أسمعه.

وحملق هولمز في العربة الَّتي سارت للحظة وهو مقطِّب الجبين، وسألني: "هل تتذكَّر رؤية هذا السَّيِّد في الأيَّام الأخيرة يا واطسون؟".

- "أجل ولكنّي لا أتذكَّر أين... ولكن يا هولمز منزل مَن هذا؟".
- ونظر إليَّ مبتسمًا، وجذب الجرس، وقال: "إنَّه مقرُّ البارون فون لينسدورف في فيينا".
- "ولكن يا هولمز هذا شيء مفزع".
- "لماذا؟"، وخلَّص ذراعه بلطف من قبضتي "إنَّ البارون ليس هنا الآن".
- "ولكن إذا عاد؟ أنت لا تدرك أيَّ أذى يمكن أن ينتج عن تلك المواجهة" مشيرًا إلى رفيقتنا "الخرساء"، "أعتقد أنَّه كان يجب عليك مشاورة الدُّكتور...".
- فقاطعني بجدِّيَّة: "يا عزيزي واطسون، أشكر لك عواطفك النَّبيلة ونصائحك الغالية. ولكنَّ الوقتَ له قيمة كبرى، وإذا استطعنا أن نفرض أنفسنا، فلنفعل. وعلى أيِّ حال لا يبدو عليها أيّ استجابة لمرأى المنزل. ومَن يدري؟ ربَّما إذا استجابت تكون هذه هي الصَّدمة الَّتي تعيدها إلى رشدها".

وانفتح الباب الكبير، وخرج إلينا خادم في بزة رسميَّة، ذو مظهر جامد لا يبدو عليه أيُّ انفعال. وسألنا عن مبتغانا. فأعطاه هولمز بطاقته، وطلب منه بالألمانيَّة - الَّتي تحسَّن أداؤه فيها منذ إقامتنا في فيينا - أن يقدِّمها إلى سيِّدة المنزل.

وتراجع الخادم إلى الخلف دون أن يغيِّرَ من سمته بعد أن سمح لنا بالبقاء في غرفة للانتظار ذات سقف مقبَّب عالٍ، ومن خلالها رأينا قاعة مستطيلة ضخمة باذخة، ولكن قبيحة المنظر، مثلها مثل المظهر الخارجيِّ للمنزل. كانت جدرانها مغطَّاة بخشب البلّوط، وأرضيتها مكسوَّة بالسَّجَّاد، وعلى الحائط أسلحة من العصور الوسطى، وصور

في إطارات مذهَّبة، لم أستطع تبيُّن موضوعاتها من موقعنا في الرُّدْهَة، وانساب ضوء ضئيل من خلال نوافذ زجاجيَّة ضيّقة.

- وهمهم هولمز في أذني: "هل رأيت مكانًا أبشع من ذلك؟... انظر إلى السُّقوف".
- "يا هولمز لابدَّ لي أن أحتجَّ على تلك الطَّريقة، قلْ لي يا رجل على الأقلِّ ماذا يدور... مَن سيحارب في تلك الحرب المقبِلة؟".
- "أخشى أن أقولَ إنَّه ليست لديَّ أدنى فكرة". أجابني بفتور وهو لا يزال يحملق في الزَّخارف الخشبيَّة المحيطة بنا:
- "إذن كيف بحقِّ الآلهة استنتجت ذلك؟".
- فأجاب بشيءٍ من الحدَّة: "انظر هنا... لدينا منافسة لامتلاك ضيعة تحتوى على مصانع ضخمة لإنتاج الذَّخيرة... لن يكون استنتاج الأمر صعبًا...". وقطع حديثه؛ إذْ لمح الخادم قادمًا من القاعة؟
- وأشار الخادم إلينا: "اتبعوني إذا سمحتم، فسأقودكم إلى البارونة".

واتَّضح لنا أنَّه كان لابدَّ من دليل. إذْ كان المكان فسيحًا مليئًا بالممرَّات والدَّهاليز، بحيث كان من المستحيل أن نستدلَّ على صالون استقبال البارونة.مكتبة .. سُر مَن قرأ

كانت الغرفة مؤثَّثة بذوق أكثر حداثة من الغرف الَّتي لمحناها في طريقنا إليها، ولكنَّ الذَّوق كان واحدًا... شنيعًا للغاية... المكسوَّة من قماش رخيص ذي لون أحمر زاهٍ، بينما غطَّت ظهور المقاعد ومساندها، وكلّ قطع الأثاث مفارش من الدَّانتيلًا.

وجلست على الأريكة وسط هذا الكمِّ الهائل الموحّد اللون- كطير جميل وسط عشِّه - المرأة الجميلة الَّتي لمحنا طرفًا منها الليلة الماضية. ونهضت عندما دخلنا الغرفة، وحادثتنا بلغة انجليزيَّة ذات لكنة أمريكيَّة.

- "السَّيِّد شرلوك هولمز على ما أعتقد؟ إلامَ نعزو شرف هذه الزِّيارة...؟".

وتوقَّفت فجأة، وأطلقت صيحة تنمُّ عن التَّعرُّف، بينما ضمَّت يديها إلى صدرها بحركة لا إراديَّة، واتَّسعت عيناها الجميلتان من الدَّهشة، وصاحت: "إلهي... هل هذه نورا؟".

وأسرعت بخطاها، متجاهلة وجود هولمز، ووجودي، وجذبت ذراع عميلتنا بلطف، بحيث أوقفتها في الضَّوء، حيث أخذت تتفحَّصها بتمعُّن. أمَّا عميلتنا، فقد ظلَّت على حالها مستسلمة، ولا مبالية، وتحمَّلت فحص البارونة لها، وهي في حالة من اللا مبالاة والملل.

وصاحت البارونة وهي تنقل نظراتها من الواحد منَّا إلى الآخر من الاضطراب المتعجرف: "ماذا حدث...؟ إنَّها متغيِّرة تمامًا".

- وسألها هولمز بهدوء وهو يراقبها بعناية، بينما عادت البارونة إلى الاعتناء بالمرأة الَّتي سمَّتها نورا: "هل تعرفين هذه السَّيّدة؟".

- "أعرفها... بكلِّ تأكيد هذه خادمتي الخصوصيَّة نورا سيمونز. لقد فقدناها منذ عدَّة أسابيع دون أيّ أثر... يا للسَّماء يا نورا... ماذا حدث... وكيف تمكَّنت من الوصول إلى فيينا؟".

كانت ملامح وجهها تنمُّ عن الدَّهشة البالغة الَّتي تحوَّلت إلى عطف واهتمام خلال تفحُّصها للوجه الذَّابل للمرأة الأخرى.

- "أعتقد أنَّها غير قادرة على الإجابة عن أسئلتك، وتقدَّم منها، وساعد نورا سيمونز (إذا كان هذا هو اسمها فعلًا) على الجلوس. وشرح للبارونة باختصار كيف عثرنا على خادمتها.

وصاحت السَّيّدة بعد أن انتهى من حديثه: "ولكنَّ هذا أمر مروِّع... أتقول إنَّها اخْتُطِفَتْ؟".

- أجابها المخبر السِّرِّيّ بنبرات محايدة: "هذا ما يبدو... هل أفهم من حديث سيادتكم أنَّها قد صاحبتك إلى بافاريا؟".

- "طبعًا، إنَّها لم تفارقني منذ أن أبحرنا - اللهمَّ إلَّا في أيَّام إجازتها"، وبان على وجهها غضب فيه شيء من النُّبل، واستطردت: "وقد اختفت منذ حوالي ثلاثة أسابيع".

- وقال هولمز: "يوم وفاة البارون؟".

واحمرَّ وجه البارونة بشكل عميق، وأصابعها تتشابك بعضها مع بعض:

- "نعم، لم تكن نورا في الفيلَّا عندما وقع الحادث المشؤوم، فقد كانت في القرية المجاورة، أرجولدزيخ، أعتقد أنَّ هذا هو اسمها. وفي غمرة الاضطراب الَّذي حدث، لم يفتقدها أحد. وعلى أيِّ حال، فقد كان يوم إجازتها. وعندما لم تعد في الصَّباح التَّالي. ظننت أنَّها ربَّما - عندما علمت بالمأساة - انتابها الفزع. وكانت طبيعتها من النَّوع العصبيِّ، كما أعلم تمامًا"، وتوقَّفت لحظة، ثمَّ استطردت: "كما ترى، كنَّا قريبتين من بعضنا جدًّا - كانت العلاقة بيننا أكثر من علاقة سيّدة بخادمتها... ولكن عندما غابت بعد ذلك. دون إرسال أيّ رسالة، بدأت أخشى أن يكون حَدَثَ لها مكروه، فأبلغت

الشُّرطة. وربَّما كان عليَّ أن أبلغ الشُّرطة قبل ذلك، ولكنَّ وفاة زوجي المفاجئة قد أفسدت كلَّ شيءٍ".

- "قلت إنكِ خشيتِ أنْ يكون حدث لها مكروه، فهل تشكّينَ في وجود غدر؟".

- "لم أدرِ وقتها كيف أفكِّر... كانت قد اختفت"، وانهارت البارونة في يأس واستسلام، بينما ارتسمتْ على وجهها علامات الأسى في رشاقة ولطفٍ. وكان من الواضح أنَّ مشاعرها قد طغت عليها، بل إنَّ مجرَّد الذِّكرى كانت كافية لذلك، ومع ذلك فقد ألحَّ هولمز في سؤالها:

- "ألم تستطع الشُّرطة أن تخبركِ بتحرُّكات خادمتك؟".

هزَّت رأسها نفيًا، ثمَّ اندفعت لتمسك بيد المرأة الأخرى تضغطها في حنان: "يا فتاتي العزيزة، كم ارتحت لرؤيتك مرَّة أخرى!".

- وسألها هولمز وهو يرمقها بانتباه: "هل لي أن أستفسر عن الطَّريقة الَّتي لقي بها زوجك حتفه؟".

تلوَّن وجه البارونة بشدَّة مرَّة أخرى، وأخذت تنقل بصرها بيننا نحن الاثنين في حيرة شديدة. ثمَّ قالت ببساطة في همس لا يكاد يُسمَع "قلبه". كان الموقف محرجًا. ونهض هولمز واقفًا وقال: "آسف لسماع ذلك... يبدو أنَّ عملنا هنا قد انتهى يا واطسون... لقد حللنا اللغز الصَّغير". ومدَّ يده ممسكًا بذراع نورا سيمونز، والتفت إلى البارونة قائلًا: "سيِّدتي. نأسف لإزعاجك والحضور في وقت حزنك، ونشكرك على وقتك الثَّمين".

- ونهضت البارونة كذلك قائلة: "هل ستأخذونها منِّي مرَّة أخرى... إنَّني لم أكد أهنأ بلقياها... وأؤكِّد لك يا مستر هولمز أنَّ وجودها ضروريٌّ لسعادتي".

- "إنَّها، في حالتها الرَّاهنة، لا تصلح لأيِّ شيء". ثمَّ بجفاف: "إنَّها تحتاج لتلقِّي الرِّعاية، لا أن تبذلها للآخرين، ومدَّ يده إلى البارونة مرَّة أخرى، ولكنَّها قالت بنوع من التَّأكيد:

- "ولكنِّي سأعتني بها بنفسي... ألم أقل لك إنَّها رفيقتي مثلما هي خادمتي؟". كان في لهجتها نوع من التَّوسُّل حتَّى إنَّني كنت على وشك أن أرجو هولمز أن يترك لها الفتاة؛ لأنَّ الحبَّ قد يكون أحيانًا أفعل من الدَّواء. ولكنَّه سارع إلى القول بحسم: "أخشى ألَّا يكون ذلك مستطاعًا، فإنَّ خادمتك تحت رعاية ومسؤوليَّة الدُّكتور سيجموند فرويد في مستشفى كرانكنهاوس، وقد سمحنا لأنفسنا أن نصطحب الفتاة إلى هنا دون موافقته، ولم أكن لأفعل ذلك لولا أنَّ التَّحقُّق من شخصيَّتها أمرٌ في غاية الأهمِّيَّة...

- "ولكن".

- "غير أنَّني أعتقد أنَّه في الإمكان أن أقنع الدُّكتور بإخراجها من المستشفى ووضعها في رعايتك. ولا شكَّ أنَّكِ في بروفيدانس كنتِ تشاركين في الأعمال الخيريَّة، وتساعدين الكنيسة في رعاية الفقراء والمشرَّدين". وسارعت البارونة إلى الإجابة:

- "طبعًا... طبعًا... لقد كنتُ نشطة في الأعمال من هذا النّوع".

- "هذا ما ظننته. وتأكَّدي يا سيّدتي أنَّني سأنقل هذه المعلومات إلى الدُّكتور فرويد، ولا شكَّ أنَّه سيضع ذلك في الاعتبار عند إخراجه المريضة من المستشفى". وكانت على وشك الاستمرار في المناقشة، ولكنَّ هولمز ردَّ بلطف، وألقينا التَّحيَّة، وانصرفنا مصطحبين معنا الخادمة التَّعسة.

وكانت العربة الَّتي أقلَّتنا ما زالت في انتظارنا، وما أن استقرَّ بنا المقام بداخلها حتَّى اندفع هولمز في نوبة من الضَّحك المكتوم:

- "لقد شاهدنا عرضًا ممتازًا يا واطسون، جمع بين تماسك الأعصاب والابتكار إلى جانب البراعة الفنِّيَّة لمن تُدْعَى "ألين تيري". لقد كانوا بالطَّبع مستعدِّين لمثل تلك الواقعة. لقد تمَّ تدريب المرأة بمهارة فائقة".

- "أهي مدَّعية إذن؟". لقد كان من المستحيل أن أصدِّق أنَّ تلك المخلوقة الرَّائعة مزيَّفة. إلَّا إنَّ هولمز هزَّ رأسه بالإيجاب، وهو ينفض بعض التَّبغ المحترق من غليونه. وقال وهو يومئ برأسه إلى عميلتنا: "هذه المرأة المسكينة هي بلا جدال البارونة فون لينسدورف - سواء أكان ذلك في مصلحتنا أم لا". ثمَّ أضاف: "ومع ذلك، أرجو عندما ننتهي من هذا الأمر أن نكون قد أعدنا إليها بعضَ حقوقها، بالإضافة إلى عقلها طبعًا".

- "وكيف عرفت أنَّ المرأة الأخرى كاذبة؟".

- "تقصد ما الَّذي وشى بها، بالإضافة طبعًا إلى تلك القصَّة المختلَقة عن الخادمة الَّتي هربت من المنزل دون إنذار؛ لأنَّ سيِّد المنزل أُصِيْبَ بنوبة قلبيَّة"، وهززت رأسي قائلًا: "إنَّني أجد القصَّة محتملَة الحدوث". وتابعت حديثي وقد تشكَّلت في رأسي نظريَّة:

- "وربَّما كانت هناك صلة ما بين الأحداث الَّتي لم ندركها بعد، تساعدنا على فهم تصرُّفاتها...".

- فقال هولمز وهو يبتسم: "ربَّما، إلَّا إنَّ هناك عوامل معيِّنة تؤيِّد بشدَّة النَّتائج الَّتي توصَّلت إليها".

لقد كانت البارونة بالنِّسبة لي مقنِعة تمامًا. كانت شخصيَّتها الرَّائعة لا تقارَن بتلك المرأة المتخلِّفة العقل الَّتي نرشِّحها لذلك الدّور، كما كان هناك شيء يغيظ في سلوك صديقي الواثق من نفسه (وهو الَّذي كان منذ أقلّ من أسبوع مجرَّد مجنون يهذي - ولم يستعد كيانه إلَّا من جرَّاء تدخُّلي) بحيث حزَّ حديثه المتعالي في نفسي، أكثر من أيّ وقت مضى.

- وسألته بلهجة المتشائم: "وما تلك الحقائق يا ترى؟".

- فأجابني وهو يناولني البرقيَّة الَّتي سبق أن تسلَّمها في الصَّباح، ومتجاهلًا لهجتي العدائيَّة: "قد يهمّك أن تعرف أنَّ آل سلاتر من رود أيلاند ينتمون منذ ما يزيد على مائتي عام إلى تلك الفئة الدِّينيَّة المعروفة باسم "الكويكرز"، وهذه الفئة لا تذهب إلى الكنائس، وإنَّما تعقد اجتماعات خاصَّة بها. وهم بالتَّأكيد لا يَعُدُّون أعمال الخير من الأعمال الكنسيَّة...". وتحوَّل إلى النَّافذة يطلُّ منها على الطَّريق.

لم أعد أستطيع إخفاء دهشتي، ولكن قبل أن أنطق بحرف، قال لي وهو ما زال ينظر من النَّافذة في تراخٍ: "وبالمناسبة، لقد تذكَّرت أين سبقت لنا رؤية الكونت فون شليفن".

- "الكونت مَن؟".

- "فون شليفن، السَّيِّد الَّذي قابلناه خارجًا من القصر. لقد ظهرت صورته في التَّايمز[1] منذ عدَّة شهور... ألم ترها؟ وإذا لم تخنّي الذَّاكرة، فقد كان قد عُيِّن لتوِّه رئيسًا لهيئة أركان حرب الجيش الألمانيِّ".

(1) طبعًا لم تُنْشَرْ صورته الفوتوغرافيَّة؛ إذْ لم تكن طباعة الصُّحف قد تقدَّمت إلى ذلك الحدّ، وإنَّما نُشِرَتْ صورة تخطيطيَّة للكونت فون شليفن عام 1891 في التَّايمز (ن. م.).

الفصل الثَّالث عشر

نظريَّات شرلوك هولمز

وقف شرلوك هولمز فوق السِّجادَّة الحمراء أمام الموقد في مكتب فرويد، وهو يستند بمرفقيه على رفِّ المدفأة خلفه وقال:

- "تمنح الوصيَّة إذن كلَّ شيء إلى البارونة الجديدة".

رفع فرويد عينيه عن الكرَّاسة الَّتي كان يكتب فيها، ونظر بعتابٍ إلى هولمز قائلًا: "لو كنت قرأت بعينيك شروط وصيَّة البارون مثلما فعلت لكنت عرفت ذلك... ولقد أضاع ذلك عليَّ ميعادًا مع مريض كما سبق أن قلت لك، إلَّا إنَّك أصررت قائلًا إنَّ ذهابي إلى دار السِّجلَّات له أهمِّيَّة عظمى".

ضحك هولمز بطريقته المكتومة المعتادة، ورفع يده معترضًا:

- "سوف تغفر لي بالتَّأكيد يا دكتور، لقد كنت أتكلَّم عن اعتقاد لا عن معرفة. إنَّ فترتك الصَّباحيَّة لم تذهب سُدًى، فإنَّ الحقائق الَّتي أتيت بها أكَّدت شكوكي. إلَّا أنِّي أقسم لك

أنَّه لو كانت لغتي الألمانيَّة كافية لم أكن لأضيّع عليك ميعاد مريض. وها هو الدُّكتور واطسون يشهد أنَّني لم أكن أُبْعِده عن مرضاه إلَّا "للشَّديد القوي" فاعفُ عنِّي يا سيّدي؟".

وأخذ هولمز يحكي لفرويد نتائج زيارتنا. وعبس وجهه قليلًا عندما عرف أين ذهبنا بمريضته... ولكن عاد إليه ارتياحه عندما أكَّدنا أنَّه لا المنزل ولا سكَّانه كان لهم أيّ تأثير على المريضة.

وتابع هولمز حديثه قائلًا: "لقد حان الوقت الآن"، وأخذ يبحث عن غليونه الشَّهير، ولو أنَّه ظلَّ واقفًا مستندًا إلى رفِّ المدفأة، "أقول حان الوقت لنجمع أطراف معارفنا، ونرى إن كانت تتَّفق مع نظريَّاتنا"، وتوقَّف قليلًا، وانحنى ليمسك جمرة فحم متوهِّجة بالملقط، ويشعل بها غليونه: "ودعني أسألك يا هر فرويد سؤالًا أخيرًا قبل أن أعرض الحالة. وما رأيك في شخص قيصر ألمانيا الجديد؟".

- وتدخَّلت قائلًا: "إنَّه يحكم ألمانيا منذ 1888". وأومأ هولمز برأسه، ولكنَّه ظلَّ مركِّزًا عينيه على فرويد، الَّذي كان يتدبَّر السُّؤال. ثمَّ قال بعد فترة:
- "إذا كان لي أن أدلي برأيي في كلمة واحدة، فهي أنَّه غير ناضج".
- "وما رأيك في سياسته؟".
- "إنَّها تدور في معظمها حول التَّشريعات الاجتماعيَّة. إنَّه يخشى الاشتراكيَّة خشية الموت. وتميل سياسته الخارجيَّة إلى العدوان- على قدر ما أستشفُّه من قراءة الصُّحف. خاصَّة تجاه روسيا في مسائل مثل حقوقه في البلقان".
- "وما رأيك في طبعه؟".
- "آه... هذا سؤال أصعب، إنَّه ذكيٌّ كما يبدو. ولكنَّه سهل الاستثارة، تنتابه نوبات من نفاد الصَّبر ممَّن حوله. وأعتقد

أنَّه نتيجة تلك الصِّراعات تمَّت تنحية الأمير فون بسمارك. فالقيصر مغرم بالمظاهر العسكريَّة، كالسُّترات والاستعراضات وعلامات القوَّة الشَّخصيَّة". وتوقَّف فرويد لحظةً، ثمَّ ضحك، وقال مترددًا : "الواقع أنَّني كوَّنت نظريَّة بشأن القيصر منذ مدَّة".

- وسارع هولمز إلى القول بأدب: "إنَّني جدّ مشتاق لسماعها".
- "إنَّها ليست صعبة الفهم". ونهض فرويد فجأة كما لو كان غير راضٍ عن نفسه؛ لأنَّه ذكر تلك النَّظريَّة.
- فقال له هولمز مصرًّا وهو يضمُّ أطراف أصابعه مستندًا إلى رفِّ المدفأة، وقد ضغط بأسنانه على غليونه، وأخذ الدُّخان يتصاعد في حلقات: "اسمح لي يا سيّدي أن أحكم بنفسي على مدى أهمّيَّتها بالنِّسبة لقضيَّتي".

وهزَّ فرويد كتفيه:

- "لعلَّك علمت، سواء من رؤيتك صور القيصر أم من القراءة عن الموضوع أنَّ له ذراعًا ضامرة بعض الشَّيء، لم تنمُ نموًّا طبيعيًّا نتيجة المرض في الطُّفولة".
- "يحتمل أنَّه شلل الأطفال... لست متأكِّدًا... وعلى أيِّ حال، فهو من النَّاحية الجسديَّة لا يُعَدُّ رجلًا مكتمل النّموِّ، وتوقَّف فرويد لحظة، ونظر إلينا متسائلًا: "إنَّكما أوَّل مَن يسمع نظريَّتي الغريبة هذه".

ونظر إليه هولمز من خلف دخان غليونه، ورجاه أن يستمرَّ.

"حسنًا- باختصار- لقد بدا لي أنَّ إصرار القيصر وإلحاحه على مظاهر القوَّة، وغرامه بالبزَّات العسكريَّة الزَّاهية - خاصَّة تلك العباءات الَّتي تحجب عن الأنظار عاهته - بدا لي أنَّ حبَّه لهذه

المظاهر الحربيَّة العدوانيَّة هي كلّها بشكل أو بآخر مظاهر لشعوره بعدم كفاءته الشَّخصيَّة. ويمكن النَّظر إليها كلِّها كوسائل تعويضيَّة عن الذِّراع. وليس من الضَّروريّ أن يكون المعوَّق العادي حسَّاسًا بهذا الشَّكل، ولكنَّ حساسيته بالذَّات ترجع إلى أنَّه الملك، وسليل نسب طويل من الأجداد النُّبلاء والأبطال".

اندمجتُ فيما كان فرويد يقصُّه حتَّى إنَّني نسيت وجود هولمز في الغرفة. وعندما انتهى فرويد نقلت نظرتي، فرأيت هولمز يحملق في الطَّبيب بانتباه وإعجاب شديدين. وغاص هولمز شيئًا فشيئًا ببطء في المقعد المقابل لمقعدي.

ثمَّ قال أخيرًا: "هذه فكرة رائعة... أتعلم ماذا فعلت؟ لقد نجحت في تطبيق أساليبي _ الملاحظة والاستنتاج _ على ما يوجد بداخل رأس الشَّخص".

وابتسم فرويد: "لا تستطيع اعتباره شخصًا بالمعنى المفهوم _ وعلى أيِّ حال أرجو ألَّا تكون أساليبك_ كما قلت خاضعة لحقوق براءات الاختراع؟". وكانت لهجته رقيقة إلَّا إنَّ الرِّضى كان يشيع فيها. لقد كان، شأنه شأن هولمز لديه شيء من الغرور". ومع ذلك قد يتَّضح أنَّ ما وصلت إليه خاطئ تمامًا. فلقد لاحظت أنت بنفسك مخاطر الاستدلال دون وجود معلومات كافية في حوزة المرء".

- وصاح هولمز: "هذا شيء بديع! إنَّه لا يحمل فقط رنَّة الصِّدق _ أو المصداقيَّة كما يقولون _ ولكنَّه يؤكِّد بعض الحقائق والنَّظريَّات الَّتي سوف أعرضها عليكم الآن". ونهض مرَّة أخرى، وتوقَّف سارح البصر والذِّهن قبل أن يبدأ حديثه:

"أتعلم يا دكتور أنَّني لن أصاب بالدَّهشة إذا ما ثبت في المدى البعيد أنَّ تطبيقاتك لأساليبي ستكون ذات أهمِّيَّة أعظم بكثير من التَّطبيق الميكانيكيِّ الَّذي أستخدمه".

ولكن تذكَّر دائمًا التَّفاصيل الملموسة... فمهما بلغ توغُّلك في العقل، فإنَّ التَّفاصيل ذات أهمِّيَّة قصوى.

هزَّ فرويد رأسه، وانحنى أمام هولمز وقد أخذ - على ما أظنُّ - بذلك المديح المفاجئ من جانب المخبر السِّرِّيّ الشَّهير.

واستطرد هولمز: "والآن دعوني أقصُّ عليكم قصَّتي". وأعاد إشعال غليونه، بينما اتَّخذ الدُّكتور وضع الانتباه في مقعده. وكان فرويد شأنه شأن هولمز مستمعًا عظيمًا، ولو أنَّ كلَّ واحد منهما كان ينظر إلى ما يقوله العميل بطريقة جدّ مختلفة. لم يكن فرويد ينصت، وقد أغلق عينيه، وضغط أطراف أنامله بعضها ببعض. بل على العكس، استند بخدِّه إلى راحته المفتوحة، وثبَّت مرفقه على مسند المقعد، ووضع ساقًا على الأخرى، وراح يراقب مَن يتحدَّث إليه بعينين ثابتتين واسعتين. بل ولم يكن دخان السِّيجار الَّذي يمسكه بيده الأخرى، رغم رائحته النَّفَّاذة، بقادر على أن يجعل عينيه تضيقان. وفي تلك اللحظات كان يبدو عليه أنَّه ينظر مباشرة إلى روح الشَّخص، وهو انطباع لم يفت نظر هولمز الثَّاقب. وهكذا بدأ هولمز قصَّته:

"لدينا رجل أرمل ثريٌّ، له ولد واحد ليس له محلّ اهتمام خاصّ منه - كما أنَّ الابن لا يهتمُّ بأبيه أيضًا - يسافر هذا الرَّجل في رحلة إلى الولايات المتَّحدة. وهناك يقابل امرأة شابَّة - في نصف عمره تقريبًا - ولكن رغم ذلك - أو ربَّما بسببه - يقعان في الحبِّ، ولمَّا كان الرَّجل يدرك أنَّ ما بقي من عمره محدود؛ فإنَّهما يتزوَّجان فورًا. وتنحدر المرأة من أسرة ثريَّة تعتنق مبادئ الكويكرز"، وتتمُّ مراسم الزَّواج في كنيسة تابعة للكويكرز، وهي ليست كنيسة، بالمعنى المألوف، إنَّما يطلقون عليها "مقرّ الاجتماعات". ولقد فهمنا تلك العبارة عندما همهمت بها عميلتنا فيما بعد على أنَّها المجزر. ومن ثَمَّ أخطأنا؛

إذْ ربطنا بين ما افترضناه من حبسها في مستودع بجوار مجزر؛ ممَّا أبعدنا عن جادَّة الصَّواب لفترة.

ويعود الزَّوجان للإقامة في ضيعة الزّوج المنعزلة في بافاريا. وكان أوَّل ما فعله الزّوج هو تغيير وصيَّته لمصلحة الزّوجة. وكانت معتقداتها الدِّينيَّة في هذا الشَّأن، وكذلك عليه أن يحتفظ بإمبراطوريَّة كاملة خصَّصها لصنع أسحلة الدَّمار والحرب. ولمَّا لم تكن لديه القوَّة الكافية، أو الميل لكي يخصِّص سنواته الأخيرة لتفكيك مصانعه، فإنَّه تخلَّى عن الأمر، ووضعه كلَّه في يدها في حالة وفاته لتفعل به ما تشاء.

إلَّا أنَّ الرَّجل العجوز لم يضع في اعتباره - أو أساء التَّقدير- غضب ابنه السَّفيه المتلاف. فعندما وجد أنَّ آماله قد انهارت، وضاعت منه كلّ تلك الملايين؛ اتَّخذ إجراءات شيطانيَّة لاستعادتها. ولمَّا كانت آراؤه السِّياسيَّة من النّوع المحافظ، كما أنَّه نشأ في ألمانيا الجديدة، وكانت له صلاته الَّتي استخدمها ببراعة. فأثار أمامهم مسألة أن تقوم امرأة غريبة من العامَّة بتفكيك آلة الحرب الأساسيَّة الَّتي يعتمد عليها القيصر. وبالطَّبع لم يكن هؤلاء النَّاس على استعداد بأيِّ حال لقبول ذلك الأمر. وهكذا أعطى الفتى "كارت بلانش" ليتصرَّف في الأمر، ولا شكَّ أنَّه منحَ أيضًا بعض المساعدات. وعلينا أن نكشف كيف تمَّ تدبير الأمر، ولكنَّه استطاع بشكل أو بآخر أن يدبِّر مقتل والده.

ثمَّ عمل على تهريب زوجة أبيه من ألمانيا، وسجنها في مستودع قرب قناة الدَّانوب هنا في فيينا. وتوجد وصيَّة الوالد طبعًا في سجلَّات ألمانيا والنِّمسا، حيث إنَّ أملاكه موزَّعة بين الدَّولتين. وبدأ الضَّغط على العروس للتَّنازل عن الوصيَّة لصالح الابن. ولكنَّها رفضت ذلك بشجاعة. ومنحها حبّها، وكذلك معتقداتها الدِّينيَّة قوَّة قاومت الجوع، وكافَّة أنواع التَّهديدات الأخرى. وخلال حبسها الانفراديّ بدأ عقلها يتهاوى، ولكنَّها ببراعة شديدة تمكَّنت من الهرب. وعندئذٍ فقط، أي

عندما نالت حرّيّتها اتّضح لها مدى العجز واليأس اللذين يحيطان بها، فهي لا تتكلّم الألمانيّة، ولا تعرف أحدًا، وبلغ بها الضّعف والهزال مبلغًا لا تقدر معه على اتّخاذ أيّ خطوة. وكان القفز من الجسر هو أقرب وأبسط الحلول، إلّا أنّ رجل الشُّرطة المارّ أفسد هذه المحاولة، فعادت إلى حالة العجز واليأس اللتين وجدتها عليهما يا سيّدي الدُّكتور".

- "واضطجع فرويد في مقعده وهو ينفث دخان السِّيجار، ويحملق متأمِّلًا، ثمَّ قال: "وماذا بشأن السَّيّدة الَّتي رأيناها في الأوبرا؟".

- "إنَّ الرَّجل الَّذي نواجهه ماكر مثلما هو جريء، فعندما علم أنَّ زوجة أبيه قد هربت من سجنها؛ اتَّخذ قرارًا سريعًا. فقد أدرك - مثلما أدركت هي - أنَّ موقفها يائس وعاجز، ومن ثَمَّ تعمَّد أن يتجاهلها. فلتقل قصَّتها... لن يمكنه أن يفهم كلامها - ولا ريب أنَّه ابتسم لهذه الفكرة - أمَّا هو فلن يجذب الأنظار إليه بأن يبحث عنها، أو يستأجر مَن يبحث له. لقد لجأ إلى استئجار مَن يحلُّ محلَّها، وبخدعة بسيطة وتزوير التَّوقيع يمكنه نقل الوصيَّة كما يشتهي. فمَن سيجرؤ على مناقضة قرار الأرملة؟ والحقّ أنَّني لا أعرف كيف حصل على هذه التِّلميذة النَّابهة، يحتمل أنَّه هي نفسها الخادمة، الَّتي ادَّعت أنَّها السَّيِّدة، أو ربَّما كانت ممثِّلة أمريكيَّة مغمورة قذفت بها الرِّيح بعيدًا عن وطنها، ولكن أيًّا كان الأمر، فقد دُرِّبَتْ بمهارة، ولا ريب أنَّها تكلَّفت غاليًا أيضًا".

"وقد توقَّع بذكائه أنَّ هناك فرصة - ولو ضئيلة - لاكتشاف أمر زوجة أبيه؛ ولذلك زوَّد بديلتها بحكاية مقنعة. لقد كان يعلم بالطَّبع أنَّ زوجة أبيه فقدت عقلها قبل هروبها. وكان واثقًا من أنَّ عقلها

لـن يسـتردَّ تكاملـه بسرعـة، بحيـث يمكنهـا لفـت نظـر أيّ شـخص جـادٍّ. ولعلَّـك تتذكَّـر يـا واطسـون أنَّ المـرأة الَّتـي تحدَّثنـا إليهـا اليـوم ذكـرت أنَّ خادمتهـا تُدْعَـى نـورا سـيمونز، وهـذه حركـة بارعـة مـن جانـب البـارون الشَّـابّ، ولـو أنَّهـا أثـارت ريبتـي لغرابتهـا، فاسـم الخادمـة يحمـل نفـس الحـروف الأولى مـن اسـم سـيّدتها ن. س، هـذه مصادفـة لا معنـى لهـا، إلَّا إذا كانـت الخادمـة عندمـا هربـت قـد ارتـدت بعـض ملابـس سـيّدتها، واسـتطرد يحلِّـق في آفـاق اسـتنتاجاته - وأعتقـد بنـاء عـلى ذلـك أنَّـه لم يبلـغ البوليـس البافـاري بتلـك القصَّـة".

- وسـألته: "معنـى ذلـك أنَّ هـروب الخادمـة تـمَّ تبليغـه إلى البوليـس ليلـة وفـاة البـارون؟".
- "ربَّمـا في الصَّبـاح الَّـذي يليـه، ولـن أُدْهَـش إذا علمـت ذلـك، فالشَّـابّ الَّـذي نتعامـل معـه قـد تعلَّـم أصـول لعـب الـورق عـلى يـد الأمريـكان".
- "ماذا تعني؟".
- "أعنـي أنَّـه يحتفـظ دائمًـا بورقـة مخبَّـأة لا يظهرهـا إلَّا في الوقـت المناسـب، والمسـألة الآن...".

وقطع حديثه صوتُ طرقٍ على الباب.

وفتحـت بـاولا البـاب لتعلـن أنَّ ممرِّضًـا مـن مستشـفى كرانكنهـاوس قـد حضـر يحمـل رسـالة إلى الدُّكتـور فرويـد.

ومـا أن فاهـت بتلـك العبـارة حتَّـى قفـز شرلـوك هولمـز مـن مقعـده صائحًـا وهـو يخبـط بكفِّـه عـلى جبهتـه: "لقـد أخذوهـا... لقـد تصـوَّرت لغفلتـي... أنَّهـم قـد يـتردَّدون... وهـا هـم يسـارعون، بينـما أنـا واقـف هنـا أثرثـر معكـم".

واندفع خارجًا من الغرفة، ولحق بالممرِّض المشدوه في الصَّالة، وأمسك بأطراف سترته بكلتا يديه، وسأله: "هل خرجت المريضة... هل خرجت مريضة دكتور فرويد؟".

وأشار الرجل برأسه في غباء، لقد بلغ به الفزع حدًّا لم يمكِّنه من الكلام. فلم يكن إلَّا ممرضًا عاديًّا أُرْسِلَ في مهمَّة لا يقدِّر مدى خطورتها. وكانت معه مذكِّرة من الدُّكتور شولتز يتساءل فيها عمَّا حلَّ بالمريضة منذ أنْ تركها في عهدة فرويد، ويحتجُّ على إخراجها من المستشفى قبل أن تتاح له فرصة أن يراها، ويقدِّر مدى تحسُّنها. وألمح بشكل خفيٍّ إلى أنَّه سيذكر هذا الأمر للدُّكتور مايرت.

وسأل هولمز الممرِّض: "هل كنت هناك عندما خرج بها هؤلاء القوم؟". ودون أن ينتظر جوابه دسَّ نفسه في السُّترة، وألقى بالمعطف على كتفيه، بينما هزَّ الممرِّض رأسه بالنَّفي.

- "إذن... فلتأخذنا إلى مَن كان يوجد في تلك النّوبة". وجذب ياقة معطفه؛ ليغطِّيَ بها رأسه... صاح بنا: "أسرعوا أيُّها السَّادة... ليست لدينا دقيقة لنضيِّعها. فرغم أنَّ لدينا امرأة تائهة العقل من ناحية، إلَّا أنَّه تكمن حرب أوروبيَّة من النَّاحية الأخرى".

الفصل الرّابع عشر

الجنازة

انطلقت بنا العربة في طريق العودة إلى المستشفى عصر ذلك اليوم، ولم يتكلَّم أحد، سوى أنَّ هولمز كان يستحثُّ الحوذيَّ بين الفينة والفينة أن يسرع. كان كلٌّ منَّا غارقًا في أفكاره. وكان الممرِّض ينقل أبصاره بيننا متعجِّبًا يتساءل بينه وبين نفسه - كما قدرت - ماذا جرى بحقِّ الشَّيطان، وعيناه ترمشان كلَّما اندفعت العربة أمام الترام، وأجبرت باعة الطُّرق على القفز ذات اليمين والشِّمال، فارِّين من أمام العربة. وكان جبين فرويد العريض مجعَّدًا من كثرة التَّفكير، بينما جلس هولمز منحنيًا إلى الأمام في صمتٍ كئيبٍ، يصيح كلَّ عدَّة ثوانٍ بالسَّائق أن يسرع.

واضطرت العربة إلى التَّوقُّف تمامًا عند أحد المفارق، حيث كان الطَّريق مسدودًا بإحدى كتائب الحرس الهنغاريّ في طريقها إلى مواقعها في قصر هوفبورج. وراح هولمز يتأمَّل تلك العقبة وهو مغموم، ثمَّ استند إلى الخلف، وهو يتنهَّد، ثمَّ قال: "لا فائدة... لقد فقدناها،

وانهزمنا" وأخذ يصرُّ على أسنانه من الغضب، وعيناه الرَّماديَّتان تلمعان من الأسى.

فسأله فرويد: "ولماذا؟".

- "لأنَّه سيقتلها في أوَّل فرصة تُتَاح له"، واستخرج ساعته، وراح ينظر إليها محزونًا، بينما لاحظت بطرف عيني وجه المُمرِّض، وقد امتقع لسماع الكلام، والتفت إليَّ قائلًا: لقد واتتهم الفرص الآن يا واطسون".

"كان الأفضل أن تتركني للكوكايين، لقد أصبحت غير ذي نفع".

- وتدخَّل فرويد قبل أن أهمَّ بالحديث: "اسمح لي أن أختلف معك في المسألتين... أوَّلًا لا أظنُّ أنَّ حياة السَّيِّدة في خطر"، واستدار إلى الحوذيِّ يأمره بالإسراع بعد أن انتهى مرور الحرس الَّذي كان يسدُّ الطَّريق. ونظر إليه هولمز، ولكنَّه لم يقل شيئًا، بينما انطلقت العربة بسرعة.

- واستطرد فرويد مصرًّا على الحديث رغم عدم التَّشجيع: "اسمح لي أن أقدِّم بعض الاستنتاجات من عندي. فباستخدام نفس الأساليب الَّتي استخدمتها في حالة شخصيَّة القيصر، فإنِّي أرجِّح أنَّ حياة البارونة قد تكون في خطر شديد. ولكنِّي لا أعتقد أنَّ ابن زوجها ينوي قتلها إذا وقعت في يده مرَّة أخرى".

- وسأله هولمز وقد بان الاهتمام في عينيه: "ولماذا لا؟ هذا هو الإجراء العمليُّ الوحيد الَّذي يستطيعه".

- "كلَّا... لقد كان الأمر الأكثر عمليَّة هو أن يتخلَّصَ منها في نفس الوقت الَّذي تخلَّصَ فيه من أبيه. أليس كذلك؟".

واسترعى السُّؤال انتباه هولمز، واستدار ليواجه الدُّكتور. وانتهز فرويد هذه الفرصة، واستمرَّ في حديثه: "ربَّما سيكون هذا بالتَّأكيد حلًّا سهلًا. تدبير الأمر بحيث يبدو أنَّ الاثنين قُتِلا في حادث، ومن ثَمَّ يرث الضَّيعة بكاملها. هذا هو مضمون الوصيَّة. وكان يعرفها بلا ريب".

وعبس وجه هولمز، وسأل: "ولماذا لم يفعل ذلك؟".

- هل لك أن تتنازل وتسمع نظريَّتي؟

وأومأ هولمز برأسه، ودبَّت الحياة في عينيه اهتمامًا بتلك الفرصة الضَّئيلة من الأمل الَّتي لاحت من كلام الدُّكتور.

- "قد يستغرق الأمر منِّي وقتًا طويلًا إذا سردت عليكم كافَّة البحوث الَّتي قمت بها. ولكنِّي أرى أنَّ الشَّابّ موضوع حديثنا يكره زوجة أبيه بعنف يزيد بكثير عن مجرَّد كونها عقبة أمام مشاريعه السِّياسيَّة أو الماليَّة".
- وسألته رغمًا عنِّي: "ولماذا؟ إنَّه لا يكاد يعرفها، فكيف نمت لديه تلك الكراهية الَّتي تتحدَّث عنها".
- "لكنَّك تقرُّ أنَّ سلوكه تجاهها سلوك ينمُّ عن الكراهية الشَّديدة".
- "تمامًا".
- "ولقد بلغ حقده وكراهيته لها مبلغًا"، ومالت بنا العربة ميلة حادَّة، جعلت فرويد يتوقَّف عن حديثه، ثمَّ تابع: "مبلغًا جعله يفضِّل أن يبقيها حيَّة - حين كان من السَّهل عليه قتلها مع ما في ذلك من خطورة عليه، وأن يحبسها ويعذِّبها عذابًا فوق كلِّ تصوُّر".

هـزَّ هولمـز رأسَـه، وقـد ضـمَّ شـفتيه، وهـو يتدبَّـر الموقـف الَّـذي عرضـه فرويـد.

واسـتمرَّ فرويـد، والعربـة تدنـو مـن المستشـفى: "ولذلـك، وباسـتخدام أسـاليبك، لابـدَّ لنـا مـن اسـتنباط دافـع آخـر. فـما قولـك إذا أخبرتـك أنَّ تلـك الكراهيـة المميتـة كانـت موجـودة لديـه قبـل أن يـرى تلـك المـرأة الَّتـي تزوَّجها أبـوه، بـل إنَّها توجـد بـصرف النَّظـر عـن أيِّ امـرأة يتزوَّجها أبـوه".

- "مـاذا؟".

- انظـر يـا صديقـي، إنَّ سـلوك الشَّـابّ غـير العـاديّ تجـاه زوجـة أبيـه الَّتـي لا يعرفها لا يمكـن تفسـيره إلَّا بطريقـة واحـدة. وهـي أنَّـه مخلـص ومتعلِّـق بذكـرى أمِّـه الحقيقيَّـة، بحيـث إنَّ مـا فعلـه أبـوه، وموافقـة المـرأة عـلى زواجـه قـد أيقظـت أعمـق نـوازع التَّدمـير في شـخصيَّته. فبالنِّسـبة لـلأب... المـوت العاجـل جـزاء خيانتـه للزّوجـة الأولى. أمَّـا الأمّ المزيَّفـة، فلتحيـا، ولكـن بـين الحيـاة والمـوت، ولـو أنَّ ذلـك غـير عمليٍّ مـن زوايـا أخـرى. هـذه هـي النَّظريَّـة الوحيـدة الَّتـي تغطِّـي كافَّـة الوقائـع. وكـما لاحظـت أنـت نفسـك يـا هـر هولمـز، فإنَّـه عندمـا تسـتبعد كافَّـة الاحتـمالات الممكنـة، فـإنَّ الباقـي - مهـما بلغـت غرابتـه - يجـب أن يكـون الحقيقـة. هأنـا طبَّقـت منهجـك تطبيقًـا صحيحًـا. أليـس كذلـك؟ ومـن ثـمَّ يمكننـا الاعتـماد عليـه... المـرأة سـتظلُّ حيَّـة مهـما كانـت الأخطـار الَّتـي تتعـرَّض لهـا... هـا قـد وصلنـا".

حملـق هولمـز في فرويـد لعـدَّة ثـوانٍ قبـل أن يقفـز خارجًـا مـن العربة، ومندفعًـا نحـو بوَّابـة المستشـفى، وهـو يجـرُّ الممـرِّض وراءه. وتبعنـاه أنـا وفرويـد، بينـما طلبنـا مـن الحـوذيِّ أن ينتظرنـا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

وفي الدَّاخل اتَّجهنا مباشرة إلى البوَّابة، حيث كان الحارس الَّذي سلَّمنا مريضة فرويد في الصَّباح. وحدَّثنا بحنق شديد مبديًا اعتراضه على عدم اتِّباع القواعد بشأن خروج تلك المريضة. تصوَّر يا سيِّدي لو أنَّ لك مريضًا يمكن إخراجه بمجرَّد ورقة دون أيِّ توقيعات رسميَّة... وقاطعه هولمز دون احتفال: "صِفْ لنا هؤلاء النَّاس الَّذين اصطحبوها". استدار الحارس إلى هولمز ببطء وهو يتفحَّصه. واستشففتُ من سلوك الحارس، ومن هيئة صديقي، خاصَّة ملبسه الغريب أنَّ الحارس قد يظنُّه من المرشَّحين لدخول جناح الطِّبّ النَّفسيّ. فسارعت بالتَّدخُّل قائلًا: "أسرع أرجوك... إنَّ الأمر في غاية الأهمِّيَّة". وكرَّر الحارس الغبيُّ الجملة ببطء: "أصف مَن؟ لم تتح لي الفرصة...". واستدار إلى الدُّكتور فرويد قائلًا: "ولماذا أصفهم... أنت تعرفهم أفضل منِّي".

فردَّ عليه فرويد مندهشًا: "أنا؟! إذا كنت أعرفهم، فلماذا أسألك عنهم؟".

- وأجاب الحارس مغتاظًا: "لقد قالوا إنَّهم من طرفك". ونظر إلى فرويد كما لو كان هو الآخر مرشَّحًا لدخول المستشفى.

وأخذنا ننظر إلى بعضنا في ذهول. وقطع هولمز لحظة الصَّمت بالضَّحك، وصاح وهو يهزُّ رأسه: "يا لهم من ماكرين... أقوياء الأعصاب. لقد استفادوا ممَّا قلته للسَّيِّدة صباح اليوم في شارع فالنشتاين. بل وعرفوا أين توجد المرأة... والآن أيُّها الحارس، صِفْ لنا هؤلاء القوم؟".

ووصف لنا الحارس من ذاكرته الضَّعيفة شخصين أحدهما قصير زائغ البصر حادّ الطَّبع، والآخر طويل ورزين ذو هيبة.

- فقال هولمز: "هذا هو السَّاقي غالبًا"، والتفت إلى فرويد قائلًا: "من الأفضل تحرير مذكِّرة لطلب الشُّرطة، فلسوف

نحتاجها في نهاية الأمر. أخبرهم أنَّه تمَّ اختطاف امرأة من المستشفى، واترك لهم عنوان شارع فالنشتاين، فلسوف نتَّجه إلى هناك الآن".

- وهزَّ فرويد رأسه، وكان على وشك أن يخبر الحارس بالرِّسالة عندما تدخَّل القَدَر لصالحنا - مرَّة - وذلك في شخص الدُّكتور شولتز الَّذي أقبل مسرعًا إلينا: "آه.... هذا أنت يا دكتور فرويد". قالها بلهجة متقعِّرة.

"كنت أودُّ أن أتبادل معك..."... وقاطعه فرويد: "وأنا أيضًا كنت أودُّ الحديثَ معك".

وأخبره فرويد بما حدث مغفِلًا - كما اقترح هولمز- بعض التَّفاصيل المهمَّة، الَّتي لم يكن هناك داعٍ لذِكْرها، وأنَّ البارونة هي نفسها الخادمة الَّتي اختطفت، وختم حديثه للطَّبيب المنزعِج قائلًا:

"أسرع في طلب الشُّرطة". ودوَّن عنوان شارع فالنشتاين في هامش دفتر الأحوال.

ودون انتظار لأيِّ جواب هُرِعْنَا - نحن الثَّلاثة - إلى العربة، وقفزنا بداخلها، وصاح هولمز بالسَّائق: "طر بنا إلى 76 شارع فالنشتاين، فحياتك متوقِّفة على سرعتك".

وَهَمْهَمَ السَّائق بقولٍ يُفْهَم منه أنَّ في التَّأنِّي السَّلامة، وجذب العنان، وانطلق بنا مرَّة أخرى. وأعتقد أنَّه لو كان بداخل العربة مساحة كافية، فإنَّ هولمز لم يكن ليتردَّد في ذرعها، ولكنَّه ضيّق المساحة، اكتفى بقضم أطراف أصابعه بأسنانه، وسألني: "هل أحضرت معك مسدَّسك يا واطسون؟". وأخبرته بأنَّني دسست المسدَّس في جيب معطفي عند خروجنا. فهزَّ رأسه موافقًا.

- "أعتقد أنَّ البارون قد حسب حساباته دون أن يُدْخِلَ في اعتباره استنتاجات دكتور فرويد؛ ممَّا يعني أنَّه يحسُّ الآن بالأمان. وهو يظنُّ أنَّنا نعتقد أنَّه سيقتل المرأة في أوَّل فرصة، ويتخلَّص من الجثَّة، بل أعتقد أنَّه يشكّ أنَّنا سنقتفي أثره". ولكنَّه - أي هولمز- لم يبدُ مقتنعًا، وسرح قليلًا، بينما عادت أطراف أصابعه تنقر على أسنانه.

والتقطتُ أنا خيط أفكاره، فتساءلتُ: "هل ستصل به الحماقة إلى هذه الدَّرجة؟ بالتَّأكيد لن نجدها في الفيلَّا".

ووافق هولمز على مضض: "أخشى أنَّنا لن نجدها... ولكن أين... سيذهب بها؟". واندمج مرَّة أخرى في التَّفكير... "إنَّه يعلم الآن أنَّنا قد أذعنَا أمره، وأعتقد أنَّه متأكِّد أنَّنا سنقتفي أثره بشكل مباشر أو غير مباشر". وغرق في التَّفكير مرَّة أخرى، وأنا أعلم من خبرتي السَّابقة معه أنَّه يحاول الآن أن يضع نفسه في موقف البارون الماكر، وأنَّه باستخدام الصُّورة الَّتي رسمها له فرويد باقتدار يحاول أن يحدِّد الحركة التَّالية للبارون، وأن يتوقَّع ماذا يفعل لو وضعته الأقدار في موضع هذا البارون المجنون.

ووصلنا إلى مدخل الفيلَّا رقم 76 شارع فالنشتاين، وخيولنا يتصاعد الزَّبد والعرق منها، ووجدنا شرطة فيينا تذرع المكان، فقد حذَّرتهم مكالمة دكتور شولتز، ووصلوا في لنش بحريٍّ، تحت قيادة سيرجنت طويل القامة، معتدل القوام، ذي شعر فاتح، وعينين زرقاوين متنبِّهتين. وتحرَّك نحونا بخطوة سريعة، بينما نحن ننزل من العربة، واتَّجه إلى صديقي، وحيَّاه تحيَّة عسكريَّة.

"هر هولمز، لقد وصلنا لتوِّنا. ولكنَّ المنزل مغلق، ولا يبدو أنَّ به أحدًا". وكانت انجليزيَّته فيها جهد، ولكنَّها تفي بالغرض".

وأجابه هولمز، وهو يتنهَّد وينظر حوله بإمعان: "أعتقد أنَّنا وصلنا بعد فوات الأوان".

- "أرجو ألَّا تظنَّ بنا سوءًا، فقد أسرعنا إلى هنا حالما وصلَنا الإنذار".
- "كلَّا... كلَّا... لم تخطئوا في شيء، ولو أنَّ رجالك قد أفسدوا الحديقة، وجعلوا الأرض كما لو أنَّ فصيلة من الخيَّالة قد دهستها، ومع ذلك، فلنلقِ عليها نظرة".

وبدأ في التَّحرُّك صاعدًا إلى أعلى التَّلِّ في اتِّجاه المنزل، يتبعه السِّيرجنت في لهفة وهو يقول له: "إنَّ صيتك معروف لنا جيّدًا يا هر هولمز، وقد أمرني رئيس الشُّرطة أن أضع رجالي تحت تصرُّفك".

وتوقَّف هولمز مسرورًا، وقال له: "صحيح، من المؤسف أنَّ سكوتلانديارد لا تشاطر رئيسك رأيه". واستمرَّ في الصُّعود وعيناه مركَّزتان على الحشائش، وسمعته يهمهِم بالقول المأثور: "لا كرامة لنبيٍّ في وطنه".

وبدأ فرويد يتحرَّك متابعًا خُطى هولمز، ولكنّي جذبت ذراعه برفق، وشرحت له هامسًا أنَّ وجودنا مع هولمز قد يسبِّب له عائقًا، فأدرك على الفور وثبتَ في مكانه.

استعرضَ هولمز أرجاء المنزل بسرعة مقتصرًا على منطقة المدخل ذات المظلَّة، وأخذ يدور ويلفّ فيها جيئة وذهابًا، وأحيانًا بشكل دائريٍّ مُصْدِرًا بين الحين والآخر همهمات تنمُّ عن الرِّضى أو السّخط أو التَّوقُّع. وكان مظهره في تلك اللحظات أقرب ما يكون إلى منظر كلاب الصّيد، فكانت ملامحه الحادَّة، وخاصَّة أنفه المستقيم، وميل جسمه إلى الأمام وخطواته المتحفِّزة كلّها توحي بمنظر كلب مصمّم على التقاط رائحة فريسته. ولولا أنَّه أخرج عدسته المكبّرة، وأخذ

يفحص بها الأرض لكان أشبه بالكلب توبي، وهو يتشمَّم الأرض بحثًا عن أثر.

ووقف دكتور فرويد والسّيرجنت ورجال الشُّرطة يراقبون ذلك المنظر، وقد علت تعبيرات الدَّهشة وعدم التَّصديق وجوههم. وبالنِّسبة لفرويد، فقد كان مشغولًا بالجوانب المختلفة لهولمز، والَّتي كانت تتبدَّى له الواحدة تلو الأخرى. وبالنِّسبة للسّيرجنت، فكان اهتمامه مهنيًّا، كمَن يريد أن يتعلَّم من أستاذ، ولكنَّه لا يستطيع إقناع نفسه بأنَّ مثل هذا السُّلوك الغريب يرمي إلى أيِّ شيءٍ سوى إبهار المشاهدين. أمَّا بقيَّة أفراد الشُّرطة، فكانوا يبتسمون، وكلّهم شكّ وارتياب. ولو كانت لديهم فكرة عن هولمز، فقد استقوها من القيل والقال. وعلى أيِّ حال، فإنَّ ما كانوا يشاهدونه، لم يكن يعني شيئًا لهم. وربَّما ظنّوا أنَّه مجرَّد تكلُّف أو افتعال. وكان بوسعي أن أقول لهم إنَّ هولمز قادر على التَّصنُّع بغير حدود إذا لزم الأمر، ولكن ما كنَّا نشاهده في تلك اللحظة كان أبعد ما يكون عن ذلك.

وتوقَّف هولمز فجأة، ومال بجسمه وهو يرتجف ويفحص شيئًا على الأرض، ثمَّ انبطح أرضًا على وجهه، وظلَّ كذلك لعدَّة لحظات، ثمَّ رفع قامته، وسار متَّجهًا إلينا.

- "كلّ الدَّلائل تشير إلى أنَّهم وضعوا المرأة داخل صندوق كبير ممَّا يستخدم في السُّفن، وسيحملونها معهم خارج البلاد".

صُعِقَ السّيرجنت بحيث لم يقوَ على الكلام، وأصابه الذُّهول ممَّا قاله هولمز. أمَّا أنا، الَّذي تعوَّدت على ذلك، فلم أناقش، وإنَّما سألته: "ولكن يا هولمز إلى أين سيأخذونها؟".

- "إلى أين؟".

وفكّر لحظة، ثمَّ فرقع أصابعه وصاح: "أجل إلى بافاريا بالطَّبع. فإنَّه متى ما عبر الحدود، فسيكون آمنًا تمامًا. اللعنة!". وكان يشير بهذه اللفظة الأخيرة إلى حالة الخيل المنهكة في العربة الَّتي استأجرها. وصاح بي، وهو يهرول هابطًا المدخل: "هيَّا يا واطسون يجب أن نجد وسيلة نقل أخرى إلى أقرب محطَّة".

وتبعناه، فرويد والسّيرجنت وأنا - وفي أعقابنا بقيَّة رجال الشُّرطة في حالة من الاضطراب - ومرقنا بسرعة من البوَّابة الأماميَّة في أثر هولمز إلى الشَّارع السَّاكن.

وكدنا نصطدم به عند زاوية، حيث توقَّف فجأة، ومعطفه يطير في الهواء من حوله، ونظرنا إلى نهاية الطَّريق، فإذا بموكب يتقدَّم نحونا بخطى جنائزيَّة، وكان النَّعش محمولًا على عربة يتلوها صفٌّ من العربات والخيول، وعدد كبير من المشيّعين على الأقدام، يرتدون كلّهم الملابس السَّوداء. وكان من الواضح أنَّ شخصيَّة مهمَّة قد توفَّاها الله، وأدَّت إلى وجود ذلك الموكب المهيب. ولمحت عينا هولمز تلمعان عند رؤيته لذلك المنظر الحزين، وفجأة قفز إلى الأمام...

وصحت به: "يا هولمز"، ولكنَّه لم يعرني التفاتًا، وانطلق، ونحن في أثره، متَّجهًا إلى العربة السَّوداء الضَّخمة الَّتي تتلو النَّعش مباشرة، والَّتي كانت بلا ريب تقلّ أقرب أقارب المتوفَّى، ولابدَّ أنَّهم من الذّوقات والأمراء. ولكنَّ هولمز لم يتردَّد... فقد ألقى بنفسه على العربة، واختطف اللجام من أيدي السَّائق المذعور، وحوَّل العربة عن مكانها في الموكب، وفرقع بالسّوط في الهواء، وصاح بي: "يا واطسون"، وأقبل علينا بسرعة، بينما العربة تطلق أصواتًا هادرة، مشيرًا إلينا بالصُّعود، وتعلَّقنا - فرويد والسّيرجنت وأنا - بالعربة، وهي مندفعة في طريقها، كلٌّ منَّا يمسك بأحد النّتوءات، وتمكَّنَّا في النِّهاية من دخولها.

مـن المسـتحيل أن أصـف تعبـيرات الدَّهشـة والذُّعـر الَّتـي تجلَّـت عـلى وجـوه ركَّاب العربـة، كان هنـاك أربعـة أشـخاص كلّهـم يرتـدون ملابـس أنيقـة، منهـم سـيّد ضخـم الجثَّـة ذو بَـشَرَةٍ حمـراء وسـوالف بيضـاء ينـمُّ حجمهـا الكبـير عـن أنَّهـا تنتمـي إلى "موضة" قديمـة، وهو يتنفَّـس بصعوبة، وفي حالـة عجـز، وفتـاة شـابَّة في السَّادسـة عـشرة - أو حولهـا - ملامحهـا مختفِّيـة نوعًـا وراء الحجـاب، بينـما تنظـر عيناهـا إلينـا في تعجُّـب، وسـيّدة متقدِّمـة العمـر نوعًـا مـا، بدينـة، ترتـدي ملابـس مشـابهة، ولكنَّهـا كانـت غارقـة في أحزانهـا، بحيـث إنَّهـا لم تلحظنـا عـلى الإطـلاق، وإنَّمـا اسـتمرَّت في البـكاء تمسـح دموعهـا بمنديـل حريـريٍّ أسـود، وإلى جانبهـا يجلـس شـابٌّ، أعتقـد أنَّـه ابنهـا أو ابـن أختهـا، يحـاول أن يـسرِّي عنهـا، وفي نفـس الوقـت يحـاول أن يفهـم شـيئًا مـمَّا يـدور حولـه، وأعتقـد أنَّـه كان مـوزَّع الخاطـر بـين مواسـاة المـرأة ومواجهتنـا.

رأيـت كلَّ ذلـك في لمـح البـصر، وكنـتُ مشـغولًا بالتَّعلُّـق بالبـاب الَّـذي فتحتـه، وإعطـاء هولمـز مسـدَّسي؛ إذْ ربَّمـا يحتاجـه لمنـع السَّـائق مـن القيـام بـأيِّ عمـل متهـوِّر.

وكان السّـيرجينت قـد تعلَّـق بالبـاب الآخـر، وأخـرج مسدَّسـه في حالـة الاسـتعداد، رغـم مـا بـدا مـن الـرُّكَّاب مـن أنَّهـم لا ينـوون التَّدخُّـل، بـل ولم يسـتجيبوا عندمـا حـاول - مسـتخدمًا لهجـة غايـة في الرَّسـميَّة - أن يطمئنهـم مخـبرًا إيَّاهـم أنَّهـا حالـة طـوارئ، وأنَّـه لا يوجـد سـبب يدعوهـم للانزعـاج. ولا شـكَّ عنـدي أنَّهـم رأوا كلامـه متناقضًـا.

ولم يكـن هنـاك مـكان في العربـة، واضطـرَّ الدُّكتـور فرويـد أن يقـف عـلى درج العربـة، وأن يتعلَّـق بإطـار النَّافـذة لتثبيـت موقفـه، بينـما شـعره يتطايـر في الهـواء.

أمَّا بقيَّة المعزِّين ورجال الشُّرطة، فقد تركناهم وراءنا.

وسأل هولمز السّيرجنت من خلال فتحة سقف العربة: "ما أقصر طريق إلى أقرب محطَّة للسّكك الحديديَّة؟".

- "إنَّ قطار ميونيخ لا يخرج إلَّا من محطَّة...".
- "اللعنة على قطار ميونيخ، أين أقرب محطَّة يا رجل؟".

وأخذ السّيرجنت يوجِّه حركة العربة، بحيث نصل إلى أقرب محطَّة، بينما هولمز يفرقع بسوطه، والعربة تجري بسرعة البرق بحثًا عن تلك المحطَّة.

وفيما عدا صهيل الخيل، وصوت العجلات والأجزاء المعدنيَّة في العربة، وبكاء السّيِّدة، لم ينبس أحدنا ببنت شفة. وجال السّيرجنت ببصره في داخل العربة، ثمَّ لكزني، وأومأ برأسه إلى بطانة بابها، فالتفتُّ ورأيتها مزيَّنة بشعار النّبالة، وهمس في أذني: "أرجو أن يكون الهر هولمز مدركًا لما يفعله". وعلَّق فرويد: "هذا هو ما أرجوه أيضًا". وكان يجلس بجانب الشّبَّاك، ورأى الشِّعار هو أيضًا. فقلت لهما: "لا تقلقا"، ولكنِّي بعد أن فكَّرت وجدت أنَّ ذلك التَّعليق في تلك الظُّروف كان غبيًّا، وندمت على قوله.

بعد أن عبرنا القناة، دارت العربة بزاوية حادَّة إلى اليمين؛ جعلت العجلات مع السُّرعة تصدر صريرًا قويًّا، بينما ارتفعت العجلتان على يسارها عن سطح الأرض، ثمَّ عادت، فاعتدلت عندما درنا بزاوية أخرى إلى اليسار، ورأيت أمامي ساحة المحطَّة وأفنيتها، واندفعت العربة إلى نهاية السَّاحة، حيث يوجد مدخل المحطَّة. وتوقَّفت العربة بفرملة قويَّة، وقبل أن نترجَّل كان هولمز قد سبقنا، وهو يجري إلى المبنى. وتدفَّقنا وراءه، بينما اعتذر السّيرجنت لأصحاب المركبة المذهولين عن تدخُّلنا المشين خلال حزنهم، وأدَّى تحيَّة عسكريَّة اعتبارًا لمقامهم النَّبيل.

ولحقنا بهولمز الَّذي كان قد دخل في مناقشة محتدَّة مع ناظر المحطَّة، الَّذي أخبره أنَّ البارون فون لينسدورف قد أمر بتجهيز قطار خاصٍّ غادر المحطَّة منذ ثلاث ساعات. وطالبه هولمز باستئجار قطار خاصٍّ أيضًا. ولكنَّ النَّاظر أخبره بأنَّ ذلك الأمر يقتضي عدَّة ساعات، بحيث يمكن إخلاء الطَّريق. وكان من الواضح أنَّ البارون قد استأجر القطار منذ اللحظة الَّتي غادرنا فيها منزله في منتصف النَّهار.

كان هولمز يصغي لحديث ناظر المحطَّة بنصف أذن، والرَّجل يحكي تفاصيل الصُّعوبات الَّتي تعترض هذا الأمر، بينما عيناه تجوسان خلال الأرصفة، وحطَّت أخيرًا على قاطرة خلفها مقطورة الفحم، ويتصاعد البخار من مدخنتها، وقد أُلحِقَتْ بها عربة واحدة.

- "أخشى أنَّه لا يوجد لديَّ وقت لأضيّعه في الحديث". وامتدَّت يده لتخرج المسدَّس من جيبه ملوِّحًا به في وجه النَّاظر: "سنأخذ تلك القاطرة الواقفة هناك".

ذُهِلَ الرَّجل لدرجة أنَّه لم يمكنه الاستجابة، ولكنَّ السّيرجنت وجد أنَّ الموقف قد زاد عن حدِّه؛ فاستنشق نفسًا عميقًا، والتفت إلى هولمز قائلًا: "رويدك يا سيّدي..."، ولكنَّ صديقي لم يكن على استعداد للمناقشة.

- "أرسلْ برقيَّة إلى الحدود على الفور، وأخبرهم أن يوقفوا ذلك القطار بأيِّ ثمن. وليستخدموا أيَّ حجَّة، ويقوموا بتفتيش عربة العفش... سمعت... أسرع يا رجل... فلكلِّ دقيقة ثمنها الغالي، إنَّ حياة امرأة... ومجرى التَّاريخ قد يتوقَّفان على سرعتك".

لم يكن تدريب السّيرجنت وتعليمه يسمحان له بمقاومة أوامر تُلْقَى بهذا الشَّكل؛ فاستدار بأقصى سرعة، ومضى إلى التَّنفيذ دون أيِّ مراجعة.

وتحوَّل هولمز إلى ناظر المحطَّة قائلًا: "والآن يا سيّدي... هل تسمح بمرافقتنا"، وهزَّ الرَّجل التَّعيس كتفيه، وسار معنا. كان المهندس يضبط بخار القاطرة عندما اقتربنا منه، وأوضحنا له الموقف، فرفع حاجبيه عندما أخبره ناظر المحطَّة أنَّ قطاره الصَّغير قد أصبح قطارًا خاصًّا، وأنَّ عليه أن يستعدَّ للرَّحيل. وسأل المهندس عندما رأى ناظر المحطَّة لا يبدو عليه أنَّه سيغادر القطار: "ولكن إلى أين يا سيّدي؟". فأجابه هولمز، وهو يلوِّح بمسدَّسه: "إلى ميونيخ"، والتفت هولمز إلى فرويد دون أن يعطي المهندس فرصة للرَّدِّ، وقال: "يا دكتور... لا توجد بك حاجة للقدوم معنا، فهلَّا غادرت؟".

وابتسم سيجموند فرويد بلهفة، وهزَّ رأسه بالنَّفي: "لقد شاهدت الجزء الأكبر من هذه المسألة، بحيث أصبح لا يمكنني التَّخلِّي عنها الآن... كما أنَّ لديَّ حسابًا أريد تصفيته مع البارون، ولا تنسَ أنَّ المرأة هي مريضتي".

- "حسنًا... حسنًا!".

وتدخَّل المهندس بعد أن تلكَّأ طويلًا قائلًا: "ليس لدينا من الوقود ما يكفي لتوصيلنا إلى ميونيخ. كما أنَّ هناك نقاط التَّحويل... ستكون كلّها خاطئة".

فقلت له: "دعنا نتخطَّى العقبة الأولى عندما تواجهنا، أمَّا العقبة الثَّانية، فسنعدِّل التَّحويلات كلَّما مررنا بها".

والتفت إليَّ هولمز، وعلى فمه شبه ابتسامة: "لن أصل قطّ إلى سبر غورك يا واطسون... فلننطلق... وبأقصى سرعة".

نظـرَ المهنـدس وناظـر المحطَّـة بعضهـما إلى بعـض في عجـز، وهـزَّ النَّاظـر رأسـه في استسـلام، وأطلـق المهنـدس تنهيـدة يـأس، وأدار عجلـة القطـار، وانطلقنـا.

الفصل الخامس عشر

المطاردة

كان من المستحيل بالطَّبع أن ننطلق بأقصى سرعة، ليس أثناء الخروج من فيينا على أيِّ حال. كانت هناك العديد من التَّحويلات الَّتي يجب تعديلها، كما أنَّ الشَّريط الحديديَّ الَّذي يمرُّ بأطراف المدينة في اتِّجاه الشَّمال الغربيِّ لم يكن معدًّا لتحمُّل القطارات السَّريعة. وكان نصف السَّاعة الأوَّل، يبعث على الجنون؛ إذْ كان علينا - أنا والدُّكتور فرويد- أن نقفز بشكل مستمرٍّ من عربة القطار، ونهرع لتحويل الخطِّ حسب تعليمات المهندس في سلسلة لا نهاية لها من النِّقاط، بينما كان هولمز يصوِّب مسدَّسي في اتِّجاههما؛ حتَّى لا يفكِّر المهندس، أو ناظر المحطَّة في ارتكاب فعل يعوق خططنا.

كان الليل يسدل أستاره بسرعة؛ ممَّا زاد من صعوبة مهمَّتنا، وأصبح تمييز نقاط التَّحويل أكثر صعوبة، وفضلًا عن ذلك، فقد كان علينا، حفاظًا على الأمان، أن نعيد خطَّ السِّكك الحديديَّة إلى ما كان عليه بعد أن يمرّ قطارنا، بحيث لا تقع حوادث من جرَّاء ما نفعله.

إذْ يكون من سخرية الأقدار أن ينشأ عن جهودنا لإنقاذ امرأة واحدة وفاة المئات، كما قال هولمز فيما بعد.

وكانت نقاط التَّحويل جافَّة يحتاج بعضها إلى قوَّة رجلين حتَّى يمكن تحريكها، وكان من حسن الحظِّ أن انضمَّ إلينا فرويد، فبدونه كان من المستحيل تحمُّل هذا العبء.

وانطلقنا في طريقنا مارّين بمنتزه "هرمالسر"، الَّذي لم أتمكَّن من رؤيته طبعًا في هذا الظَّلام، واتَّجهنا جنوبًا حتَّى التقينا بالخطِّ الرَّئيسيِّ المتَّجه إلى الغرب، بدءًا من المحطَّة الكبيرة، الَّتي نزلنا بها أنا وهولمز عند وصولنا أوَّل مرَّة لتلك المدينة، والَّتي بدا لي أنَّها حدثت منذ دهر. وخلال ذلك مررنا بنقاط تحويل لا حصر لها، كنَّا في كلِّ مرَّة نحوِّلها إلى الأمام، ثمَّ نعيدها إلى ما كانت عليه. وكنَّا - أنا وفرويد- نتصبَّب عرقًا عندما انتهينا من آخر تحويلة، واندفعنا بالقطار، الَّذي أخذت سرعته تزداد، في جوف الليل.

خلال ذلك الوقت، كان هولمز قد شرح الموقف للمهندس وناظر المحطَّة، فتغيَّرت اتِّجاهاتهما تمامًا، وبدلًا من أن يعملا تحت تهديد المسدَّس - الَّذي احتفظ به هولمز في جيبه خشية تغيُّر أفكارهما- استجابا للتَّعاون معنا في حدود إمكاناتهما.

كان الليل باردًا، ونحن ننطلق بسرعة. ولكنَّ وجود الأعمال الَّتي ينبغي القيام بها ساعدنا على تدفئة أجسامنا. ولن يعرف مَن يمارس دفع الفحم بواسطة الجاروف مدى الإجهاد الَّذي يعتري الإنسان في تلك العمليَّة. لقد كان علينا لكي نلحق بقطار البارون أن نزيد من سرعتنا، وأن نستمرَّ في تغذية فرن القاطرة بالفحم.

وهذا ما فعلناه، ظللنا نحشو هذا الفرن بالفحم، بينما المدن والحقول تنساب حولنا في الظَّلام. وكنَّا- أنا وفرويد - ندفع الفحم بالجاروف، كما لو كانت حياتنا متوقِّفة على ذلك. وكنت أوَّل مَن

أعلن إفلاسه، فقد زاد الألم في ساقي نتيجة تلك القفزات الَّتي كان علينا أن نقوم بها عند التَّحويلات. ولقد أحسست بالألم عندئذٍ، ولكن لم أبالِ به في خضمِّ الحماسة، ولكن بدأت ساقي الآن تنبض بالألم بشكل منتظم. أصبحت واعيًا تمامًا بمسار تلك الرّصاصة الَّتي اخترقت ساقي منذ سنوات طويلة عندما أصبحت في معركة "مايوند" خلال خدمتي العسكريَّة في أفغانستان.

ظللت أعمل حتَّى مررنا بمدينة نيولنجباح، حيث اضطررت للتَّوقُّف، حلَّ هولمز محلِّي. وأعطاني المسدَّس، وتهاويت على الأرض، وأسندت ظهري إلى جدار العربة المعدنيِّ، ومددت ساقي مع إبقاء المسدَّس في متناول يدي. وأحسست ببرودة الرِّيح، وبدأت أرتجف، ولكنّي كتمت ما بي، وصمَّمت على ألَّا أظهر شيئًا؛ فقد كان صديقاي في حالة انشغال فظيعة.

ولاحظ هولمز ما بي، فتوقَّف لحظة عندما كان يستدير أمام الغلَّاية بعد إفراغ الجاروف، ودون كلمة خلع معطفه، وألقاه فوقي. لم يكن هناك وقت للكلام. وبرقت في عيني نظرة شكر وعرفان، بينما هزَّ رأسه، وربَّت على كتفي بلمسة ودٍّ قبل أن يعود إلى عمله.

لقد كان منظرًا لن أنساه بسرعة... أعظم مخبر في العالم، ومؤسِّس ذلك الفرع من الطِّبِّ الَّذي عُرِفَ فيما بعد باسم التَّحليل النَّفسي... يعملان جنبًا إلى جنب مشمِّري الأكمام يغذّيان الفرن بالفحم بواسطة الجاروف، كما لو كان ذلك العمل هو الَّذي رُبِّيا عليه منذ الصِّغر.

وكانت قوَّة فرويد تتهاوى بسرعة. لقد فعل كلَّ ما في وسعه مثلما فعلت، ومع أنَّه لم يكن لديه جرح قديم يعوقه مثلي، فقد أصبح من الواضح أنَّه لم يكن يألف بذل مثل هذا الجهد. وقد لاحظ هولمز حالته، وأمره بالتَّوقُّف، ورجا ناظر المحطَّة - إن تفضَّل - أن يحلَّ محلَّ دكتور فرويد. وقد أجاب الرَّجل بأنَّه يسعده ذلك، وتناول الجاروف.

(ولو لم تكن المسافة بين القاطرة ومقطورة الفحم ضيّقة، لربّما كان قد ساعدنا قبل ذلك، لكنَّ المسافة لم تكن تسع سوى شخصين بالكاد).

ورفض فرويد التَّخلِّي عن الجاروف، قائلًا إنَّه لم يتعبْ بعد، ولكنَّ هولمز أصرَّ مبيِّنًا له أنَّه إن لم يأخذ قسطًا من الرَّاحة الآن، فلن يستطيع أن يحلَّ محلَّ أحد العاملين فيما بعد. واستمرَّت المناقشة ونحن نعبر مدينة "بوهيمكرشن" الَّتي لمحت لافتتها للحظة. ولان الدُّكتور في النِّهاية، وسلَّم جاروفه إلى ناظر المحطَّة الَّذي أقبل على عمله بحماسة.

وتناول فرويد سترته، وأطلق تنهيدة من صدره، وجلس قبالتي على أرضيَّة العربة، وسألني: "أتريد سيجارًا؟". فتقبَّلته منه شاكرًا. كان فرويد يدخِّن - بلا انقطاع - سيجارًا من النّوع الفاخر، مثلما يدخّن هولمز الغليون، ولو أنَّ هولمز لم يكن يدقِّق في نوع التَّبغ؛ ممَّا أدَّى إلى نتائج معروفة بالنِّسبة لحاسَّة الشَّمّ.

جلسنا - أنا وفرويد - ندخِّن في صمت، بينما استمرَّ هولمز وناظر المحطَّة يقذفان بالفحم في فرن الغلَّاية. والمهندس يراقب مقاييس ضغط البخار وصمامات التَّحكُّم والطَّريق الحديديّ، وارتسمت على وجهه علامات القلق الَّتي دلَّت على عدم ارتياحه لما يحدث لقاطرته، والتفت مرَّة بعد أن فحص الصِّمامات، ونادى على "الوقَّادين" أن يهدِّئوا من النِّيران قائلًا: "ستنفجر القاطرة إذا لم تقلَّ النَّار".

وردَّ عليه ناظر المحطَّة: "كلَّا لن تنفجر... لا تلتفت إليه يا هر هولمز، لقد كنتُ أقود تلك القاطرات عندما كان هو لا يزال بالشُّورت... تنفجر؟ ها!"، واستمرَّ في تغذية النَّار وهو يقول: "لقد صنع هذه القاطرة فون لينسدورف. فهل سمع أحد قطّ عن انفجار غلَّايَة لينسدورف؟ لا تعره اهتمامًا يا هر هولمز... إنَّه من الجيل

الجديد، لا إقدام، ولا شجاعة، ولا احترام لمن هم أكبر سنًّا". وأشاح بيده في اتِّجاه المهندس.

وقاطعه هولمز: "دقيقة واحدة... هل تعني أنَّ هذه القاطرة قد صنعتها شركة فون لينسدورف؟".

- "طبعًا يا سيِّدي، بكلِّ تأكيد. انظر إلى اللوحة". وألقى بملء جاروفه إلى الفرن الَّذي كانت ناره بيضاء متوهِّجة، وتقذف إلينا بلفحة محبَّبة من الدِّفء، وتحوَّل إلى لوحة معدنيَّة صغيرة طمسها اللون الأسود، وأخذ يحكّها بمنديله المبلَّل بالعرق والغبار، ثمَّ صاح:
- "هل ترى الآن"، وتطلَّع هولمز إلى اللوحة بفضول، ورجع عنها، وقد ارتسمت على وجهه ابتسامة:
- "ماذا رأيت يا هر هولمز؟".
- "سخرية الأقدار يا صديقي... سخرية الأقدار... استمرَّ في عملك".

وهكذا انطلق القطار كالرَّعد خلال الليل. وأخبرنا ناظر المحطَّة أنَّ قطار البارون يتكوَّن من ثلاث عربات، بينما قطارنا به عربة واحدة، وأنَّ قاطرته الَّتي تمَّ تجهيزها على عجل في ساعة واحدة فقط، كانت أقلَّ حجمًا وقوَّة من قاطرتنا. وأذكت هذه المعلومات حماسَنا، ورفعتْ من روحنا المعنويَّة، ونحن نمرُّ كالسَّهم خلال مدينة سانت بولان الكبيرة، حيث كانت هناك تحويلات يجب تغييرها، ثمَّ مررنا بمدينة ميلك بسرعة خاطفة، لا أجسر على التَّفكير فيها.

- وصاح ناظر المحطَّة بصوت يغطِّي على ضجيج القاطرة بعد أن عبرنا مدينة ميلك: "هل ترغب في المرور بمدينة لينز أم لا؟ يجب أن تتَّخذ قرارك".

- واستفسر هولمز: "ما البدائل؟".
- "حسنًا، إذا مررنا خلال لينز، فسنتَّخذ الطَّريق الأقصر إلى سالزبورج". وصاح وهو يضع كفَّيه كبوق حول فمه حتَّى نستطيع سماعه: "ولكنَّ لينز نفسها ستجعلنا نبطئ؛ إذْ توجد تحويلات كثيرة يجب تعديلها، ولكن إذا اتَّجهنا جنوبًا، فسنمرَّ خلال أمستيتين وستير، ولكنَّهما أسهل، ونقاط التَّحويل فيهما أقلّ، ورجال السّكك الحديديَّة الَّذين قد يلاحظونك أقلّ، المهمّ أن تحزم أمرك قبل الوصول إلى بوكلارن"، ثمَّ أضاف بعد تفكير: "كما أنَّ الخطَّ الحديديَّ قد لا يكون بجودة خطِّ الجنوب".
- وسأله هولمز: "ولكن هل هو مستعمل؟".
- والتفت ناظر المحطَّة إلى المهندس الَّذي هزَّ كتفيه، ثمَّ أحنى رأسه. ونظر هولمز إلى فرويد، وعلى وجهه علامة استفهام.

فسأله فرويد: "كيف نعلم أنَّ البارون سيمرُّ بسالزبورج؟... ربَّما يتَّجه إلى براناو".

فردَّ ناظر المحطَّة: "كلَّا... هذا أمرٌ أعرفه بالتَّأكيد، فعندما نرتِّب المسار لقطار خاصٍّ، يتمُّ اختيار الطَّريق، ويُرْسَل الأمرُ بالتِّلِّغراف؛ لكي يعدِّلوا التَّحويلات المطلوبة، وذلك قبل قيام القطار. ولقد جهَّزت مسار قطار البارون بنفسي، وأعلم الطَّريق الَّذي سيتَّخذه".

- وتدخَّل هولمز: "يا للصُّدفة...! فبماذا تنصحنا إذن؟".
- وفكَّر ناظر المحطَّة قليلًا، وهو يعبث بشاربه ملوِّثًا إيَّاه بغبار الفحم: "فلنتَّجه جنوبًا".
- "حسنًا".

وهدَّأنا من سرعتنا عند مدينة بوكلارن الصَّغيرة، ونزل هولمز بنفسه، وعدَّل التَّحويلات. كنَّا - الدُّكتور فرويد وأنا - قد استرحنا، وأصبحنا في حالة تسمح لنا بمعاودة عملنا، وبدأنا فيه، بينما القطار يندفع إلى مدينة أمستيتين. ولاحظت عندئذٍ أنَّ مخزوننا من الفحم يقلُّ بسرعة. وأخبرت هولمز بذلك، بينما كان فرويد يكحت أرضيَّة مقطورة الفحم، ويدفع بما تبقَّى من الوقود إلى مقدِّمة المقطورة.

- وسأل هولمز ناظر المحطَّة: "كم تبقَّى لدينا من الوقود؟"، وعاد الرَّجل إلى المقطورة، ثمَّ تفقَّد الصِّمامات وقال: "سيكون من حسن حظِّنا إذا استطعنا أن نصل إلى ستير". وهزَّ هولمز رأسه، ثمَّ نهض، وتعلَّق بالقضيب الحديديِّ على حافَّة المقطورة، وقفز إلى العربة الوحيدة الَّتي يجرُّها القطار، وتوقَّفت عن تجريف الفحم، وحبست أنفاسي رغمًا عنِّي، وأنا أدعو الله ألَّا تفلت قبضته، وتحمله القفزة خارج القطار. وكان معطفه، الَّذي عاد فارتداه، يطير في الهواء يلفُّه كالشِّراع، وأدَّت الرِّياح القويَّة إلى أن طارت قبَّعته من فوق رأسه.

واختفى عن نواظرنا لفترة، وانصرفت أنا وفرويد إلى تغذية القاطرة بما تبقَّى لدينا من الفحم، ولكنَّ استمرار غيابه أقلقني. وكنت على وشك التَّعبير عن ذلك للدُّكتور، عندما هبط علينا هولمز في المقطورة، وهو يرمي أمامنا كومة من السَّتائر وغيرها من الموادّ القابلة للاشتعال، حملها من العربة.

وقال لنا: "استعملوا هذه، سأعود بالمزيد منها"، وعاد من حيث أتى.

قد يكون من المفيد - بل ومن المسلِّي - أن أحكي لكم بالتَّفصيل كيف مزَّقنا تلك العربة المسكينة إربًا إربًا، وأحرقناها قطعة قطعة، كلّ مقعد، وكلّ شبَّاك، وكلّ باب، الواحد تلو الآخر... ولكن كما ترون... ليس الوقت مناسبًا لذكر كلِّ التَّفاصيل. ويكفي أن أقول إنَّنا جميعًا

تناوبنا هذا العمل - ما عدا المهندس الَّذي رفض أن تكون له يد في ذلك، وأخبرنا بكلِّ صراحة أنَّنا نتلف ممتلكات السّكك الحديديَّة. وخصَّه ناظر المحطَّة بلعنة باللغة الألمانيَّة، لم أستطع اكتشاف معناها، ولكنِّي خمّنت أنَّها ذات صلة بالأمِّ، وبدت لي شديدة الوقع، ثمَّ تناول بلطة معلَّقة فوق اللافتة، وانتقل إلى العربة؛ ليثبت بنفسه ما قد قاله.

وأخذ القطار ينهب الطَّريقَ مخترقًا أستار الليل في هذه المطاردة المجنونة، واختفت العربة بفضل جهودنا الَّتي استمرَّت حتَّى أتينا على آخر قطعة فيها دون أن تقلَّ سرعتنا، ولم نتوقَّف إلَّا عند التَّحويلات، حتَّى نستمرَّ في طريقنا الدَّائريِّ، وتوقَّفنا مرَّة في أيبنسي في حوالي الخامسة صباحًا تحت إلحاح المهندس؛ لنملأ خزَّان المياه. ولم تستغرق العمليَّة سوى بضع دقائق، تسرَّب خلالها بعض البخار إلى ضباب الفجر مع صفير القطار العالي، وتساقطت شرارات الفحم، ولكنَّ المهندس ارتاح باله لإتمام العمليَّة. ثمَّ تزايدت سرعتنا مرَّة أخرى، وهدأت نفوسنا بعدما أكَّد لي ناظر المحطَّة أنَّ البارون لابدَّ أنَّه قد قابل في محطَّة لينز صعابًا أكثر ممَّا قابلناه.

كان ضوء الصَّباح الباكر يخترق حجب السَّماء بأشعة برتقاليَّة وحمراء، تضيء لنا الطَّريق، ونحن نقوم بتحويل آخر نقطة في باديش، وأخذ عمَّال السِّكك الحديديَّة ينظرون إلينا في دهشة، ثمَّ أخذوا يصيحون بنا، ونحن نندفع بالقطار خلال المحطَّة، ورأيتهم من العربة يُهْرَعُون في اتِّجاهات مختلفة مثل النَّمل.

- وقلت: "أتوقع أنَّهم سيبرقون إلى المحطَّة التَّالية". وأومأ ناظر المحطَّة برأسه موافقًا، وهو يلوِّح بيديه في استسلام.
- وقرَّر هولمز أن يخوض المخاطرة قائلًا: "لا مفرَّ من ذلك... أطلق لها العنان أيُّها المهندس".

وطار القطار، بينما الشَّمس ترتفع من خلفنا، وعلى يميننا لم يكن لدينا الوقت لنستمتع بهذا المنظر، فإنَّه ذكَّرني بالفخامة الَّتي لاحظتها وأنا أمرُّ بتلك المناظر في طريقي إلى فيينا.

أمَّا الآن، فبدلًا من الجلوس المريح في ديوان العربة، والاستمتاع برؤية المناظر الخلَّابة من النَّافذة، وقمم الجبال المغطَّاة بالثَّلوج، والتَّفلسف بشأن الحياة والجمال، كنت أكسر نافذة مشابهة، بينما كان هولمز يقف على سطح العربة مستخدمًا أدوات أخرى، وهو ينتزع عوارضها الخشبيَّة قطعة قطعة، ويدفعها من خلال ثقب في فتحة السَّقف؛ لتنزل في الممرِّ تحته، حيث يجمعها الدُّكتور فرويد، وينقلها إلى المقطورة، فيجرفها ناظر المحطَّة إلى الفرن المشتعل.

وتراءت أمامنا مدينة سالزبورج، وبينما كنتُ أكوِّم ما جمعته من أنقاض في ممرِّ العربة، سمعت صياحًا من ناظر المحطَّة والمهندس، فهُرِعْتُ إلى المقدِّمة.

وأثلج صدري ما رأيته، فعلى بُعْدِ ثلاثة أميال- كما قدَّرت- كان هناك قطار يُسرِع أمامنا في اتِّجاه الجنوب الغربيِّ من قاطرة ومقطورة وثلاث عربات.

وصاح هولمز في ارتياحٍ، وعيناه تبرقان: "ها هم هناك... أنت عبقريٌّ يا برجر". واحتضن ناظر المحطَّة المذهول بحماسة، ثمَّ توقَّف ليشاهد القطار المتقدِّم علينا بميل أو اثنين، وهو يميل بسلاسة؛ ليتَّخذ المسار المتَّجه إلى سالزبورج، ولم يصدر من البارون وصحبه ما يشير إلى أنَّهم رأونا. واستمرَّ قطارنا في مساره، واضطررنا للتَّوقُّف لتغيير آخر تحويلة قبل أن نضع قطارنا مباشرة على أثر القطار الخاصّ بالبارون.

الفصل السَّادس عشر

ما حَدَثَ بعد ذلك

صاح هولمز، وهو يضع كفَّيه كالبوق حول فمه؛ حتَّى نستطيع سماعه: "علينا أن نقتصد الآن كلَّ أوقية من البخار قدر الإمكان... ولا تهتمّوا بعد ذلك بالتَّحويلات، فلقد حُوِّلت كلّها لصالح قطار البارون. ولكن علينا أن نلحق بهم قبل وصولهم إلى الحدود عند سالزاك".

كنَّا قبل دقائق قد بلغ بنا الإرهاق مداه، وكان كلُّ واحدٍ منَّا على وشك الانهيار، ولكن الآن بعد رؤيتنا للفريسة، اشتعل حماسنا. واندفعنا ننفِّذ ما قال به هولمز. نغذِّي "الغلَّاية" بالوقود، بحيث ارتفعت ألسنة النِّيران بيضاء عالية أكثر من أيِّ وقتٍ مضى، ولم نترك شظية خشب في تلك العربة الَّتي فقدت تمامًا صفتها كعربة قطار. وتفرَّعت أمامنا، عند دخولنا إلى سالزبورج، خطوط السِّكك الحديديَّة في متاهة من الطُّرق أكثر تعقيدًا من تفرُّعات الأوردة في الجسم. وكان المهندس قد فَقَدَ أعصابه تمامًا، فلو كانت أيّ تحويلة قد أُعِيْدَتْ إلى سابق وضعها، لأصبحنا في عداد الأموات. وسارع برجر - ناظر المحطَّة

- إلى احتلال مكانه، بينما انزوى المهندس المذعور إلى جوارنا يقذف بقطع الخشب إلى "الفرن"، وهو لا يجسر على رفع بصره ليراقب الطَّريق.

واقتربنا مرَّة أخرى من قطار البارون. وأطلق هولمز عيارات ناريَّة من مسدَّسه في الهواء؛ ليلفت نظرهم، ولم يكن هناك داعٍ لذلك، فقد رأونا. ولمحت رأسين تتزاحمان في شبَّاك العربة تنظران إلينا، وبعد لحظات شرع قطار البارون في زيادة السُّرعة.

مرَّت بنا مدينة سالزبورج مرور البرق، ووجدت - مثلما وجد المهندس التَّعس - أنَّه لا ضرورة لمتابعة خطِّ سير القطار. ومع ذلك، فقد كان من المستحيل ألَّا ألاحظ المحطَّة، وهي تندفع إلينا، بينما نمرُّ بها كالرَّعد، وكذلك نظرات الدَّهشة البالغة على وجوه النَّاس. كان قطار البارون يجري بسرعة أكبر بكثير ممَّا هو مسموح به في المحطَّات، ولكن أن يتبعه قطار آخر بنفس السُّرعة... أمر يثير الدَّهشة، بل ومحفوف بالخطر، وسمعت أصوات الصَّفافير، ورأيت النَّاس تجري، وهي تصيح مذعورة، بينما كان بيرجر هو الآخر يطلق صفَّارة قطارنا.

وبعد المرور بمحطَّة سازبورج، لم يتبقَّ أمام قطار البارون إلَّا لحظات قبل أن يصل إلى نهر سالزاك، ويعبره إلى بافاريا. ونسينا كلَّ شيء، وأخذنا نلقي في "الفرن" بكلِّ ما يصل إلى أيدينا من بقايا عربة القطار بسرعة لم أكن أتصوَّر أنَّها ممكنة قطّ.

وصاح فرويد: "لقد سدّوا الطَّريق"، وهو يشير إلى الحدود أمامنا بعد أن عبرها قطار البارون. وصاح هولمز: "فلنقتحم الحاجز"، وأطعنا أمره، بينما تحطَّمت البوَّابة إلى آلاف الشَّظايا الَّتي تناثرت في كلّ مكان.

ودخلنا بافاريا. وأثبتت قاطرتنا جدارتها، وبدأنا الاقتراب من القطار الهارب، وخلال لحظات التقاط الأنفاس، رأينا شخصًا يلوِّح لنا بقبضتيه مهدِّدًا. وفي اللحظة التَّالية سمعنا صوت طلقات ناريَّة.

وصاح هولمز "انبطحوا"، وسقطنا جميعًا على أرضيَّة العربة، كلّنا ما عدا المهندس المذعور الَّذي اختار تلك اللحظة؛ لينهض من مكانه حتَّى يلقي نظرة على الطَّريق، فأصابته رصاصة في كتفه. فدار حول نفسه كدمية معلَّقة في خيط، وأمسك بجانب المقطورة. وأشار إليَّ هولمز أن أعتني به، بينما ذهب هو وفرويد لجلب مزيدٍ من الوقود. وزحفت إلى جانب الرَّجل المسكين، وتأكَّدت من أنَّ الجرح ليس خطيرًا. ولو أنَّه مؤلم. وتمكَّنت من تثبيت وضعي، وضمَّدت الجرح بما وجدت في حقيبتي من ضمَّادات، ولكن كان من المستحيل في ذلك الوضع أن أستخرج الرّصاصة. وكانت القاطرة تهتزُّ بنا، كما لو كان قد أصابها الشَّلل الرَّعَّاش، كما كانت مشارطي قد ثلمت حدودها نتيجة استخدامها في تقطيع أغطية المقاعد.

وعاد فرويد وهولمز بآخر كمّيَّة من الوقود، وألقياها في النَّار، وأخبراني بأنَّه لم يتبقَّ شيء في العربة يصلح كوقود. وكانت لحظة حاسمة، فإذا قلَّت النِّيران، كما يبدو أنَّه محتَّمٌ، فسنخسر كلَّ شيء.

واقترح ناظر المحطَّة أن نفصل العربة (الَّتي كانت) عن القطار قائلًا: "سيخفِّف ذلك من الحِمل، ويعطينا مزيدًا من السُّرعة"، ووافق هولمز، وأخذني معه، بينما ترك فرويد ليعتني بالمهندس، واعتلينا المقطورة الفارغة، ووصلنا إلى الوصلة الحديديَّة الَّتي تربطها ببقايا العربة، وكانت الأرض تحتنا تجري بسرعة رهيبة. وأخذ هولمز يحاول نزع الكلّابات الحديديَّة، بينما رقدت أنا على بطني وأمسكته بقوَّة من خاصرته.

وبدأ هولمز يفكُّ الوصلات، ثمَّ أخذ يفكُّ الصَّواميل الكبيرة الَّتي تربط العربة بالمقطورة. وكان عملًا شاقًّا؛ بسبب السُّرعة والضَّجيج الَّذي يصمُّ الآذان. ومن الموقع الَّذي كنت فيه لم أكن أرى شيئًا من الجهود الَّتي يبذلها، وبدأت ذراعاي تؤلمانني بسبب الجهد المبذول لحفظه في مكانه. وفجأة انفصلت العربة، واندفعت القاطرة بسرعة هائلة. ولو لم أكن ممسكًا به بثبات وقوَّة، لكان قد طار مرتطمًا بالأرض ملاقيًا حتفه في الحال.

وظللت ممسكًا به، وأنا أشدُّه ببطء إلى حافَّة المقطورة، وهي عمليَّة بدت وكأن لا نهاية لها، وعندما استطاع في النِّهاية أن يمسك بالمقطورة، ندَّت عنه آهة عميقة وهو يستنشق الهواء بشدَّة... وقال لي: "لا تدعْ أحدًا يقلْ عنك بعد ذلك يا واطسون إنَّك مجرَّد مؤرِّخ لي".

وابتسمتُ وأنا أتبعه، ونحن نعبر المقصورة لآخر مرَّة، آخذين حذرنا عند سيرنا فوقها، فقد كان هناك مَن لا يزال يطلق النَّار في اتِّجاهنا، لقد كانت إصابة المهندس، ونحن نسير بهذه السُّرعة أمرًا من قبيل الصُّدفة البحتة.

ونجحنا في الوصول إلى القاطرة، ونظرنا أمامنا. وأصبح واضحًا لنا أنَّنا في طريقنا إلى التَّفوُّق على قطار البارون. واقترحت أن نفصل المقطورة أيضًا، حيث لم يعدْ بداخلها أيّ وقود، ولكنَّ برجر حذَّرنا من ذلك؛ إذْ إنَّها تعمل كثقل لتثبيت القطار، وأنَّه بمثل هذه السُّرعة قد يكون من الخطر التَّخلُّص منها.

وكنَّا قد أجهزنا على كلِّ ما يمكن أن يصير وقودًا، وتخلَّصنا من الهيكل والعجلات الحديديَّة للعربة الوحيدة، ولم يتبقَّ شيءٌ يمكن عمله. فإذا لم نلحق الآن بقطار البارون، فسوف تكون كلّ جهودنا قد ذهبت هباء، وجزعت عندما تخيَّلت ردود الفعل العالميَّة النَّاشئة

عن اقتحامنا للبوَّابة عند الحدود، وحدِّث ولا حرج عن الطَّريقة الَّتي خرقنا بها كلَّ قواعد السِّكك الحديديَّة، بالإضافة إلى تدمير ممتلكاتها!!!

وخلال ذلك هبط مؤشِّر عدَّاد ضغط البخار من موقعه الَّذي كان ثابتًا فيه (عدَّة درجات قبل منطقة الخطر الحمراء). وأطلق هولمز تنهيدة كان صوتها أعلى من ضجيج القطار، وصاح: "لقد خسرنا".

وكنَّا فعلًا على وشك الخسارة، لولا أنَّ البارون بسبب لهفته على الفرار، ارتكب خطأ قاتلًا، كنت على وشك أن أجيب هولمز ببضع عبارات تشجيع زائف، عندما استرعى انتباهي أنَّ العربة الأخيرة من قطار البارون تتَّجه نحونا بسرعة مخيفة.

وصحت وأنا أشير إليها: "هولمز... لقد تخلَّص من إحدى عرباته". وكان برجر قد رآها في اللحظة نفسها، وضغط على" الفرامل" بأسرع وأقوى ما يمكنه. ونحن نحاول تفادي الاصطدام. ومرَّت عشرون ثانية من العذاب، ونحن نندفع إلى الأمام دون أيِّ بادرة تدلُّ على انخفاض السُّرعة في طريقنا إلى الاصطادم بالعربة المنفلتة. واستعدَّ كلُّ واحدٍ منَّا للصَّدمة، وأمسك فرويد بالمهندس المجروح، ولكن في اللحظة الأخيرة أدركت أنَّنا لن نصطدم. لقد أطلق البارون العربة على قمَّة منحدر، ووفقًا لقوانين القصور الذَّاتيّ، فإنَّها ما أنْ وصلت إلى القاع وصعدت قليلًا، عادت إلى النُّزول مرَّة أخرى، وأصبحت تجري أمامنا بسرعة حثيثة، ولكنَّها كافية لتدميرنا ما لم يبادر برجر إلى فعلته الحاسمة.

لمَّا أدرك هولمز الموقف، ألقى معطفه عنه، وبدأ في تسلُّق القاطرة متَّجهًا إلى مقدِّمتها، وصاح: "هدِّئ السُّرعة. سنحاول ضمَّ تلك العربة".

وتردَّد برجر لحظة أمام جرأة الفكرة، ثمَّ هزَّ رأسه موافقًا، وخفَّف من قوَّة الدَّفع. وكان السِّياج المحيط بالقاطرة (الغلَّاية) شديد الحرارة لدرجة أنَّ هولمز اضطرَّ إلى استخدام قبَّعته ليمسك بها السِّياج وهو يتحرَّك بجوار القاطرة.

وكنَّا - فرويد وبرجر وأنا والمهندس (الَّذي استطاع النُّهوض على قدميه) - نشاهده، وقد حبسنا أنفاسنا في انتظار اللحظة الحاسمة، وهو يتقدَّم خطوة خطوة نحو مقدِّمة القاطرة، بينما لاحت عربة قطار البارون على مرمى البصر.

كان برجر ماهرًا، واستطاع الارتطام بالعربة برفق قدر الإمكان، وبالنَّظر إلى سرعة الطَّرفين. وحدثت صدمة خفيفة لم ينشأ عنها لحسن الحظِّ خروج إحدى العربتين عن الخطِّ، ومع تحوّل المنحدر إلى الصُّعود استندت العربة إلى مقدِّمة قطارنا في يُسْر.

واستطاع هولمز أن يقفز من مقدِّمة القطار إلى العربة، وأشار إلينا أن نتبعه، وبدأت في الحركة، ولكنَّ فرويد أمسك بذراعي، وصاح في أذني: "لن تساعدك ساقك على هذه القفزة"، ثمَّ خلع سترته، وتتبَّع خُطى هولمز واحتياطاته حتَّى وصل إليه.

وعاد فرويد بعد فترة، وهو يحمل حملًا من ستائر العربة ألقاها في النَّار، واقترح هولمز - الَّذي كان يجمع مزيدًا من الوقود - أنَّه قد يكون في وسعنا الآن أن نتخلَّص من المقطورة. وقال برجر إنَّه من الممكن حدوث ذلك الآن، ولكنَّه لم ينصح به. ولكنَّنا قمنا بذلك، وتخلَّصنا منها، وعاد هولمز بالمزيد من الوقود، وبدأ مؤشِّر ضغط البخار يرتفع. وبفضل هذا المدد الجديد من الوقود، والتَّخلُّص من المقطورة، بدأنا مرَّة أخرى في اللحاق بقطار البارون. واقترب هولمز من برجر، الَّذي كان مشغولًا بأدوات التَّحكُّم، وأخذ يحدثه في أذنه بشكل جادٍّ. وانزعج الرَّجل في البداية، ونظر إليه بشدَّة، ثمَّ هزَّ كتفيه، وربَّت على كتف هولمز. وعاد هولمز إلى حيث كنت أقف، وطالبني بالمسدَّس.

فسألته وأنا أناوله السِّلاح: "ماذا ستفعل به؟".

- فأجابني: "ما أقدر عليه" مكرِّرًا عبارة فرويد المماثلة الَّتي قالها في موقف مشابه: "واطسون... أيُّها الصَّديق القديم، إذا لم نلتقِ مرَّة أخرى، فاعتقادي أنَّك ستذكرني بكلِّ خير".
- "ولكن يا هولمز..."... فأمسك بيدي، وضغط عليها، بحيث أوقف كلَّ كلام. واستدار إلى فرويد الَّذي سأله: "هل هذا ضروريٌّ؟". وكان فرويد - مثلي- لا يبدو أنَّ لديه أيّ فكرة عمَّا ينتويه هولمز، ولكنَّ كلماته كان لها وقع ينذر بالشَّرِّ.
- أجاب هولمز: "أخشى أنَّه لا مفرَّ من ذلك... وعلى أيّ حال، ليس أمامي مخرج آخر. الوداع يا سيجموند فرويد، وليباركك الله جزاء ما قمت به من خدمات للجنس البشريِّ، ولإنقاذك لحياتي التَّعيسة على الأقلِّ".
- واحتجَّ فرويد قائلًا: "أنا لم أنقذها لكي تفقدها أنت". وبدا لي أنَّ عينيه قد امتلأتا بالدُّموع، إلَّا أنَّ ذلك قد يكون راجعًا للحرارة والغبار والرِّيح.

وعلى كلٍّ، فإنَّ هولمز لم يسمعه؛ لأنَّه اتَّجه مرَّة أخرى إلى العربة الَّتي كان قطارنا يدفعها أمامه، بينما كنَّا ندنو شيئًا فشيئًا من قطار البارون، ولشدَّة انشغالنا بمراقبته لم نلحظ إلَّا فجأة ظهور قطار آخر قادم من الجهة المقابلة على الخطِّ الحديديِّ الموازي، وكان هولمز منهمكًا في مراقبة خطواته بحيث لم نلحظه، بل لم يسمع صرخاتنا ونحن نحذِّره أن يلتصق بجسم القاطرة. وهكذا فاجأه القطار، ومرَّ بجانبه كالرَّعد القاصف، يكاد يمسُّ جسده، حتَّى إنَّه أفلت إحدى يديه، وكاد الفراغ الهوائيُّ أن يبتلعه. إلَّا أنَّه ثبت في موقفه، وما هي إلَّا لحظة حتَّى شاهدناه يهزُّ برأسه بما يعني أنَّه لم يصبه سوء، ثمَّ اختفى داخل العربة. ومن الصَّعب أن أصف ماذا حدث داخل العربة بالضَّبط. لقد ظللت أرى المنظر في أحلامي، بل وقارنت ذكرياتي عنه

بما يتذكَّره فرويد، ولكنَّ الواقع أنَّه حدث بسرعة خاطفة، وفي وسط خلط واضطراب، حتَّى إنَّ الواقعة لم تتَّخذ معالم واضحة في أذهاننا.

كان برجر قد لحق بقطار البارون، بحيث تساوت سرعتاهما، وأخذ يدفع العربة، بحيث تلامس قطار البارون، وخلال الطَّريق الملتوي بين الجبال الشَّاهقة، عمل برجر على تقليد سرعة قطار البارون، فيسرع ويبطئ وفقًا لحركة قاطرته، وبهذا الشَّكل، دخلنا إلى النَّفق. وفي أعماق ظلامه سمعنا صوت طلقات ناريَّة تدوِّي مغطِّية على ضجيج القطار. وفي اللحظة التَّالية خرجنا مرَّة أخرى إلى الهواء الطَّلق. ولم أعد أستطيع تحمُّل هذا الموقف الغامض، وصمَّمت أن أتبع صديقي. ونظر إليَّ فرويد، وأدرك أنَّه من العبث أنْ يُثنيني عن عزمي، فانضمَّ إليَّ، وبدأنا نخطو إلى الأمام عندما صاح بنا المهندس، وهو يلوِّح بيديه:

"كان هناك شخص يتسلَّق العربة الأقرب إلينا، رجل يرتدي ملابس سوداء وحذاءً لامعًا ذا رقبة طويلة، يحمل في إحدى يديه مسدَّسًا، وفي الأخرى سيفًا".

- وصاح فرويد:"إنَّه البارون".

وآه لو طالت يدي مسدَّسًا أو أيّ سلاح، فإذا كان هذا الشَّخص قد قتل هولمز، ويرمي إلى إطلاق النَّار علينا الآن، فقد أصبحنا في خبر كان. ولم تعد المقطورة توجد خلفنا، أي لا يوجد مكان يمكن أن نلجأ إليه لنحتمي به. وفي تلك اللحظة، أعتقد أنَّ الموت لم يكن يهمّني بقدر ما أهمَّني الموت دون أن أثأر لهولمز.

إلَّا أنَّه لم يمت، فبينما أنا أنظر، ظهر شخص ثانٍ على سقف نفس العربة من الطَّرف الآخر. كان شرلوك هولمز، وكان يحمل مسدَّسًا وسيفًا مثل البارون. ولم أدرِ كيف يمكن أن توجد كلّ تلك الأسلحة في قطار إلَّا فيما بعد.

وبينما كنَّا نشقُّ طريقنا بين أرجاء الرِّيف البافاريّ، وقف الرَّجلان يواجهان بعضهما بعضًا على طرفي عربة القطار.

وبدأ الرَّجلان كأنَّهما تمثالان لا حراك بهما، اللهمَّ إلَّا محاولة تثبيت أقدامهما على سقف العربة المهتزّ، وفي إحدى تلك المحاولات، فقدَ هولمز توازنه، فأسرع البارون وأطلق مسدَّسه، إلَّا أنَّه لم يضع في اعتباره أنَّ نفس الهزة الَّتي جعلت هولمز يفقد توازنه، تؤدِّي إلى اختلال توازنه هو الآخر، فطاشت طلقته. وحاول مرَّة أخرى، بينما كان هولمز يحاول النُّهوض، إلَّا أنَّ المسدس لم ينطلق، إمَّا لأنَّ رصاصه قد فرغ، أو حدث خلل في ميكانيزم الإطلاق. ولاح على وجهه غضب عظيم، وهو يلقي بالمسدَّس جانبًا. وبشكلٍ تلقائيٍّ رفع هولمز مسدَّسه، وصوَّبه، ولكنَّه لم يطلق النَّار.

- وصحنا به: "أطلق يا هولمز... أطلق يا هولمز". ولم يبدُ عليه أنَّه سمعنا كما لم يبدُ عليه أيّ اهتمام عندما حاولنا أن نحذِّره من فوَّهة النَّفق الَّذي كنَّا مقبلين عليه. وثبَّت البارون أقدامه، وهو يرقب الموتَ يقترب سريعًا من هولمز.

ولكن من سخرية الأقدار أن كان البارون نفسه هو الَّذي أنقذ هولمز. إذْ إنَّه انبطح بحركة لا شعوريَّة فوق سطح العربة؛ ليتحاشى الاصطدام بالنَّفق، وأدرك هولمز على الفور السَّبب في ذلك، فانبطح هو الآخر، وطار المسدَّس من يده أثناء تلك الحركة.

وبدا أنَّ النَّفق الجديد لا نهاية له. ترى ماذا يحدث الآن؟ هل تغلَّب ذلك الشَّيطان منتهزًا فرصة الظَّلام، وتسلَّل عبر العربة ليطعن صديقي؟ أطار ذلك الخاطر ما تبقَّى من عقلي.

وعندما خرجنا إلى ضوء النَّهار مرَّة أخرى، كان العدوَّان المتنافسان يتحرَّكان بعضهما صوب بعض، وقد شَهَرَ كلٌّ منهما سيفه، وهما يحاولان بصعوبة الاحتفاظ بتوازنهما.

والتقى السَّيفان، ونصلاهما يلمعان في ضوء الشَّمس، وتبادلا الطَّعنات، وهما يحاولان الاحتفاظ بتوازنهما خلال المبارزة. ولم يكن أيٌّ منهما هاويًا. فقد تدرَّب البارون في هايدلبرج - ولعلَّ النّدبة على وجهه خير دليل على ذلك - أمَّا هولمز، فكان بطلًا في لعبة الشِّيش، وخبيرًا في اللعب بالعصا. ولكنّي لم أشاهده من قبل يلعب بسيف المبارزة، كما لم أرَ قطّ مبارزة على أرض لا تثبت على حالٍ مثل سقف تلك العربة.

على أنَّ البارون - والحقّ يُقال - كان أبرع من هولمز في المبارزة بالسَّيف، فأخذ يضغط عليه ببطء، مجبرًا إيَّاه على التَّراجع المنتظم إلى نهاية العربة. وكانت ملامحه الشَّيطانيَّة تطفح بالسُّرور في انتظار النِّهاية المتوقّعة عندما أدرك مدى تفوّقه على خصمه.

وصحتُ في برجر: "الصق القاطرة بقطار البارون"، فأعطاها دفعة جاءت في الوقت المناسب؛ إذ اصطدمنا بقطار البارون في اللحظة الّتي اضطرَّ فيها هولمز إلى التَّراجع للخلف منتقلًا إلى سطح عربة قطار البارون، ولولا أنَّ الصَّدمة كانت خفيفة؛ لذهب هولمز في عالم النِّسيان.

وتابعه البارون برشاقة ومهارة كنمر متوحِّش، واستطاع برجر بعد فترة أن يتحكَّم في القاطرة، ويهدِّئ من سرعتها حتَّى يفصلها عن قطار البارون. وتعثَّر هولمز مرَّة أخرى، ولم يُضِع البارون الفرصة، فدفع بسيفه نحو هولمز. واستدار هذا الأخير؛ ليتجنَّب الضَّربة، ولكنَّ سيف البارون أصاب ذراعه، ورأيت الدَّم يندفع من الجرح.

ثمَّ انتهى الأمر فجأة. أمَّا ماذا حدث بدقَّة، فلم أستطع قطّ الوصول إلى كنهه. بل إنَّ هولمز نفسه لم يستطع التَّذكُّر. ويبدو أنَّ البارون سحب سيفه إلى الخلف، واستعدَّ لطعنة ثانية، إلَّا أنَّ قدمه انزلقت، فاندفع إلى الأمام ملقيًا بجسده على سيف هولمز الَّذي كان مشرعًا، وهو في حالة النّهوض من سقطته. وكان اندفاع البارون قويًّا

لدرجة أنَّ سيف هولز اخترق جسده حتَّى المقبض، ولم يستطع الشَّقيّ أن ينتزعه من جسده. ووقف للحظة فوق سطح العربة يتمايل، ووجهه الشِّرّير متجهِّم من هول الألم، ثمَّ صاح صيحة هائلة - ما زلت أسمعها تتردَّد في أحلامي - وسقط من فوق العربة. وظلَّ هولمز راكعًا على ركبتيه لعدَّة لحظات ممسكًا بذراعه المصابة، محاولًا أن يحتفظ بتوازنه حتَّى لا يسقط هو الآخر. ثمَّ تلفَّت حوله باحثًا عنَّا.

وهُرِعْنَا - فرويد وأنا - من القاطرة بأسرع ما نستطيع، وتسلَّقنا سقف العربة، حيث أمسكنا به، وأنزلناه بحرص على السّلّم في نهاية العربَّة. وكان فرويد متلهِّفًا على فحص الجرح، إلَّا أنَّ هولمز هزَّ رأسه بعناد مصرًّا على أنَّه ليس سوى خدش بسيط. وقادنا خلال العربتين اللتين كانتا لا تزالان متَّصلتين بقاطرة البارون. وشاهدنا في العربة الأولى الجثَّة الضَّخمة للسَّاقي مصابًا برصاصة في الصّدغ، أطلقها هولمز عندما دخل العربة أوَّل مرَّة. وفي زاوية أخرى من العربة، انكمشت المرأة الَّتي قامت بكفاءة بدور البارونة فون لينسدورف، وهي تصيح صيحة هستيريَّة أفسدت ملامح جمالها الباهر. ولم تتحرَّك من مكانها أثناء مرورنا، وإنَّما جلست تبكي كطفل صغير، وهي تهتزُّ إلى الأمام وإلى الخلف.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل السّابع عشر

المشكلة الأخيرة

قال شرلوك هولمز وهو يضع كأس البراندي جانبًا: "نحن لم نمنع الحرب حقيقة... كلّ ما يمكن قوله إنّنا أجلّناها فحسب".

- "ولكـــن".
- "ليس سرًّا أنَّ الأساطيل تتجمَّع في سكابا فلو"... قالها وهو نافد الصبر، ولكن بعطف... "فإذا أراد القيصر أن يحارب روسيا بشأن البلقان. فسيجد وسيلة لذلك. ولمَّا كان البارون قد مات، والبارونة عاجزة، فلن يدهشني أن أعلم أنَّ الحكومة الألمانيَّة قد أعلنت أنَّه تمَّ إلغاء الوصية، وأنَّ الضَّيعة مصادرة". واستدار في مقعده؛ ليواجه فرويد، وهو حريص على ألَّا يغيّر وضع الرّباط الَّذي تستند إليه ذراعه اليسرى: "وهكذا سنجد يا عزيزي الدُّكتور أنفسنا في جانبين متحاربين".

كنَّا جالسين مرَّة أخرى في المكتب المألوف في شارع برجاس رقم 19. ورغم أنَّ هذه الجلسة كانت آخر زيارة لنا لهذه القاعة المريحة إلَّا أنَّ كثافة الدُّخان فيها أصبحت تذكِّرني أكثر فأكثر بمأوى شرلوك هولمز في شارع بيكر.

وهزَّ سيجموند رأسه في أسى موافقًا على ما قاله هولمز، وأشعل سيجارًا آخر، وتنهَّد، وهو يقول: "لقد كان أحد أسباب مساعدتي لك هو منع حدوث تلك الحرب، إلَّا أنَّه لا شكَّ لديَّ في صدق نبوءتك. لقد انتهت كلّ جهودنا إلى لا شيء".

- وابتسم هولمز قائلًا: "أمَّا أنا، فلن أذهب إلى مثل ما ذهبت إليه". وعدل من وضعه على المقعد، فلم يكن جرحه بسيطًا؛ لأنَّ سيف البارون قد قطع طرفًا من عصب، وكانت كلّ حركة تحدث ألمًا شديدًا.

وبصعوبة بالغة، أمسك غليونه بيده اليسرى، ورفعها ببطء إلى شفتيه، حيث أشعلها، وثبَّت وضعها بين أسنانه، وترك يده تهبط ببطء إلى أسفل.

- "لقد كسبنا بعضَ الوقت رغم كلِّ شيء، وهذه هي الفائدة الرَّئيسيَّة الَّتي جنيناها من جهودنا. ألَا تتذكَّر يا عزيزي واطسون عبارة مارفل المفضَّلة: "آه... لو كان لدينا متَّسع من العالم ومن الوقت؟". إنَّ ما يحتاجه العالم الآن أشدّ الاحتياج هو الوقت. فربَّما إذا أُتِيحَ للبشريَّة الوقت الكافي لجاهدت ذلك النّصف المرعب من نفسها، الَّذي يبدو دائمًا معنيًّا بأفعال العبث والفساد والتَّدمير. فلو كان عملنا هذا قد كسب ولو ساعة واحدة تفهم البشريَّة فيها مسؤوليَّتها، فإنَّ ما فعلناه لن يكون عبثًا"، فتدخَّلت قائلًا:

- "هناك فائدة أخرى ذات طبيعة عاجلة نشأت عن عملنا". فقد أنقذنا تلك المرأة التَّعسة من مصير أسوأ من الموت، وهناك أيضًا..."... وتردَّدت، ثمَّ توقفت، بينما ضحك هولمز، وتابع مسيرة أفكاري، وأكمل لي جملتي قائلًا: "والشَّيء الآخر أنَّ فرويد قد أنقذ حياتي، فلو لم أحضر إلى فيينا، ولو لم ينجح دواؤك، لكانت هذه الفرصة قد فاتتني بلا شكّ، وغيرها من الفرص الَّتي ستمرُّ بي". وأضاف ملتفتًا إليَّ وهو يتناول كأسه مرَّة أخرى: "ولو لم تتحايل أنت يا واطسون لتأتيَ بي إلى هنا رغمًا عنِّي، فلم تكن الفرصة لتتاح للدُّكتور فرويد؛ لينقذ مدمنًا حالك مصيره، إنَّني أدين بحياتي لكما. وبالنِّسبة لواطسون، فلا تزال أمامنا فرصة من الحياة لأردَّ له صنيعه. أمَّا بالنِّسبة لك أنت يا دكتور فرويد، فأعترف أنَّني في حيرة من أمري. وإذا صحَّت توقُّعاتي، فقد تكون هذه المرَّة الأخيرة الَّتي نشاهد فيها بعضنا بعضًا، فكيف أردّ لك صنيعك؟".

ولم يجب فرويد مباشرةً، وإنَّما كان يبتسم بطريقته الَّتي انفرد بها، حينما كان هولمز يتحدَّث. أمَّا الآن فقد نفض رماد سيجاره، ونظر بثبات إلى صديقي، ثمَّ قال: "أعطني فرصة لأفكِّر".

كانت حقائبنا جاهزة، والقضيَّة قد انتهت، والبارون قد تُوفِّي، وبعد فترة قصيرة، سأكون في لندن مع زوجتي، واتَّضح أنَّ الَّتي انتحلت شخصيَّة البارونة فون لينسدورف - كما توقَّع هولمز- هي ممثِّلة أمريكيَّة بقيت في أوروبا بعد عودة فرقتها إلى أمريكا، وكان اسمها الحقيقي ديانا مارلو. وخلال إقامة الفرقة في برلين، التقت بالبارون الشَّابّ، ونشأت بينهما علاقة. وقد أطلق سراحها بعد توقيعها إقرارًا اعترفت فيه بدورها، كما وقَّعت على تعهُّد بأنَّها لن تكشف عن الأحداث الَّتي شاركت فيها، ولا أسماء مَن شاركوا في تلك الأحداث بما

في ذلك اسم شرلوك هولمز، وأنَّها لن تحاول الدُّخول مرَّة أخرى إلى النِّمسا أو ألمانيا.

وكانت سلطات الأمن في كلتا الدَّولتين حريصة على أن تسدل السِّتار على تلك الفضيحة ذات الأبعاد الواسعة، والَّتي قاربت أن تكون فضيحة عالميَّة. وتكشفت كلّ الحقائق. وشهد كلٌّ من برجر والمهندس بما شاهداه وتلقَّيا، مثلنا، تعليمات بألَّا يفشيا السِّرَّ إلى الأبد. كذلك تلقَّى السّيرجنت ورجاله من شرطة فيينا تعليمات بكتمان السِّرِّ. ولو أنَّه كان من الواضح أنَّه لا مفرَّ أمام الجميع إلَّا أن يظلُّوا صامتين. ولاقى مدبِّرو تلك المؤامرة الدَّنيئة جزاءهم العادل. أمَّا البارونة المسكينة، فربَّما مرَّ وقتٌ طويل قبل أن تستطيع الكلام (هذا إذا تمكَّنت منه على الإطلاق). ولا شكَّ أنَّ حكومتا القيصر والإمبراطور رأتا من الفطنة ألَّا تكشفا تحالفاتهما ومؤامراتهما السِّياسيَّة للرَّأي العامِّ في الوقت الحاليِّ، وفي ظلِّ الظُّروف المريبة، وحقيقة الأمر كما علمت فيما بعد أنَّ الضَّالع في تلك الدَّسيسة لم يكن الإمبراطور العجوز، وإنَّما ابن أخيه المتآمر الأرشيدوق فرانز فرديناند الَّذي دبَّر تلك المؤامرة مع الكونت فون شليفن، والبارون فون لينسدورف، ودار المستشاريَّة في برلين.

وقد حصل الأرشيدوق - ولكن بطريقة غريبة - على أسلحته الفظيعة، فقد قدَّمتها ألمانيا إلى النِّمسا بعد مصرعه في سراييفو بعد ذلك بعدَّة سنوات، بينما أدَّت الحرب الَّتي نشبت بعد ذلك إلى أن يفقد القيصر عرشه. وكثيرًا ما تذكَّرت، خلال السَّنوات السوداء الَّتي بدأ بها هذا القرن وصف سيجموند فرويد المختصر لذلك الرَّجل، والَّذي بناه على ملاحظته لذراعه العاجزة. ولو أنَّني لم أستطع الجزم بصحَّة تفسيره. وكما سبقَ لي القول كانت لي نقاط خلاف عديدة مع سيجموند فرويد.

وخلال حزمنا لأمتعتنا. ناقشت مع شرلوك هولمز فكرة خرق الاتِّفاق مع هاتين القوَّتين (ألمانيا والنِّمسا)، وأن نعلن للعالم سلوكهما المشين. فمتى عُدنا إلى انجلترا لن يكون هناك ما يمنع قيامنا بذلك، ولن يعوقنا - سرقة القطار أو السَّاقي الَّذي قتله هولمز أو اختراقنا للحدود - فهذه كلّها أشياء حدثت عندما كنَّا في النِّمسا، ولا يمكن استخدامها لإرغامنا على التَّعاون. ولربَّما كان من الأصلح أن يعرف العالم مهاوي السُّوء الَّتي يدبِّرها له قادته العظماء.

إلَّا أنِّي قرَّرت السُّكوت، فلم نكن متأكِّدين من النَّتائج الَّتي سيؤدِّي إليها هذا الكشف - إذْ لم يكن أيٌّ منَّا بارعًا في السِّياسة لدرجة تسمح بتقدير نتائج ذلك العمل - والأسوأ من ذلك... لم نكن نستطيع كشف الأمر دون فضح دور الدُّكتور فرويد، وهو أمر لم نكن نجسر عليه ما دام الدُّكتور في فيينا.

وقال فرويد في النِّهاية: "سأخبرك بما أرغب فيه". ووضع سيجارة، وهو ينظر نظرة ثاقبة إلى عين هولمز: "أودُّ أن أنوِّمك مرَّة أخرى".

ولم تكن لديَّ أيّ فكرة عمَّا يودّ أن يطلبه (كنت أظنُّ أنَّه سيرفض أيَّ شيء من هذا القبيل)، ولكنّي لم أتوقَّع ذلك قطّ. كذلك هولمز، الَّذي جحظت عيناه من الدَّهشة، وأخذ يسعل قبل أن يجيب:

- "تريد أن تنوِّمني... لأيِّ سبب؟".

هزَّ فرويد كتفيه دون إجابة، وعلى فمه نفس الابتسامة الهادئة، ثمَّ قال: "لقد تكلَّمت لتوِّك عن ورطة الإنسانيَّة"... ويجب أن أعترف أنَّ هذه هي مناط اهتمامي البالغ، ولمَّا كنَّا قد لاحظنا أنَّ الوسيلة الوحيدة الملائمة لدراسة البشريَّة هي دراسة الإنسان الفرد؛ لذلك فكَّرت أنَّك ربَّما تسمح لي بأن ألقي نظرة أخرى إلى أعماق عقلك".

وفكَّر هولمز في الأمر مليًّا.

- "حسنًا... أنا خادمك المطيع".

وتدخَّلت قائلًا: "هل تسمحون لي بالانصراف؟". هممت بالقيام؛ إذْ ظننت أنَّ فرويد ربَّما يرى في وجودي عرقلة لما سيقوم به.

- فأجاب: "كلَّا... بل إنِّي أفضِّل أن تبقى". وقام ليسدل السَّتائر، ويحضر ساعته ذات السِّلسلة مرَّة أخرى.

كان تنويم هولمز هذه المرَّة أسهل بكثير ممَّا كان عليه الأمر قبل ذلك، عندما كنَّا معتمدين على أسلوب فرويد لإيقاف هولمز عن تعاطي الكوكايين. أمَّا الآن، فكان التَّجاوب سهلًا، ولم يكن هناك ما يعكِّر صفو تفكيرهما. ولدينا وقتٌ كافٍ. وأغلق هولمز عينيه خلال ثلاث دقائق، وجلس ساكنًا منتظرًا تعليمات الدُّكتور.

- وبدأ فرويد حديثه بصوت خافت هادئ: "سأوجِّه إليك بعض الأسئلة. وسوف تجيبني عليها. وعندما ننتهي سأطرق بإصبعي، وسوف تستيقظ عندئذٍ. ولن تتذكَّر شيئًا ممَّا حدث خلال نومك... اتَّفقنا".

- "اتَّفقنا".

- "حسنًا - وأخذ نفسًا عميقًا - متى بدأت تعاطي الكوكايين؟".

- "في سنِّ العشرين".

- "لماذا؟".

لم يحر هولمز جوابًا.

- كرَّر فرويد السُّؤال: "لماذا؟".

- "لأنِّي كنت تعيسًا".

- "لماذا اخترت مهنة المخبر السِّرِّي؟".

- "لأعاقب الأشرار، وأرى العدالة تأخذ مجراها".

- "هل سبق لك أن خبرت ظلمًا؟".

توقَّف...

- وسأله فرويد مرَّة أخرى، وهو يمسح شفتيه بلسانه ناظرًا إليَّ: "هل خبرت؟".

- "نعم".

كنت جالسًا في مقعدي أستمع إلى هذا الحوار بكلِّ انتباه وإعجاب، وقد أسندت كوعي إلى ركبتي، وملت بجسمي إلى الأمام، متخفِّزًا، حريصًا على ألَّا تفوتني كلمة من هذا الحديث الخافت".

- "هل مررت أنت نفسك بخبرة أفعال اللؤم والإثم؟".

- "نعم".

- "وماذا كانت تلك الخبرة؟".

وتردَّد هولمز مرَّة أخرى، وحثَّه فرويد ثانية على الكلام... "ماذا كانت تلك الخبرة؟".

- "كانت أمِّي تخون أبي".

- "هل كان لها عشيق؟".

- "نعم".

- "وماذا كان الظُّلم أو الإثم الَّذي وقع؟".

- "قتلها أبي".

وأحسست بجسم فرويد ينتصب في مقعده، وأخذ ينظر متحيِّرًا في أرجاء الغرفة، وهو فاقد لسيطرته على نفسه - مثلي تمامًا- فقد

نهضت فجأة من مقعدي في استجابة آليَّة، ثمَّ تجمَّدتُ في مكاني... دون أن أفقد حاسَّتي السَّمع والإبصار. وتمالك فرويد نفسه بسرعة عنِّي... والتفت مرَّة أخرى إلى مفحوصه:

- "إذن... لقد قتل أبوك أمَّك؟"[1].

- "نعم". وغصَّ حلقه بشهقة مزَّقت نياط قلبي.

- "وماذا عن عشيقها؟". تابع فرويد استجوابه في مثابرة، وعيناه ترمشان بسرعة.

- "لقد هرب".

وتوقَّف فرويد ليتمالك نفسه قبل أن يتابعَ:

- "وماذا بشأن والدك؟".

- "لقد انتحر".

ظلَّ هولمز بلا حراك طيلة هذا الاستجواب. وكان ظهور قطرات العرق على جبهته فجأة مؤشِّرًا على العذاب الدَّاخليِّ الَّذي يعانيه. وتأمَّله فرويد بعناية، كما لو كان يقدِّر إلى أيّ مدى يمكن الاستمرار في هذا الاستجواب... ثمَّ قرَّر الاستمرار.

- "هل كنت تعرف شخصيَّة عشيق أمِّك؟".

- "نعم".

- "مَن هو؟".

ولم أستطع أن أمنع نفسي من التَّدخُّل... "يا دكتور". لم يكن الاسم

---

(1) لقد استطاع تريفور هوارد ببراعة استنتاج هذه الواقعة، وذكرها في مقال بعنوان "السَّنوات المبكِّرة في حياة شرلوك هولمز" _ (نيكولاس ماير).

يعني شيئًا بعد هذه السَّنوات الطَّويلة. ولكنَّ السُّؤال كان قد أُلْقِيَ. وكان هولمز بحكم طبيعته المنتظمة - داخل التَّنويم وخارجه - على وشك الإجابة.

- "لقد كان مدرِّسنا!".
- "مدرِّسك أنت وأخيك مايكروفت؟ الأستاذ موريارتي؟".
- "نعم" جاء الجواب مصحوبًا بأنَّة مكتومة.
- "هكذا إذن".

ونظر فرويد إلى ساعته في سلسلتها، وحملق فيها مكتئبًا برهة، ثمَّ وضعها في جيبه، وقال: "حسنًا، فلتنم الآن يا هر هولمز... وابقَ نائمًا... سأوقظك بعد لحظة... ولن تتذكَّر شيئًا ممَّا دار في هذه المقابلة... مفهوم؟".

- "قلت إنَّني فاهم".
- "حسنًا... فلتنم الآن".

ولاحظه فرويد لفترة، وتأكَّد من أنَّه لا يتحرَّك. ثمَّ نهض وعبر الغرفة، وجذب مقعدًا وضعه بجانبي. وكانت عيناه أكثر حزنًا من أيِّ وقتٍ مضى. ولم يقل شيئًا، بل أخذ سيجارًا، وقصَّ طرفه وأسفله. وكنت قد غرقت في مقعدي، وعقلي في دوَّامة، وأذناي تدوِّيان من هول الصَّدمة.

- قال فرويد بعد فترة وهو يحدِّق فيَّ من خلال الدُّخان: "لا يتَّجه المرء إلى المخدِّرات بسبب أنَّها "الموضة"، أو لأنَّه يحبُّ ذلك. هل تتذكَّر أنَّني سألتك في البداية كيف عرف طريقه إلى المخدِّر. ولم تستطع أن تجيب عن سؤالي؟ بل ولم تدرك

أهمّيَّته. إلَّا أنَّي أدركت منذ البداية أنَّ شيئًا قد دفعه إلى هذا الطَّريق المهلِك...

- "ولكن"- وألقيت نظرة على هولمز- "هل خطر ببالك؟".

- "كلَّا بالطَّبع... لم أتوقَّع قط أن أسمع ذلك الَّذي سمعته الآن. ولكن انظر إلى الكمِّ الهائل الَّذي شرحته لنا تلك الوقائع. فنحن نفهم الآن مصدر إدمانه، والسَّبب الَّذي جعله يختار تلك المهنة، بل وفهمنا أيضًا سرَّ تجنُّبه للنِّساء، والصُّعوبات الَّتي يعانيها في التَّعامل معهنَّ. وفضلًا عن ذلك، اتَّضحت أسباب عداوته لموريارتي، وكذلك النُّفوذ الغامض الَّذي يمتلكه مايكروفت على هذا الشَّخص. كما تفهم أيضًا لماذا ضخَّم صديقك من شأن هذا الأستاذ الصَّغير، وسمَّاه "نابليون الجريمة". فتحتَ تأثير التَّشبُّع بالكوكايين، تتَّخذ العلاقة غير المشروعة بين موريارتي ووالدة هولمز أبعادها الانفعاليَّة الحقيقيَّة - وهي أبعاد لا نهاية لها".

ومال فرويد بجسمه إلى الأمام، وهو يمسك بالسِّيجار يهزّه؛ لتأكيد كلامه، ثمَّ عاد إلى جلسته، تاركًا لي فرصة من الوقت؛ لأفهم تسلسل أفكاره. ولمَّا رأى أنّي أتابعه... استأنف حديثه قائلًا: "ويجب أن ندرك بالطَّبع أنَّ كلَّ هذه الاستنتاجات مدفونة في أعماق نفسه - في منطقة أطلقت عليها تعبير "اللاشعور" - ولا يسمح لها فقط بالظُّهور في إدراكه، وإنَّما تظهر أعراض هذه الأفكار رغمًا عنه - كما يتَّضح في اختياره لمهنته، ولا مبالاته بالنِّساء، (وهو أمر قد سجَّلته يا دكتور واطسون)، وأخيرًا في تفضيله للمخدِّر الَّذي تتكشَّف تحت تأثيره مشاعره الحقيقيَّة الدَّفينة حول الموضوع".

لقد استوعبت الحقيقة المهولة في قول سيجموند فرويد في لمحة. لقد فسَّرت لي أيضًا ذلك الانسحاب الغريب لمايكروفت هولمز من

العالم إلى مكان يحظر فيه الكلام، وكذلك حالة العزوبيَّة الدَّائمة للأخوين. أمَّا بالنِّسبة للبروفيسور موريارتي، ودوره في هذه المسألة، فقد أدركت مفزوعًا كيف أنَّ شرلوك هولمز كان مصيبًا بالنِّسبة له على أيِّ حال. والتفت إليَّ سيجموند فرويد: "إنَّك أعظم المخبرين السِّرِّيين على الإطلاق". ولم يكن هناك وصف يمكن أن أطلقه عليه غير ذلك.

- وهزَّ فرويد رأسه وهو يبتسم ابتسامته الحزينة الحكيمة: "لست مخبرًا سرِّيًّا، ما أنا إلَّا طبيب، مجاله هو العقول المضطربة". ولاح لي أنَّ الفرق لم يكن كبيرًا.
- "وما الَّذي ستستطيع فعله بالنِّسبة لصديقنا؟".
- وتنهَّد فرويد، وهزَّ رأسه مرَّة أخرى:
- "لا شيء".
- وذُهلت... "لا شيء"... هل قطعنا كلَّ هذا الشَّوط؛ لكي نقف عند هذا الحدِّ.
- "أجل... لا شيء... لا أعلم كيف أصل إلى تلك المشاعر إلَّا من خلال تلك الطَّريقة الفجَّة العاجزة، ألَا وهي التَّنويم".
- فقلت: "عاجزة؟ ". وجذبت كمَّ سترته وأنا أقول: "بالتَّأكيد يا دكتور فرويد"...
- "أجل... عاجزة... لأنَّ المريض في هذه الحالة لن يرغب - بل لن يستطيع - أن يتقبَّل شهادته هو نفسه عندما يعود إلى وعيه... لن يصدِّقني... ولن يصدِّقك... بل سيتَّهمنا بالكذب والافتراء".
- "ولكن...".

- "يا دكتور واطسون... لو لم تكن أنت هنا... وشاهدت بنفسك، هل كنت تصدِّق؟".

- واعترفت بأنّي بالفعل ما كنت لأصدِّق.

- "حسنًا... ها هنا توجد مشكلتنا. وعلى أيّ حال... فمن المشكوك فيه أن يظلَّ هولمز هنا لمدَّة كافية تسمح لنا بالتَّوغُّل في أعماق ذاته بأيِّ وسيلة أخرى. إنَّه يتعجَّل الرَّحيل".

وتجادلنا في الموضوع عدَّة دقائق، ولكنّي أدركت منذ البداية أنَّه على صواب. إنَّ أيّ أساليب قد تساعد شرلوك هولمز لم تُكْتَشَفْ بعد.

وقال لي فرويد: "تسلَّح بالشَّجاعة يا أخي. إنَّ صديقك، في نهاية الأمر، هو إنسان يقوم بواجباته. إنَّه يؤدِّي عملًا نبيلًا، بل ويؤدِّيه ببراعة. ورغم تعاسته، فإنَّه ناجح في عمله، بل ويحبّه النَّاس. وسيأتي الوقت الَّذي سيكتشف فيه العلم مغاليق أسرار العقل البشريّ. وعندما يأتي ذلك الوقت، لا شكَّ عندي في أنَّ شرلوك هولمز سيكون مسؤولًا عن الوصول إليه، شأنه شأن كلّ الآخرين. سواء أتخفَّف عقله من أحماله المخيفة أم لم يتخفَّف".

وجلسنا صامتين لفترة من الوقت، وبعدها أيقظ فرويد المخبر السِّرِّيّ من غفوته. ولم يتذكَّر شيئًا كما أمر.

واستفسر هولمز، وهو يشعل غليونه: "هل قلت شيئًا ذا أهمِّيَّة؟".

- وأجابه فرويد مبتسمًا: "أخشى أنَّ ما قلته لم يثر اهتمامي". وتشاغلت أنا بالنَّظر في اتِّجاه آخر متفحِّصًا، لآخر مرَّة، صفوف الكتب المتراصَّة. ثمَّ توجَّه بالسُّؤال إلى فرويد: "وما الَّذي ستفعله بالنِّسبة للبارونة؟".

- "سأفعل ما أستطيع".

وابتسما، وسرعان ما تبادلنا تحيَّات الوداع مع بقيَّة أفراد المنزل، بولا، وفراو فرويد، والصَّغيرة آنا الَّتي بكت بحرقة، وهي تلوِّح بتحيَّات الوداع - ونحن نستقلّ العربة - بمنديلها الصَّغير الَّذي بلَّلته الدُّموع. ووعدها هولمز بأنَّه سيعود يومًا ما، ويعزف على الكمان من أجلها.

وخلال رحلتنا إلى محطَّة القطار، غرق في صمت، وبدت عليه علامات التَّفكير العميق. وظلَّ كما هو بحيث إنَّني لم أرغب في إزعاجه، ولو أنَّ تغيُّر مزاجه أدهشني، وأقلقني. إلَّا أنِّي عندما رأيته بعد أن وصلنا يتَّجه إلى رصيف القطار المؤدِّي إلى ميلانو، اضطررت للتَّدخُّل، ولكنَّه ابتسم، وهزَّ رأسه:

- "كلَّا يا واطسون... لا يوجد أيّ خطأ".

- "ولكنَّ قطار دوفر لا يقوم من هذا الرَّصيف".

- "لست عائدًا إلى انجلترا".

- "ليس بعد، أعتقد أنَّني أحتاج لبعض الوقت لأخلو إلى نفسي، أحتاج إلى وقت للتَّفكير. أمَّا أنت يا صديقي، فاستجمع شجاعتك. ستذهب إلى انجلترا بدوني".

وقلتُ مرتبكًا، وقد أذهلني تقلُّب الأحداث: "ولكن متى ستعود؟".

وأجاب بغموض: "سأعود يومًا ما". وأضاف بحيويَّة:" أخبر أخي بقراري، واسأله أن يطلب من مسز هدسون الإبقاء على مسكني كالمعتاد، وألَّا تلمس شيئًا. هل هذا واضح؟".

- "ولكن يا هولمز...".

لم تكن هناك جدوى من المناقشة. كانت خطاه أسرع منِّي بكثير. ونظرت حولي في المحطَّة المزدحمة عاجزًا وغاضبًا من نفسي لعدم قدرتي على التَّعامل معه، ووددت لو كان فرويد معي.

- وقال لي بحنان وهو يمسكني من ذراعي: "يا صديقي العزيز... لا تقس على نفسك. أؤكّد لك أنّي سأتعافى تمامًا، ولكنّي أحتاج إلى وقت، وقد يطول هذا الوقت". وسكت برهة، ثمَّ استطرد: "ولكنّي سأعود إلى شارع بيكر، وهذا وعد منّي. أرجو أن تبلِّغ تحيّاتي إلى مسز واطسون".

وضغط على يدي، وهو يركب قطار ميلانو الّذي بدأ في الحركة.

- "ولكن يا هولمز كيف ستعيش؟ هل لديك أيّ مال؟".

كنت أمشي بجانب القطار بخطوات تتّسع مع ازدياد حركته.

واعترفَ مبتسمًا: "ليس لديَّ الكثير، لكن معي كمان، وأعتقد أنّني سأستطيع إعالة نفسي بأكثر من وسيلة عندما تُشْفَى ذراعي". واستطرد ضاحكًا: "وإذا أردت أن تتابع حركتي عليك بمتابعة المسار الفنِّيّ لموسيقى عازف على الكمان يُدْعَى سيجرسون"، ثمَّ هزَّ كتفيه وقال: "وإذا فشلت في ذلك، فسأبرق إلى مايكروفت طالبًا الدَّعم".

- فقلت: "ولكن ماذا عن قرّائك - قرّائي... ماذا سأقول لهم؟".

كنت أجري بجانب القطار الآن.

وأجاب: "أخبرهم بما شئت، قلْ لهم إنَّ مدرِّس الرِّياضيَّات قد قتلني. وعلى أيّ الأحوال، فهم لن يصدِّقوك أبدًا".

وزادت سرعة القطار بحيث لم تستطع ساقاي متابعته.

كانت رحلة عودتي خالية من الأحداث. فقد غفوت معظم الطَّريق، وعندما نزلت من القطار في محطَّة فيكتوريا، كانت زوجتي العزيزة تنتظرني بابتسامة عريضة وذراعين مفتوحتين.

النِّهاية

مكتبة
t.me/soramnqraa

نبذة عن الكاتب

"نيكولاس ماير" 1945-

مؤلِّف هذه الرِّواية. كاتب انجليزيٌّ يعيش في أمريكا. ولم تُعْرَفْ له مؤلَّفات شهيرة، مثل هذه الرّواية الَّتي لاقت رواجًا، وأخرجتها السِّينما في هوليود. وقد بذل المؤلِّف جهدًا كبيرًا في كتابتها، اضطره للرُّجوع إلى عشرات المؤلَّفات الَّتي كُتِبَتْ عن فرويد وعن شرلوك هولمز.

نبذة عن المترجِم

"د. لطفي فطيم" 1930-1997

أستاذ علم النَّفس بآداب سوهاج، وزميل الجمعيَّة النَّفسيَّة البريطانيَّة - ترجَم إلى العربيَّة من الانجليزيَّة والفرنسيَّة عددًا من أمَّهات الكتب في علم النَّفس مثل أزمة علم النَّفس المعاصر لجورج بوليتزير، ونظريَّات الشَّخصيَّة لهول ولينـدزي، وفنّ العلاج النَّفسي لأنتوني ستور. وله عدد من المؤلَّفات بالعربيَّة مثل العلاج النَّفسيّ الجمعيّ، ونظريَّات التَّعلُّم، والإرشاد النَّفسيّ.

شرلوك هولمز يقابل سيجموند فرويد

رواية

ما علاقة الكوكايين بالعبقرية؟!..

ربما كانت محاولة شرلوك هولمز لكسر قيود الكوكايين، الذي غاص في أوحاله، أشق مجهود بطولي شاهدته في حياتي، فلا أتذكر سواء في حياتي المهنية أو خبرتي الشخصية، وسواء في حياتي العسكرية أو المدنية أنني شاهدت شيئًا يقارب العذاب والألم الذي شاهدته.

كان اليوم الأول للدكتور سجموند فرويد ناجحًا. فقد تمكن من تنويم هولمز ووضعه في سبات عميق في إحدى الغرف التي وضعها تحت تصرفنا في الطابق الثاني من منزله. وما أن رقد هولمز على السرير حتى جذبني فرويد من كمي وأمرني قائلاً: "هيا بسرعة.. يجب أن نفتش أمتعته".

telegram @soramnqraa

مركز المحروسة للنشر والخدمات الصحفية والمعلومات

الغلاف:
عبد الرحمن الصواف